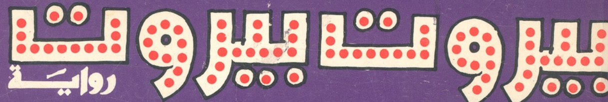
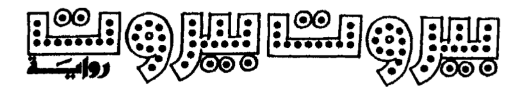
صنع الله ابراهيم





دار المستقبل العربي

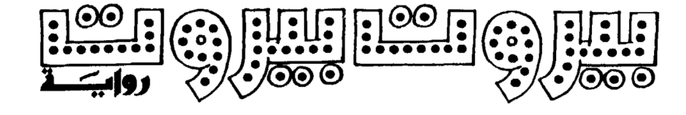

بيروت بيروت
رواية

١٩٨٤

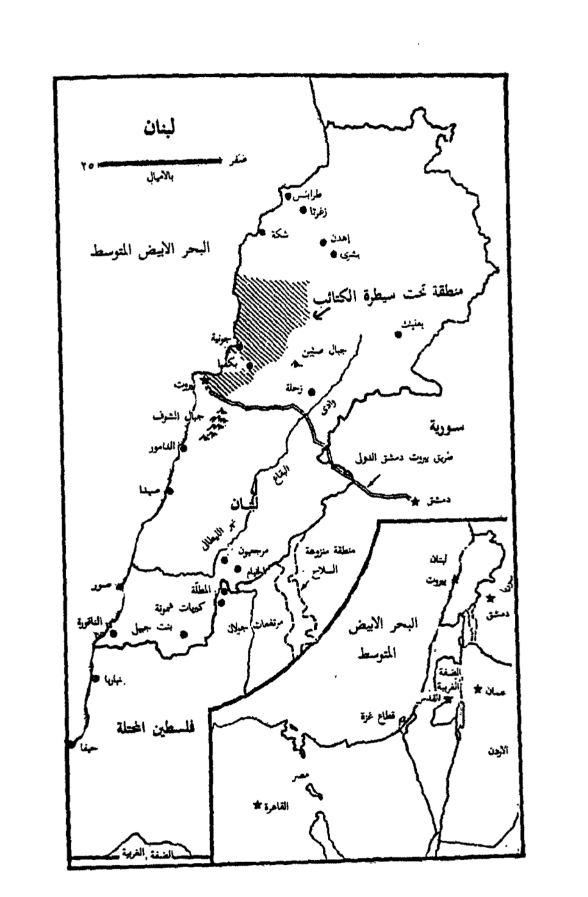


دار المستقبل العربى
٤١ شارع بيروت . مصر الجديدة
ت/ ٦٦٥٩٠٠ ص.ب/ ٢٤٨٥
القاهرة . جمهورية مصر العربية

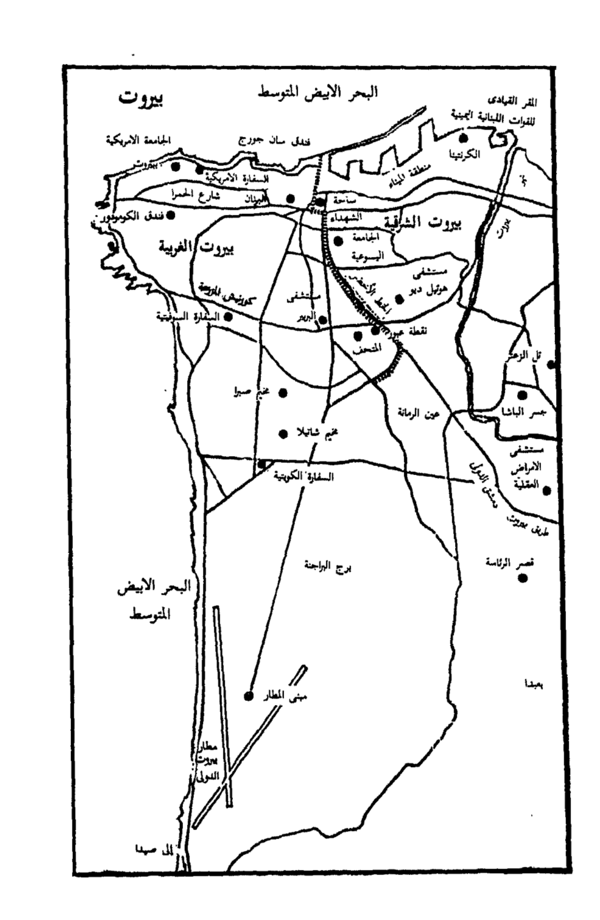

صنع الله ابراهيم


بيروت بيروت
رواية


دار المستقبل العربي



لبنان
صفر
٢٥
بالأميال
البحر الابيض المتوسط
طرابلس
زغرتا
شكة
إهدن
بشري
منطقة تحت سيطرة الكتائب
بعلبك
جونية
جبال صنين
بكفيا
بيروت
زحلة
جبال الشوف
سورية
الدامور
طريق بيروت دمشق الدولي
صيدا
البقاع
دمشق
لبنان
الليطاني
مرجعيون
منطقة منزوعة
السلاح
الخيام
صور
المطلة
كوبيات حمونة
الناقورة
بنت جبيل
مرتفعات الجولان
نهاريا
فلسطين المحتلة
حيفا
الضفة الغربية
لبنان
بيروت
دمشق
البحر الابيض
المتوسط
الضفة
الغربية
عمان
القدس
قطاع غزة
الأردن
مصر
القاهرة



بيروت
البحر الابيض المتوسط
المقر القيادي
للقوات اللبنانية الجمينية
الكرنتينا
الجامعة الامريكية
فندق سان جورج
منطقة الميناء
السفارة الامريكية
شارع الحمرا
البرلمان
ساحة
الشهداء
فندق الكومودور
بيروت الشرقية
بيروت الغربية
الجامعة
اليسوعية
مستشفى
هوتيل ديو
مستشفى
البربير
السفارة السوفيتية
نقطة عبور
المتحف
تل الزعتر
مخيم صبرا
عين الرمانة
جسر الباشا
مخيم شاتيلا
مستشفى
الامراض
العقلية
السفارة الكويتية
طريق بيروت
برج البراجنة
قصر الرئاسة
البحر الابيض
المتوسط
مبنى المطار
بعبدا
مطار
بيروت
الدولي
الى صيدا

(١)

فتشونى مرتين : الأولى عند الحاجز الجمركى ، والثانية أمام البوابة المؤدية إلى أرض المطار . وبين الاثنتين مررت أنا وحقيبة يدى الجلدية من دائرة تليفزيونية وبوابة إليكترونية . وكان فى انتظارى واحد منهم على باب الطائرة ، جاس بيديه أسفل إبطى وبين فخذى وداخل كل من حقيبة يدى وكيس السوق الحرة . وأخيرا سُمِحَ لى بولوج الطائرة .

توقفت بجوار أول مقعد فارغ صادفنى ، فأودعت الكيس بالخزانة المعدنية المثبتة فى السقف ، وجلست بعد أن وضعت الحقيبة على الأرض ، بين قدمى .

فصلنى مقعد فارغ عن كوة زجاجية إنسابت منها شمس العصارى الواهنة ، وبدت من خلالها اللافتة الضخمة التى تعلن عن ميناء القاهرة الجوى . إسترخيت فى مقعدى ومددت ساق أسفل المقعد الأمامى . ولم ألبث أن أزحتهما جانبا مفسحا الطريق لراكب فى جلباب أبيض سابغ إستقر إلى جوارى . ولمحت بركن عينى « الغطرة » السعودية تتدلى فوق كتفيه .

سمعته يزفر بشدة موجها الحديث إلى :

ـــ يعاملون الواحد كأنه إرهابى أو فدائى .

إنهمكت فى تثبيت حزام المقعد إلى وسطى ، ولم أعبأ بالرد عليه .

إمتلأت الطائرة بعد لحظات ، وانتشرت فى أرجائها الجلاليب والملابس الريفية الثقيلة ، تعلوها وجوه سمراء ناطقة بالرهبة والقلق . والتقطت عيناى البعض ممن إرتدوا ملابس أوروبية أنيقة ، وأخفوا عيونهم خلف نظارات شمسية داكنة ، وإستقرت فوق

ركبهم حقائب السامسونايت المحكمة . وكان ثمة نساء قليلات ، كشف بعضهن عن أذرع بضة تحمل حقائب يد أشبه بصناديق الأحذية أو المجوهرات . ولم تكن بينهن فلاحة واحدة .

إرتفعت الطائرة أخيرا ، فختم جارى الإبتهالات التى كان يغمغم بها فى صوت مسموع . وبعد قليل غاب الضوء عن الإشارة التى تطلب الامتناع عن التدخين ، وجاءنا صوت قائد الطائرة مقدما نفسه ، معينا السرعة والإرتفاع ، والمسافة الزمنية التى تفصلنا عن بيروت .

فككت حزام المقعد ، وأخرجت علبة سجائرى المصرية من جيبى ، وأشعلت واحدة . إكتشفت من أول نفس أن الدخان يتسرب من ثقوب عديدة بها ، فأطفأتها فى منفضة المقعد . وقررت أن أؤجل التدخين بعض الوقت ، مقللا من إحتمالات الإصابة بالسرطان .

خاطبنى جارى كأنما يواصل حديثا بيننا :
ــ ألم تنته الحرب من سنتين ؟ لماذا إذن هذه الاجراءات ؟

لم أفهم لأول وهلة أية حرب وأية اجراءات يعنى . ثم أدركت أنه يشير إلى الحرب الأهلية اللبنانية ، والتفتيش المتكرر الذى تعرضنا له .

أدرت رأسى نحوه وقلت :
ــ إحتياطات لا ضرر من ورائها .

طالعنى وجه أسمر لكهل فى الستين ، تتوسطه عينان ماكرتان ، وتحف به لحية رمادية خفيفة ، مدببة الطرف .

طافت عيناه بملابسى وشعرى ، وتمهلت عند إصبعى الخالى من خاتم الزواج ، وبشائر الشعر الأبيض فوق رأسى . وتجلى فيهما تركيز بالغ وهو يتأمل الحقيبة الجلدية الملقاة بين قدمى .

شعرت بحاجة ماسة إلى الشراب ، فأدرت رأسى الى الناحية الأخرى ، وملت بها فى الممر الفاصل بين المقاعد ، مُلْتَمِساً إحدى المضيفات . أحصيت فى ذهنى ماأحمل من دولارات مفردة . وقررت أن أطلب علبة بيرة . ثم تذكرت أن ثمنها يتجاوز نصف الدولار دون أن يبلغه كله . والغالب أن المضيفة لن تعيد إلى باقى

الدولار ، لأن الطائرة عربية ، ونحن جميعا عرب . وبهذا الدولار يمكنني أن أحصل على كأس من الويسكى أو الجين ، يبعث شيئا من الحيوية فى عروق .

إستدار أحد ركاب الصف المقابل ناحيتى ، قابضا على مسند مقعده بأصابع يكسوها طلاء أصفر اللون ، وخاطب راكبا خلفى بلهجة مصرية ، سائلا إياه عما إذا كان قد إشترى المسجلة من السوق الحرة .

أومأ السعودى اليه قائلا :

ـــ هؤلاء ذاهبون للعمل فى العراق . وهم مضطرون للسفر عن طريق بيروت . فمطار بغداد مغلق ومطار عمان لم يعد يحتمل المزيد .

إشتدت حاجتى الى الخمر . ومرت المضيفة فطلبت منها كأسا من الويسكى . ولم أعبأ بنظرة الاستهجان التى رمانى بها السعودى .

سألنى بعد لحظة :

ـــ بيروت وجهتك أم ذاهب إلى مكان أخر ؟

قلت :

ـــ لا . بيروت .

ـــ الشرقية أم الغربية ؟

أوشكت أن أجيب تلقائيا بأنها الشرقية ، ثم تذكرت أن بيروت هى المكان الوحيد فى عالم اليوم الذى تنقلب فيه المدلولات السياسية للأوضاع الجغرافية .

قلت :

ـــ الغربية . وأنت ؟

قال :

ـــ عندى أشغال فى أماكن كثيرة .

أحضرت لى المضيفة زجاجة صغيرة للغاية تضم كأسا واحدة ، وكوبا به قطع من الثلج . فتحت الزجاجة وصببتها فى الكوب ثم هززته عدة مرات ورفعته إلى شفتى .

سرت الحرارة فى جوفى ، فأشعلت سيجارة ، وأخذت أنفاسها ببطء .

سألنى :

ـــ سياحة أم عمل ؟

أجبت :

ـــ عمل .

ـــ أول مرة ؟

ـــ لا .

أفرغت الكأس ، وشعرت على الفور بالرغبة فى كأس أخرى .

عاد يسألنى :

ـــ معك عقد أم ذاهب للبحث عن واحد ؟

ـــ يمكنك أن تقول أنى ذاهب للبحث .

سأل فى اهتمام :

ـــ ماهو عملك بالضبط ؟

ـــ الكتابة .

ـــ صحفى ؟

ـــ ليس تماما .

ـــ يعنى لست ذاهبا للبحث عن عمل فى إحدى الصحف ؟

هززت رأسى نفيا .

قال :

ـــ إذن ستبحث عن جهة تكتب لها ؟

ـــ أبدا . سأبحث عن ناشر لكتاب ألفته .

إستغرق فى التفكير ، فسألته بدورى :

ـــ وأنت .. ما عملك ؟

ـــ أنا كما تقولون باللهجة المصرية مقاول .

ـــ مقاول ماذا ؟

ـــ كل شىء .

ولوح بيده مشيرا إلى ركاب الطائرة من المصريين وهو يضيف :

ـــ عندى مئات من هؤلاء فى السعودية .

جعلت أتخيل الكأس الثانية .

سألنى :

ـــ هل تعرف مخرجا سينمائيا يدعى صبحى توفيق ؟

فكرت قليلا ثم أجبت بالنفى .

قال :

ـــ كان عندى هذا الصباح فى الهيلتون .

لم أعلق بشىء . وسكت هو لحظة ثم واصل أسئلته :

ـــ لماذا لم تنشر كتابك فى مصر ؟

أجبت :

ـــ لا أحد يريد نشره .

ـــ هل هو أول كتاب لك ؟

ـــ لا .

ـــ لابد أنه كتاب سياسى .

قلت :

ـــ بالعكس . إنه كتاب إباحى .

طرفت عيناه بسرعة ثم ركن إلى الصمت . وبعد قليل سألنى فى تردد :

ـــ هل تكسب ... هذه الكتب ؟

أجبت :

ـــ أوهوه ... كثيرا .

أحسست أنى أستحق كأسا أخرى ، فقررت التضحية بدولار ثان . وأفضيت بمطلبى إلى المضيفة عندما مرت توزع الصحف .

أخذت منها صحيفتين لبنانيتين ، ناولت إحداهما لجارى . ولمحت معها عدة صحف أمريكية فأخذت إحداها . ألقيت نظرة على النصف الأسفل للصحيفة اللبنانية ، فألفيته موزعا بين ثلاثة موضوعات رئيسية : الأول عن المؤتمر الصحفى الذى عقده ريجان بعد انتخابه رئيسا للولايات المتحدة . والثانى عن قصف إسرائيلى جديد للجنوب اللبنانى . أما الثالث فكان يتضمن تصريحا لوزير خارجية العراق يدافع فيه عن الحرب التى شنتها بلاده على ايران قائلا انها ستحرر القوى الاقتصادية

والعسكرية العراقية من « الشاغل » الايرانى لتصبح قادرة على التصدى للخطر الإسرائيلى .

بسطت الجريدة فطالعنى فى صدرها عنوان كبير نصه : « قرارات حاسمة بوقف إطلاق النار فى بيروت الغربية » . بحثت عن التاريخ فوجدته السابع من نوفمبر ، تشرين الثانى ١٩٨٠ ، وهو تاريخ اليوم . عدت إلى النبأ فقرأت مايلى :

« تم فى الساعات الأخيرة إتخاذ قرارات حاسمة لتطويق الاشتباكات التى جرت فى اليومين الاخيرين ببيروت الغربية ، وذلك فى أعقاب سلسلة من الاتصالات بين قادة الأحزاب والهيئات اللبنانية ، والمنظمات الفلسطينية ، والسلطات السورية . »

وقرأت أسفل ذلك التفاصيل الكاملة للأحداث المشار إليها . وقد بدأت عندما كانت سيارة رئيس نقابة بائعى الخُضَر فى بيروت الغربية ، ويدعى « منير فتحة » ، تحاول العبور فى أحد التقاطعات قبل سيارة أخرى يقودها أحد أعضاء الحزب القومى الاجتماعى . وتبادل السائقان الشتائم ثم أشهر كل منهما مسدسه فى وجه الآخر . وبادر سائق السيارة الثانية باطلاق النار فأصاب رئيس النقابة فى مقتل ، وسارع بالفرار .

وما أن علم بالحادث إبن القتيل ، وهو من قادة التنظيم الناصرى المعروف باسم « المرابطون » ، حتى شكل فى الحال مجموعة عسكرية من أعضاء التنظيم هاجمت منزل بشير عبيد ، أحد زعماء الحزب القومى الذى ينتمى إليه القاتل . ووجد المهاجمون لديه زعيما آخر من زعماء الحزب هو الشاعر كمال خير بك ، وابنة أخته الشابة ناهية بجانى ، فأعدموا الثلاثة . وتفجرت الاشتباكات بين أعضاء الحزبين على إثر ذلك .

فتشت فى أنحاء الصحيفة عن تفصيلات جديدة فلم أجد سوى إشارة إلى إفتتاحية لجريدة « السفير » اللبنانية تقول فيها إن الميليشيات المسلحة فى الغربية ، سواء كانت تابعة أو محسوبة على الحركة الوطنية أو المقاومة الفلسطينية أو الحكومة السورية ، أو — بتعبير الصحيفة — « فاتحة على حسابها » ، هى المسئولة عن الإنفلات الأمنى والتسيب ، وما يقع فى ظلهما من جنايات وجرائم ، إبتداء من القتل والسطو المسلح ، إلى فرض الاتاوات واغتصاب الشقق والبنايات ، إلى تكدس النفايات .

وضعت الجريدة جانبا وبسطت الجريدة الأمريكية . كانت بتاريخ اليوم

السابق . وعثرت فى ذيل الصفحة الأولى على مربع صغير بعنوان : « الحرب التى لا تريد أن تنتهى » . ومرت عيناى بسرعة على السطور التالية :

« تعطى الإشتباكات المسلحة التى جرت أمس فى بيروت الغربية صورة بالغة الدلالة لما وصلت إليه الأمور فى لبنان ، منذ إندلاع الحرب الأهلية فى سنة ١٩٧٥ بين أبناء هذا البلد الجميل (٣ مليون نسمة قبل الحرب إنخفضوا إلى مليونين ونصف الآن) .

فمن الناحية الرسمية إنتهت هذه الحرب عام ١٩٧٧ بسيطرة قوات الردع الغربية التى تتألف غالبيتها من قوات سورية . لكن الإشتباكات المختلفة لم تتوقف حتى الآن بصورة نهائية بين الجانبين المتصارعين . والأكثر من ذلك أن هذه الاشتباكات تركزت فى الآونة الأخيرة بين القوى المختلفة داخل كل منهما ، بصورة تعيد إلى الأذهان صراع عصابات شيكاغو فى العشرينات والثلاثينات ، والمعارك الدموية بين عائلات المافيا .

ففى ٧ يوليو / تموز الماضى ، قاد بشير الجميل (٣٣ سنة) ، القائد العسكرى الشاب لميليشيا الكتائب المارونية ، والحاكم الفعلى لبيروت الشرقية ، حملة تصفية على مراكز شريكه فى الجبهة المارونية ، كميل شمعون ، أطلق عليها ساخرا لقب « الحركة التصحيحية » ، وقتل فى ساعات قليلة أكثر من ٥٠٠ من رجال ميليشيا « النمور » التابعة للأخير . وبالنتيجة ، وافق شمعون صاغرا على الإشتراك فى اجتماعات المجلس العسكرى « للقوات اللبنانية » بقيادة بشير الجميل ، مقابل استمرار حصوله على نصيبه من أرباح ميناء ضبية ، بالإضافة إلى مليون دولار نقدا .

وقبل أربعة شهور من مذبحة النمور ، إنفجرت شحنة متفجرات ، تعمل بالتحكم النائى ، فى سيارة بشير الجميل ، فأودت بحياة إبنته مايا (٣ سنوات) التى ولدت عشية هجوم آخر دبره أبوها على القصر الصيفى للرئيس السابق سليمان فرنجية ، فى بلدة أهدن ، راح ضحيته ابنه الأكبر طونى (٣٦ سنة) وزوجته فيرا (٣٢ سنة) وإبنتهما جيهان (٣ سنوات) .

وقد رافقت هذه المذابح صعود بشير الجميل ، وسعيه لفرض زعامته على الجبهة المارونية أو « الجبهة اللبنانية » كما تسمى نفسها ، والتى تتألف من قوات بيار الجميل (الكتائب) وشمعون (النمور) وفرنجية (المردة) ، فضلا عن شربل قسيس (المجلس

الدائم للرهبانيات) ، وإتيين صقر (حراس الارز) .

وعلى الناحية الأخرى من الخط الأخضر الذى يفصل شطرى العاصمة اللبنانية ، تدور معارك مماثلة بين القوى العديدة التى تتألف منها الجبهة المضادة التى تسمى أحيانا بالإسلامية ، وأحيانا أخرى بالوطنية ، وأحيانا ثالثة بالتقدمية ، وأحيانا رابعة باليسارية .

وبالاضافة إلى المنظمات الفلسطينية التى يرتبط بعضها ببلاد عربية متناحرة مثل العراق وسوريا أو السعودية وليبيا ، فان هذه الجبهة تتألف من أحزاب ناصرية يتوزع ولاؤها بين العراق وسوريا وليبيا ، وتنظيمين بعثيين يتبع أحدهما العراق ، ويسير الآخر خلف القيادة السورية ، وآخرين شيوعيين يرفعان راية ماركس ولينين ، وحزب إشتراكى يعبر عن الأجنحة الليبرالية فى طائفة الدروز ، وجماعات إسلامية متفرقة ، يمثل بعضها الزعامات التقليدية لطائفتى السنة والشيعة ، هى زعامات شبه اقطاعية تربطها خيوط وثيقة بالأنظمة الملكية فى العالم العربى ، بينما يمثل البعض الاخر زعامات جديدة لهاتين الطائفتين ، يحظى بعضها بمساندة الخمينى ، ويحظى البعض الاخر بدعم القذافى .

ومن السهل أن تنشب المنازعات بين هذه الجماعات المتباينة ، كرد فعل للصراعات القائمة بين الأنظمة العربية ، أو بسبب التنازع على مناطق النفوذ . كما أن الشجار التافه فى الطريق يمكن أن يؤدى إلى اشتباك واسع النطاق . فكل شخص يتبع بصورة أو أخرى أحد التنظيمات أو إحدى الجماعات . وبحكم التفكير العشائرى القبلى السائد ، لابد أن تهب الجماعة التى يتبعها إلى نصرته ، ظالما أو مظلوما ، باللغة الوحيدة السائدة ، وهى لغة المسدس » .

وختمت الصحيفة تعليقها قائلة : « ان الساعات القليلة القادمة ستبين ما اذا كان يمكن تطويق الاشتباكات وفرض النظام ، أو أن البلاد ستواصل الانحدار إلى هاوية لا يعرف أحد لها قرارا . »

كان السعودى يقرأ صحيفته باهتمام وهو يتطلع إلى بين الفينة والأخرى فى قلق ، محاولا أن يستشف إنطباعى . وتركت وجهى جامدا حتى إنتهيت من القراءة ،

فالتفت إليه وقلت :
ــ الظاهر أننا جئنا فى الوقت المناسب .

(٢)

تناولت جواز سفرى من ضابط الجوازات الملول ، ودسسته فى الحقيبة المدلاة من كتفى . ثم حملت حقيبة السفر فى يدى اليمنى ، وكيس السوق الحرة فى اليسرى ، وعبرت حاجز الجوازات إلى صالة المطار الصغيرة ، دون أن يحفل أحد بتفتيشى ولو من باب الحماية الجمركية .

مضيت إلى نافذة البنك ، فاستبدلت خمسين دولارا بسعر أربع ليرات للدولار الواحد . وإتجهت إلى الباب الخارجى للمطار ، فبلغته بعد خطوات معدودة . كان ثمة صف من سيارات الأجرة ، خارج الباب مباشرة ، يشرف عليها شرطى يحمل دفترا . ولمحت السعودى بجوار إحداها . وسمعته يطلب من السائق أن يأخذه إلى المنطقة الشرقية .

تقدمت من السيارة التالية وذكرت وجهتى لسائقها ، فغادر مقعده ودار حول السيارة . تبعته وناولته حقيبة السفر ليودعها صندوق السيارة الخلفى . ثم مضيت إلى الشرطى وسألته فى صوت خافت عن الأجرة التى يتعين على دفعها ، فقال :
ــ تلاتين ورقة .

صاح السائق من مكانه عند السيارة :
ــ تلاتين ما بتسوى . الكّل بيدفع أربعين .

زجره الشرطى برفق وهو يشير إلى أن أركب .

تمسك السائق بموقفه صائحا :
ــ ما بدى روح ع الغربية .

عنفه الشرطي :
ــ وْلَك . ما تصرّخ . بتركّبه ولا ياخذ السيارة اللي بعدك ؟
إستسلم السائق وصاح لى :
ــ عجّل يا زلمة .

ركبت فى المقعد الخلفى . وإنطلق السائق بالسيارة وهو يغمغم لنفسه مزمجرا ، وقام بدورة سريعة وضعتنا على الطريق الرئيسى .

بدا طريق المطار مهجورا أكثر من المتوقع . وقد انتشرت الحفر وأكوام الأتربة على جانبيه . وأقبلنا على مجموعة من الجنود توارت خلف أحد هذه الأكوام وأحاطت بمصفحة تحمل عبارة « قوات الردع العربية » .

غمغم السائق :
ــ هلّق السوريين بيوقّفونا .

توقفت سيارتنا أمام الجنود . وفحص أحدهم أوراق السائق ثم طلب جوازى . وبعد أن ألقى نظرة فاحصة داخل السيارة سمح لنا بمواصلة السير .

أشرفنا على مخيم برج البراجنة بمنازله المتواضعة المتلاصقة التى لا تعلو عن طابقين . ومررنا بمجموعة من المسلحين ، يحملون شارات الكفاح المسلح الفلسطينى على أكتافهم ، وقفوا خلف حاجز من البراميل . أبطأ السائق إستعدادا للوقوف ، لكنهم أشاروا لنا بالمرور .

سألنى السائق دون أن يرفع عينيه عن الطريق :
ــ وين بالغربية ؟
قلت :
ــ الحمرا . عند سينما بيكاديللى .

بلغنا نهاية المخيم ، فعبرنا ميدانا صغيرا ، وسرنا فى محاذاة مخيم صبرا . إعترضنا ثلاثة رجال فى ملابس متواضعة ، أحاط أحدهم رأسه بلفاعة من الصوف ، وحمل الثانى « صرة » كبيرة من القماش فى يده . خاطب أحدهم السائق :
ــ المزرعة ؟

رفع السائق ذقنه إلى أعلى بالإيماءة اللبنانية الشهيرة التى تعنى النفى ، وهم بمواصلة السير ، فسأله ذو اللفاعة :

ــ إيش طريقك ؟

أجاب :

ـ الحمرا .

ـ وليش ما تفوت م المزرعة ؟

ـ ما بدى .

تدخل عجوز إمتلأ وجهه بالغضون :

ـ دخيلك يا شوفور . نحنا تأخرنا ، واللى بدك إياه خده .

صاح السائق :

ـ يا زلمة ما فىّ أفوت من المزرعة . الأخوان هونيك عالقانين .

قال حامل « الصرة » :

ـ وَلَكْ هادا عند جامع عبد الناصر . ليش ما تفوت من هون دوغرى للكولا ؟

فكر السائق ثم سأل :

ــ تنزلوا ع الكولا ؟

وافق الثلاثة ، فطلب منى السائق أن أنتقل الى المقعد الأمامى ليجلس الثلاثة معا فى الخلف . جلست إلى جواره واضعا حقيبة يدى وكيس السجاير والخمر بيننا .

قال وهو يستأنف السير :

ــ هيك انتو يا فلسطينية . مغلبين العالم .

لم يرد عليه أحد . وران الصمت على السيارة بقية الطريق . وبين لحظة وأخرى كنت ألتقط نظرات العجوز فى مرآة السائق وهى تنتقل بينى وبينه فى توجس .

أشرفنا على ميدان آخر . وبعد قليل إنحرفنا الى اليسار ، ومررنا بمبنى كبير تعرض لدمار بالغ ، فلم تبق من واجهته غير فجوات مظلمة متجاورة .

تتابعت مناظر الدمار بينما كان الظلام ينتشر فى سرعة . وكان ثمة حوانيت مغلقة على جانبى الطريق الذى خلا من المارة . وإنحنى السائق فى شارع جانبى ثم توقف بالقرب من جسر علوى .

غادر الثلاثة السيارة ، وجمعوا من أنفسهم عدة أوراق مالية ناولها العجوز للسائق قائلا :

ــ الله معك .

تفحص السائق النقود ثم صاح :

ــ عشر ورقات ؟ ما بتكفى . شو فاكرينى ؟

تبادل الرجال الثلاثة النظرات وقال أصغرهم سنا :

ــ هيك بندفع كل مرة .

إستقر علينا فجأة كشاف قوى ، وإقتربت منا سيارة جيب عسكرية . وعندما حاذتنا تبدت على جانبها شارة الكفاح المسلح الفلسطينى .

سب السائق فى صوت خافت ، ووضع النقود فى جيبه ، ثم ضغط على المسرع ، وانطلقت بنا السيارة .

بلغنا أول الحمرا فهم بالوقوف قائلا :

ــ هون الحمرا .

قلت :

ــ بعد . سأنزل عند السينما .

مضى فى الشارع الذى أغلقت حوانيته ومقاهيه ، وإن ظهر به قليل من المارة . ثم دلف إلى شارع جانبى . وبدت فى عينيه نظرة شاردة كأنما يفكر فى معضلة . هتفت :

ــ رايح فين ؟ السينما فى الشارع نفسه .

قال :

ــ هلّق بنشوف .

مال من النافذة وصاح بسائق تاكسى عابر :

ــ إحجز لى معك يابو حسن .

سألته عما يريد أن يحجزه فقال :

ــ دور المطار .

جعل ينتقل بين الشوارع على غير هدى فقلت :

ـــ لازم نطلع على شارع الحمرا نفسه . السينما هناك .

لم يزد على وإتجه إلى ناصية تجمع عندها عدد من الشبان المسلحين بالمدافع الرشاشة . أبرز رأسه من النافذة صائحا :

ـــ مرحبا يا شباب . وين سينما بيكاديللي ؟

إقترب أحدهم منا وأراح مدفعه على حافة النافذة . ألفيته صبيا صغير السن لم يكد شاربه يتجلى . تأملنى فى إمعان ، ثم تحول الى السائق وشرح له الطريق .

قال ونحن نستأنف السير :

ـــ هادى الشوارع كلها مثل بعضها .

قلت محاولا تقليد اللهجة اللبنانية :

ـــ باين عليك ما بتعرف شوارع بيروت منيح .

ـــ نحنا جينا من الجنوب فى الثمانية وسبعين بعد الغزو الاسرائيلى .

خرجنا إلى شارع الحمرا . وتبينت السينما بعد لحظات ، فطلبت منه أن يدخل الشارع المجاور لها . وتعرفت على الفندق الذى أقصده بصعوبة ، إذ كان الظلام يلف كل شىء .

إستوقفته وغادرت السيارة . ثم إستدرت لآخذ حقيبتى وكيسى ، فألفيت يده تجوس داخل الكيس . إنتزعت الكيس منه فى عنف وأنا أقول :

ـــ يا أخى عيب .

غادر مقعده صامتا ورفع باب الصندوق الخلفى ثم أخرج حقيبتى ووضعها على الأرض .

أحصيت ثلاثين ليرة ثم أضفت اليها خمس ليرات وأعطيتها له ، فوضعها فى جيبه صامتا وانطلق بسيارته . حملت أشيائى وعبرت الطريق .

كانت ردهة الفندق تضيؤها أنوار خافتة . وتناثر عدد من الشبان على مقاعد جلدية متآكلة . وكان بينهم بعض المسلحين .

عاملنى موظف الاستقبال دون حماس . وطلبت أرخص غرفة بحمام ، فأعطانى واحدة بأربعين ليرة فى الليلة . وحمل شاب صغير السن حقيبتى فى تثاقل وصحبنى فى

مصعد إلى الطابق الرابع . ثم تقدمنى إلى غرفة ضيقة للغاية إمتد بساط ممزق فوق أرضها .

أعطيته ليرة فأخذها بغير إكتراث . وأغلقت الباب خلفه بالمفتاح ثم إنحنيت على حقيبة الملابس ففتحت قفلها . ورفعت غطاءها وأملته على الأرض . ركعت على ركبتى ، وتحسست بطانة الغطاء بأصابعى . ثم جذبت إطارا رفيعا من الجلد يدور حول محيط الغطاء . وإستسلم الاطار لأصابعى ، فانفصل عن الغطاء كما يفعل الشريط اللاصق .

ظهر شق رفيع فى بطانة الغطاء . مددت أصابعى داخله وإستخرجت ثلاثة مظاريف متوسطة الحجم ، صفراء اللون . أعدت الغطاء إلى مكانه وأغلقت الحقيبة .

أفرغت محتويات المظاريف الثلاثة من أوراق على الفراش ورتبتها وفقا لأرقام الصفحات ثم جمعتها كلها فى مظروف واحد أودعته حقيبة يدى .

إغتسلت وعلقت الحقيبة فى كتفى ، وغادرت الغرفة إلى أسفل . تركت المفتاح لموظف الاستقبال ، وإتجهت الى الخارج . وإذا بأحد الشبان يستوقفنى هاتفا :
ــ وين رايح يا أستاذ ؟

تطلعت اليه متسائلا فأضاف :
ــ شو ، جنيّت ؟ هلّق الشوارع خطرة .

ترددت قليلا وتلفت حولى . لمحت جهاز التليفون فى أحد الأركان ، فاتجهت إليه وأنا أخرج مفكرتى من جيبى .

(٣)

عرفت وديع مسيحة عندما إلتحقت بالمدرسة الثانوية . كنا ندرس فى نفس القاعة ، لكنه كان يجلس بعيدا عنى . وكنا جميعا نرتدى البنطلونات القصيرة ، عدا إثنين أو ثلاثة من الأولاد الكبار ، ونستمد لذة غامضة من إحتكاك ركبنا العارية . وفى بعض الدروس كنا نتبادل الأماكن لهذا الغرض ، فيجلس كل واحد إلى جوار من يميل اليه . وكنت أحرص فى هذه المناسبة على مجاورته . فقد كانت ساقه طويلة ، ذات بطن ممتلئة ، وإبط ناعم .

لم نكن نتبادل الزيارات المنزلية كثيرا . فلم تكن أمى ترحب بمجيئه ، كما ان بيته كان يثير فى النفور والرهبة . فقد كان مظلما فى وضح النهار ، مزدحما بقطع الاثاث القديم ، لا يتردد به صوت ، وتفوح فى أرجائه رائحة مميزة هى مزيج من زيت القلى والعفن الناشىء عن رطوبة الجدران .

وذات مرة قلت له إنه « عظمة زرقاء » دون أن أفهم معنى العبارة . وإذا بوجهه يشحب ويغضب منى ، ثم يقاطعنى . وبعدها بأسبوعين أقبلت عليه صدفة بعد إنصرافنا من المدرسة ، وقد أحاط به عدد من الصبية الكبار فى صفنا وجعلوا يرددون : « عظمة زرقاء » . وروعتنى النظرة التى إرتسمت فى عينيه . كانت ناطقة بذعر لم يسبق لى أن رأيته فى عينى انسان .

تجددت علاقتنا فى الجامعة التى دخلناها معا بعد قيام الثورة بشهور . فقد ألفينا أنفسنا فى مجموعة واحدة من شباب متحمس : نقرأ سارتر وجوركى ولوفافر ، ونهاجم طه حسين دفاعا عن الواقعية الاشتراكية ، وحكومة « العسكر » دفاعا عن الديموقراطية . ونذرع شوارع القاهرة على أقدامنا ، بأحذية مثقوبة . ثم نعتقل جميعا عندما أحكم جمال عبد الناصر قبضته الحديدية فى مارس (آزار) ١٩٥٤ . ودخلنا السجن معا بعد ذلك ، فى أوج معركة عبد الناصر مع اليسار .

لكنه غادر السجن بعد أسبوع واحد فقط ، بينما بقيت أنا به حتى صدور العفو العام سنة ١٩٦٤ . ووجدت عملا بعد فترة فى إحدى الصحف ، فألفيته يعمل بها . كان قد صار عضوا بارزا فى التنظيم السياسى الحكومى ، الاتحاد الاشتراكى العربى ، لكن الكل كانوا يسعون إلى عضويته . ولهذا لم يكن من الصعب أن تتفق أفكارنا وأراؤنا . وكانت صدمتنا واحدة عندما أسفر العدوان الاسرائيلى عام ١٩٦٧ عن هزيمتنا .

وفى العام التالى عين فى مكتب الجريدة ببيروت . وكان السفر وقتها حلمنا جميعا ، والأسهل منه الخروج من ثقب الابرة . ولم أتمكن منه إلا بعد أن استقلت من الجريدة ، وإستعنت بوساطات عدة . وذهبت إلى بيروت فاستضافنى بضعة أسابيع . ثم غادرت لبنان ولم أره لسنوات طويلة . لكنى عرفت أنه تزوج من قريبة له ، وأصبح مديرا لمكتب الجريدة فى العاصمة اللبنانية . ولم يدهشنى ذلك لانه كان قديرا فى عمله ، يقيم أوثق العلاقات بالشخصيات الهامة من مختلف الاحزاب والاتجاهات ، ويحتفظ بأرشيف دقيق لكافة المعلومات .

ونقلته الجريدة إلى مقرها الرئيسى فى القاهرة بعد حرب أكتوبر (تشرين الاول) ١٩٧٣ . لكنه ظل يسعى حتى إستعاد منصبه ببيروت فى منتصف ١٩٧٦ . وعندما استدعى الى القاهرة بعد سنة رفض العودة وإستقال من الجريدة ثم إلتحق بصحيفة يمولها العراقيون وإنتقل منها أخيرا إلى وكالة خاصة للخدمات الصحفية ، يديرها صحفى لبنانى نشط يدعى نزار بعلبكى .

لم أجد صعوبة فى الحصول على رقم تليفون مسكنه من مقر الوكالة . وإنتظرته فى بهو الفندق حتى جاءنى بعد ربع ساعة . تعانقنا بحرارة وكل منا يدرس التغيرات التى طرأت على الاخر . وعلق على لون شعرى ، بينما نددت بامتلاء جسده والنظارة الطبية التى غطت نصف وجهه . ثم قادنى إلى الخارج متجاهلا إشارتى إلى التحذيرات التى وجهت إلى عن أخطار الطريق ، قائلا :

— معى عدة هويات للمواقف المختلفة . ثم أننا لن نذهب بعيدا .

ولجنا بارا فى شارع قريب ، خلا تماما من الزبائن . وسألنى ونحن نجلس :

— هل ستبقى طويلا ؟

قلت :

ـــ بضعة أيام . على قد فلوسى .

ـــ ستنشر شيئا ؟

ـــ أجل . كتاب عند عدنان الصباغ .

ـــ لكنه ليس الآن فى بيروت على ما أظن .

تطلعت اليه فى قلق وقلت :

ـــ لقد تواعدنا على اللقاء هنا يوم الاثنين . هل تظن أن الأحداث الأخيرة يمكن أن تفسد هذا اللقاء ؟

ـــ ما حدث شيء عادى يتكرر كل يومين . وقد تعود اللبنانيون على ذلك ، وأصبحت الحياة تسير بصورة طبيعية مهما حدث . بل هناك شركة لطائرات الهليكوبتر تنقل الناس عبر المناطق المتحاربة حتى لا تتعطل أعمالهم .

أحضر لنا النادل كأسين من الويسكى . وتطلعت حولى فوجدت أننا مازلنا الزبائن الوحيدين أسفل الأضواء الخافتة . وكان عامل البار يتبادل حديثا هامسا مع إثنين من زملائه وهم يلتفتون إلى الباب بين الفينة والأخرى .

جاءنا فجأة صوت رصاص متقطع فى الخارج . وتوقف الحديث الهامس عند البار . أنصتنا جميعا فى رهبة . ومضت بضع دقائق دون أن يتكرر الصوت ، فعاد الهمس من جديد فى تردد .

سألنى وديع :

ـــ أين تعمل الان ؟

قلت :

ـــ ولا فى أى مكان .

ـــ كيف تعيش اذن ؟

ـــ من الكتابة .

ـــ هل هذا ممكن ؟

ـــ ممكن اذا حصرت إحتياجاتك فى أضيق الحدود . ثم إن زوجتى كانت تعمل

ـــ سمعت أنكما انفصلتما .

ـــ أجل . تباعدت الطرق بالرغم منا .

ـــ كان يجب أن تفعل مثلى . فأنا وزوجتى لا نجتمع معا إلا فى الصيف . وهى تقضى بقية السنة مع الأولاد فى القاهرة .

ـــ لا أفهم سر إصرارك على عدم العودة إلى مصر .

نفض سيجارته فى المنفضة وجعل يرسم بطرفها دوائر وهمية فى الهواء ثم قال :

ـــ كلما تخيلت نفسى هناك شعرت بالاختناق .

شرد كلانا بعض الوقت ثم سألنى :

ـــ ومن تقابل ؟

أجبت :

ـــ القليلين . لم أعد شغوفا بالحركة كثيرا .

علت شفتيه إبتسامة ملتوية وقال :

ـــ إبتعدت إذن عن أصدقائك القدامى ؟

قلت :

ـــ أنت تعرف المواصلات الآن وكيف أصبحت . السفر إلى بيروت أسهل من الانتقال بين أحياء القاهرة .

ـــ وكيف الأحوال بصورة عامة . الوضع كله ؟

ـــ التطبيع مع إسرائيل يسير إلى الأمام . وبالمثل إرتفاع الاسعار وإنهيار الخدمات . النهب فى إتساع . وعدد المليونيرات إزداد عدة مئات .

تفرس فى بامعان ثم سأل :

ـــ هل تنوى أن تقابل أحدا بالذات ؟ يوجد هنا كثير من الهاربين من مصر .

ـــ لقد جئت لغرض واحد فقط ، وبمجرد الانتهاء منه سأعود .

ـــ حدثنى عن كتابك .

أشرت بيدى إشارة مبهمة فى الهواء وقلت :

ـــ إنه عبارة عن رحلة حول العالم العربى تشبه المقامات القديمة . فالبطل يظهر فى كل بلد ثم يطرد منه ليظهر فى بلد غيره ، وهكذا دواليك .

إبتسم فى شىء من التهكم وقال :

ـــ الثورى أم الفلسطينى ؟

أجبت :

ـــ ليس بالضرورة .

ألقى نظرة على ساعة معصمه وقال :

ـــ يحسن بنا أن ننصرف الآن قبل أن تصبح الشوارع غير آمنة بالمرة .

دفع الحساب وغادرنا البار بعد أن علقت حقيبتى فى كتفى .

قلت ونحن نخطو :

ـــ سأتوه إن لم توصلنى إلى الفندق .

قال :

ـــ سنذهب الآن إلى منزلى وفى الصباح نأخذ أغراضك من الفندق .

قلت :

ـــ ليست هناك ضرورة . لقد أحضرت معى حاجتى من النقود . ثم أنى سأأخذ عربونا من عدنان خلال أيام . فهو موافق على نشر الكتاب .

قال بحسم :

ـــ ستأتى عندى .

ـــ لا أريد أن أسبب لك إزعاجا .

ـــ أنا أقيم وحدى . فزوجتى والأولاد فى القاهرة . وهناك غرفة خالية يمكن أن تستقل بها .

إخترقنا عدة شوارع مظلمة دون أن نلتقى بأحد . وعند أحد التقاطعات برز الينا مسلحان ، ووجها إلينا فوهتى رشاشيهما . لكنهما لم يعترضانا عندما واصلنا السير بثبات .

تنفس وديع بعمق عندما إبتعدنا ، وقال فى صوت خافت :

ـــ إنهما يتبعان منظمة جديدة إستولت على هذا الشارع من أسبوعين . ولا أعرف أحدا من أفرادها .

عبرنا ساحة أطلت عليها مبان محطمة ، فأردف فى صوته الطبيعى :

ـــ الآن صرنا فى المنطقة التابعة للمرابطين . ومعى ما يفيد أنى عضو عندهم .

سألته :

ـــ لماذا لا تشترى سيارة ؟

أجاب :
ــ عندى واحدة لكنى أخاف ركوبها .

إنطلقنا فى شارع قامت على جانبيه عمائر حديثة البناء . وتوقف وديع أمام واحدة تغطى مدخلها بشبكة معدنية متينة ، فدق عليها بقوة وهو يصيح مناديا :
ــ أبو شاكر .

كان ثمة باب فى أقصى المدخل ، إنفرج عن عجوز ملتح ، رث الثياب ، حمل فى يده سلسلة من المفاتيح . وتبينت عندما إقترب أنه يتمنطق بحزام عسكرى يتدلى منه مسدس .

فتح لنا أبو شاكر فى صمت . وأخذنا المصعد إلى الطابق الثالث . ثم تبعت وديع إلى مسكن أنيق من غرفتين وصالة ممتدة ، إنتشرتْ جشيات خانْ الخليلى فى أرجائها ، وإستقر مكتب خشبى فى ركن منها .

قلت :
ــ شقة ظريفة كم تدفع فيها ؟
قال :
ــ أربعة آلاف دولار فى السنة . وهو ثمن رخيص لأنى أخذتها من مدة .

جلست فوق أريكة مريحة فى مدخل الصالة . وقرب وديع مائدة صغيرة منى ، ووضع فوقها زجاجة ويسكى وإناء من قطع الثلج وكوبين .
قلت :
ــ أحضرت لك زجاجة ويسكى معى .
قال :
ــ الخمور هنا رخيصة ، فهى تباع بأسعار السوق الحرة تقريبا .

صب لى كأسا وأضاف :
ــ المنظمات هى التى تجبى الرسوم الجمركية من الموانىء الواقعة فى مناطقها . ويلجأ الموارنة إلى تخفيض الرسوم على السجائر والخمور وأجهزة التليفزيون لاغراء التجار بالتعامل مع موانيهم . ويضطر الآخرون إلى مجاراتهم .

نقلت البصر بين الأنتيكات الفرعونية والاسلامية التى إنتشرت فوق رفوف تغطى أحد الجدران . ولمحت بينها صليبا تدلت صورة البابا شنودة من أحد أطرافه .

تطلعت إليه فاحمر وجهه بشدة وقال :

— زوجتى هى التى علقتها .

صببت لنفسى كأسا واضطجعت إلى الخلف .

قلت :

— هل تذكر المرأة التى كانت تتردد عليك فى ٦٨ ؟

قال :

— من تقصد ؟

قلت :

— تلك التى قالت أنها تتقاضى عادة خمسين ليرة فى المرة ، ولأنها تحبك ستجعلهم أربعين .

بدا أنه قد نسى الأمر تماما ، أو تظاهر بذلك . وكان قد طلب منى مرة أن أتغيب عن البيت أياما معينة فى الأسبوع قائلا إنه يستقبل سيدة لبنانية متزوجة . ولمحتها ذات مرة عند خروجى ، فأثار مظهرها شكوكى . وعندما ضيقت عليه الخناق قال إنها تحتاج إلى نقود كى تستبدل الثلاجة . وأنها ذكرت له أنها تتقاضى عادة خمسين ليرة ، لكنها تحبه ولهذا ستخفضها إلى أربعين . وأبديت إستعدادى لدفع الليرات الخمسين فعرض عليها الأمر لكنها رفضت باباء وغضبت منه . فكيف يتصرف هكذا وهما يتبادلان الحب ؟

سألته :

— هل توجد مصريات هنا ؟

قال :

— طبعا . مغامرات وراقصات وباحثات عن أنفسهن . أعرف واحدة من الطالبات اللاتى إشتركن فى مظاهرات ٧٣ . حلّت ببيروت أثناء الحرب . وجاءتنى فى أحد الأيام بحثا عن مكان للمبيت . ولم تكن زوجتى هنا .

سكت فسألته :

ــ وبعدين ؟

قال :

ــ حذرتنى من أن أستغل الموقف وقالت بإعتداد إنها ستدعونى من تلقاء نفسها إذا شاءت .

ــ و دَعَتْك ؟

ــ مرة . لكنى هربت منها .

ــ لماذا ؟

ــ خفت .

نهض واقفا وهو يقول :

ــ الآن موعد المياه النقية . فهى تأتى فى الصباح الباكر لمدة ساعتين . وتنقطع بقية اليوم عدا ساعتين قبل منتصف الليل . سأملأ عدة زجاجات .

قلت وأنا أتبعه الى المطبخ :

ــ أنت أسعد حظا منا فى القاهرة . فنحن لا نحصل على دقيقة واحدة من المياه النقية . فضلا عن إنقطاع المياه الملوثة نفسها معظم النهار .

(٤)

أعطانى وديع غرفة ولديه ، وبيجامة فضفاضة لم أستعملها . ورغم ما كنت أشعر به من إرهاق ، تقلبت فى الفراش طويلا دون أن يغمض لى جفن . وأخيرا غفوت بعد أن تناهى إلى سمعى ماخلته صوت إنفجار بعيد . لكنى لم أنم غير ساعات قليلة ، وإستيقظت بمجرد أن إنتشر ضوء الشمس فى الغرفة .

حاولت العودة إلى النوم دون جدوى ، فغادرت الفراش . إرتديت القميص والبنطلون ، وخرجت إلى الصالة . ألفيت وديع يقرأ صحيفة وقد قربها من عينيه المجردتين من النظارة . وجهت إليه تحية الصباح وإتجهت إلى الحمام . كانت المياه باردة ، وليس ثمة أثر لجهاز تسخين رغم وجود صنبورين للحوض .

فتحت باب الحمام وهتفت :

ـ كيف تعيش فى باريس الشرق دون مياه ساخنة ؟

رد على قائلا :

ـ التسخين مركزى يا أستاذ . إفتح الصنبور الايسر .

أخذت حماما سريعا ثم إرتديت ملابسى ومشطت شعرى . ومضيت إلى الصالة . ناولنى وديع الصحيفة قائلا :

ـ أنباء سيئة .

طالعنى عنوان رئيسى عن إعتداءات إسرائيلية جديدة بطائرات الفانتوم وسكاى هوك على مدينتى صور والنبطية فى الجنوب ، راح ضحيتها ٣٣ قتيلا وجريحا ، وتهدم من جرائها ١٦ منزلا . وأسفل ذلك عنوان رئيسى آخر عن عودة الحياة الطبيعية إلى بيروت الغربية .

رمقته متسائلا ، فأشار الى الجزء الأسفل من الصفحة ، ومضى إلى المطبخ .

كان ثمة نبأ عن وصول وفد عسكرى مصرى إلى السعودية فى زيارة سرية للتنسيق المشترك مع الولايات المتحدة . ونبأ آخر عن حفل تأبين يقام ظهر اليوم فى إحدى كنائس الحمرا بعد الانتهاء من تشييع جنازة بشير عبيد وكمال خير بك . وفى زواية بنهاية الصفحة ، وجدت ما عناه وديع تحت عنوان : « إنفجار مدوى فى الفجر » .

كان النبأ موجزا للغاية ، مفاده أن شحنة ناسفة إنفجرت فى الفجر بدار النشر التى يملكها عدنان الصباغ ، فأصابتها بأضرار جسيمة ، ولم يصب أحد .

جلست على أقرب مقعد ، وأعدت قراءة الخبر ثم رفعت عينى إلى وديع الذى كان يضع صينية الافطار على الطاولة .

سألته :

ـ من تظنه فعلها ؟

هز كتفيه وأجاب :

ـ أى واحد . خذ عندك من العراقيين والسوريين والأردنيين الى الشيعة والاسرائيليين والليبيين .. الخ .. الخ ..

ـ هل عدنان مرتبط بجهة معينة ؟

ــ الاجابة صعبة . فقد مضى العهد الذى كان الواحد يرتبط فيه بجهة محددة . الكل الآن ينوعون إرتباطاتهم تحسبا للمفاجآت .

ــ لكن لماذا ينسفون الدار وهم يعرفون بالتأكيد انه ليس بها ؟

قال وهو يصب الشاى من إناء خزفى ملون :

ــ ربما القصد هو التأديب أو الانذار .

تأملت الصينية التى حفلت ، على الطريقة اللبنانية ، بألوان عديدة من المأكولات ، من البيض المسلوق إلى الزيتون الأخضر والأسود واللبنة والمربى والزعتر المخلوط بزيت الزيتون .

إستطرد :

ــ على أى حال هو أحسن حظا من سليم اللوزى الذى إختطفه السوريون وحرقوا يديه قبل أن يقتلوه .

تساءلت :

ــ ترى كيف يكون وقع الأمر عليه عندما يرى ماحدث للدار ؟

أجاب :

ــ لا أظن أنه يغامر بالظهور فى بيروت الآن .

أقبل على الأكل فى حماس ، وعندما رآنى عازفا عنه قال :

ــ لا تبتئس . يمكنك أن تتصل به فى أوروبا عن طريق زوجته . فهى التى تشرف على الدار فى غيبته . وتأكد أن ماحدث لن يؤثر على إستمراره فى العمل . بل ربما ساعده ذلك فى الحصول على معونات جديدة . ثم هناك عشرات من الناشرين غيره . هل أحضرت معك نسخة من المخطوطة ؟

ــ أجل لحسن الحظ .

ــ إذن نصورها ونعرضها على عدد من الناشرين .

ــ لكن هذا سيستغرق وقتا طويلا .

ــ أسبوع على الأكثر .

قلت مستسلما :

ــ كنت أفضل التعامل مع عدنان فسمعته طيبة .

قال :

ـ لا تكن ساذجا . كلهم مثل بعض .

أكلت قليلا ، وتصفحت بقية الجريدة . ثم تطوعت لاعداد القهوة . وأردت أن أنظف مخلفات الافطار ، فأصر أن أترك كل شيء كما هو قائلا :

ـ هناك واحدة تأتى مرتين فى الأسبوع للتنظيف . واليوم موعدها .

مضيت إلى الغرفة ، وإستخرجت المظروف الأصفر السميك من حقيبة يدى وحملته إلى الصالة . كان وديع قد إنتقل إلى غرفته فلحقت به . وجدته يرتدى ملابسه . ولاحظت أن الدهن غطى أماكن كثيرة من جسده الذى كان ممشوقا فى الصغر .

قلت وأنا ألوح بالمظروف :

ـ هل يمكن أن نصنع شيئا اليوم ؟

ـ أهذه هى المخطوطة ؟ اليوم السبت . والجميع الان فى طريقهم لقضاء الويك اند . لن نتمكن من شيء قبل يوم الاثنين . كل ما نستطيعه هو أن نصورها .

حانت منى نظرة إلى الكومودينو المجاور لفراشه ، فلمحت مسدسا فوقه . ورأى اتجاه نظرتى فضحك قائلا :

ـ انه للمنظر فقط . فأنا لا أعرف كيف أستخدمه .

أشار الى النافذة التى أستبدل زجاج مصراعها بلوح من الكرتون وقال :

ـ هل تتصور أن ثانيتين إثنتين فصلتا بينى وبين الموت ؟ كنت أقف هنا مثلما أنا الان . وخطر لى أن أتكلم فى التليفون ، فغادرت الغرفة . وعندئذ سمعت صوت الزجاج يتحطم ، وشيء يتحرك فى الغرفة بعنف ويصطدم بالجدار . وبعد ذلك عثرت على بقايا قذيفة صاروخية .

شاركنا المصعد الذى أقلنا إلى أسفل لبنانى أنيق فى بزة حريرية بيضاء بلون شعر رأسه الذى صفف بعناية بالغة . وكان برفقة شقراء خمسينية ترتدى بنطلونا أسود ضيقا ينتهى عند ركبتيها ، وتشده إلى أعلى حمالات رفيعة كشفت عن كتفيها وصدرها .

مضينا في عكس الاتجاه الذى جئنا منه بالأمس ، ومررنا بمجموعة من المسلحين أسفل شرفة إرتفع فوقها علم « المرابطون » ، وجلس بها شاب طويل القامة شرس الملامح في ملابس عسكرية ، أسند مدفعا رشاشا على حاجز الشرفة ، وإنهمك فى تنظيف شريط طويل من الطلقات النحاسية اللامعة . وعلى بعد خطوات وقفت مصفحة تحمل لافتة قوات الردع بجوار مكتب لسيارات الأجرة . وفى مواجهتها ـ على الرصيف الاخر ـ صف أحد الباعة كميات من السجائر والخمور والشكولاتة وموانع الحمل فوق صناديق من الكرتون أسفل مظلة خشبية .

إخترقنا عدة طرقات هادئة ، سدت أجولة الرمال مداخل منازلها ، وإصطفت السيارات الخالية على جوانبها . وجذبنى وديع من ذراعى بعيدا عن حافة الرصيف قائلا :

ـ أى واحدة من هذه السيارات يمكن أن تكون ملغومة وتنفجر فجأة .

إنتقلنا إلى طريق زحمته مجموعة من المدرعات تحمل شارة قوات الردع ، إعتلاها جنود يرتدون الخوذات الحديدية . وكانت تقف أمام مبنى ارتفعت عليه احدى الرايات ، وبدت آثار الدمار على الحوانيت المغلقة أسفله .

خرجنا الى ساحة وقفت فى جانب منها سيارة نقل عسكرية ، نصب مدفع رشاش فوق كابينة سائقها ، وأقعى خلفه جندى عارى الرأس . وظهر وراءها حانوت مغلق تعلوه لافتة ممزقة بقيت منها كلمة « ملحمة » التى إشتقها أهل الشام من اللحم . وفى إمتداد الشارع الذى جئنا منه ، تأرجحت فى الهواء بقايا لافتة أخرى تحمل حروفا لاتينية ميزت منها كلمة « بار » .

مرت بنا عدة سيارات عسكرية تحمل إشارة الكفاح المسلح الفلسطينى . ومضينا من أمام فندق تحطمت واجهته ، وإنهمك عدد من الشبان فى إزالة الحطام . وجاوره حانوت ذو واجهة عارية من الزجاج ، كشفت عن رجل أنيق أحاطت به مصابيح العرض الحديثة التى تتألف من قضبان معدنية قصيرة ولامعة تنتهى بأطراف دائرية سوداء . وكان الرجل يجمع شظايا الزجاج بمكنسة ذهبية الشعر ويكومها فى أحد الجوانب .

بلغنا فندق ، فدفعت حساب الليلة وأخذت حقيبتى وجواز سفرى ، وإنطلقنا

سيرا على الاقدام فى إتجاه الحمرا . طالعتنا صور صدام حسين على مجموعة من البنايات المتجاورة تبينت أنها تحيط ببنك الرافدين العراق . وبعد خطوات ، تغطت الجدران بصور حافظ الأسد والخمينى والقذافى . وإعترضتنا اشارة المرور أمام بناية غطتها الاعلام الفلسطينية وصور ياسر عرفات والشهداء من ضحايا المعارك والاعتداءات والكمائن .

تذكرت شوارع القاهرة على الفور عندما دلفنا إلى الحمرا . فقد كان الشارع الذى يسير فيه المرور فى إتجاه واحد قادما من المنطقة الشرقية ومتجها الى البحر ، يضيق بأربعة أنهار من السيارات المتلاصقة التى تتحرك ببطء . وإزدحم الرصيف بالباعة والمارة ورواد دور السينما وحوانيت الساندويتش والشاورمة والمرطبات .

لاحظت قلة العنصر النسائى ، والتباين الواضح بين مظهر أفراده الآن ومظهرهم فى بداية العقد . فقد إختفت الأناقة والفخامة المستوردتان ، اللتان كانتا من ملامح الستينات وبداية السبعينات . لكن المقاهى الأنيقة مابرحت تحتفظ بواجهاتها الزجاجية العريضة . وظل الزحام كما هو فى المتاجر الفخمة التى تبيع الساعات والمجوهرات والفضيات والملبوسات .

تمهلنا أمام بائع كتب ومجلات إفترش بضاعته على الرصيف . إشتريت نسخة من الترجمة العربية لكتاب مايلز كوبلاند « لعبة الأمم » الذى كشف سر غرفة اللعب الشهيرة فى البنتاجون . كما اشتريت بضعة كتب ممنوعة من دخول مصر ، منها واحد عن حرب اكتوبر ومعاهدة كامب ديفيد . وكانت هناك عدة مجلات جنسية منها واحدة جادة باللغة العربية قلبت صفحاتها ثم إشتريتها .

أشار وديع الى كتاب لنجيب محفوظ فى حجم غير مألوف ، وآخر لجورجى زيدان ذى غلاف رخيص باهت الألوان ، وقال :

ـــ هذان الكتابان مزوران .

أبديت دهشتى فقال :

ـــ انهما مصوران عن الطبعة الأصلية . النشر هنا لايخضع لقواعد وليست له تقاليد . وأغلب الناشرين لصوص . انهم يتفقون معك على أن يطبعوا من الكتاب ثلاثة آلاف نسخة مثلا ، ويطبعون فى السر خمسة . ثم يتملصون من دفع حقوقك

معتذرين بأن كتابك لم توزع منه غير نسخ محدودة .

واصلنا السير ثم إنتقلنا إلى الشوارع الجانبية . ولجنا بناية حديثة ، وأخذنا مصعدها إلى الطابق الثانى . وتبعت وديع داخل مسكن مفتوح ، علقت فوق بابه لافتة باسم وكالة نزار بعلبكى .

ضمت غرفة وديع مكتبين متقابلين ، وخزانة معدنية للكتب والملفات ، وجهازا للتليفزيون . وكان الأثاث بادى الجدة والأناقة .

سالت وأنا أضع حقيبتى بجوار الجدار :

ــ هل هى أموال نزار أم هناك من يقف وراءه ؟

جلس إلى أحد المكتبين ، وجذب كوما من الصحف والمجلات وجعل يقلب فيه ، ثم قال :

ــ مجموعة من أثرياء الخليج ، حسب ما يقول .

ــ والحقيقة ؟

ــ ليبيا فى الغالب .

ألقيت بحقيبة يدى فوق المكتب الآخر ، وجلست اليه . وأخرجت المظروف الذى يحتوى على مخطوطتى ، فوضعته جانبا . وإلتقطت إحدى المجلات .

أحضر لنا شاب فنجانين من القهوة ، فأعطاه وديع المخطوطة وطلب منه أن يأخذها إلى الارشيف ليصوروا منها ثلاث نسخ . ثم قام بعدة إتصالات تليفونية حصل منها فى النهاية على رقم تليفون عدنان الصباغ . وأدار الرقم عدة مرات دون أن يتلقى ردا .

إنهمك وديع فى الكتابة ، بينما إستعنت بالكتب الموجودة فى الخزانة على إستخراج عناوين عدد من دور النشر وأرقام تليفوناتها . وجاءتنا النسخ المصورة بعد ساعة ، فعكفت على مراجعتها وبعد ساعة أخرى إنتهى وديع من الكتابة ، فغادر الغرفة . وعاد بعد لحظات فجرب الاتصال مرة أخرى بمنزل عدنان دون جدوى .

حمل عنى حقيبة السفر ، وغادرنا المكتب . أخذنا سيارة أجرة إلى المنزل . وسبقته الى أعلا بينما عرج على محل شواء قريب .

كانت الثلاجة مليئة بعلب البيرة فأخرجت إثنتين منها ، وحملتهما إلى الصالة . ووصل وديع بعد لحظات فجلسنا نحتسى البيرة بينما كان يدير مؤشر الراديو بحثا عن الأخبار .

قال :

ـــ هناك على الاقل سبع إذاعات لبنانية تبث الان وحتى العاشرة مساء . واحدة للكتائب وأخرى لسليمان فرنجية وثالثة تشرف عليها الكنائس الأمريكية وتنطق باسم دويلة سعد حداد فى الجنوب . ثم رابعة ناصرية تذيع أغانى أم كلثوم وعبد الحليم حافظ والشيخ إمام ويديرها المرابطون . هذا فضلا عن الاذاعة الرسمية .

جاءنا صوت فيروز فسألته عن هوية الاذاعة . قال :

ـــ كل الاذاعات تذيع أغانى فيروز . رغم أنها مارونية .

كانت الأخبار مطمئنة ، فقد مرت جنازة الصباح فى هدوء . وتبادلت الأحزاب والتنظيمات التعازى وإعلان الرغبة فى استتباب الأمن . وقالت إذاعة المرابطون أن بشير الجميل ، القائد العسكرى للكتائب ، يستعد لاعلان دولة مارونية بالمنطقة الشرقية فى عيد الاستقلال الذى يحل بعد أسبوعين . أما الاذاعة الرسمية فقد اهتمت بأنباء الحوادث والجرائم المتفرقة ، وأهمها جريمة وقعت فى قضاء جبيل ، وهو منطقة مسيحية فيما يبدو . فقد اعتدى إلياس الشامى على مريم فى بلدة عين القوينى ، وعندما حملت منه تخلى عنها . فقامت ضجة فى البلدة ، ووافق أحد الاطباء على اجهاض الفتاة . ثم جرى الضغط على إلياس حتى وافق على الزواج منها برغمه . ولم يلبث أن قتلها بسم المبيدات الزراعية ، وأسلم نفسه للكتائب .

شربت علبتى بيرة قبل أن يأتينا الطعام فى صينية كبيرة مغطاة بقماش نظيف . وكشف الغطاء عن أوانٍ ورقية امتلأت بقطع الشواء الصغيرة ، وأطباق عديدة للسلاطة الخضراء والمزات منها واحد للحمص بالطحينة وآخر للنعناع الأخضر وثالث للثوم المعجون بالبطاطس ورابع للخيار المخلل وخامس للباذنجان المخلل المحشو بالثوم والكزبرة الخضراء . وكانت هناك شوك وملاعق مغلفة باوراق شفافة . كان كل شىء نظيفا أنيقا يثير الشهية .

أكلنا ونحن نوزع انتباهنا بين الراديو والتليفزيون الذى إختتم فترة الظهيرة بحلقة

من مسلسل أمريكى .. وإلتجأ كل منا الى فراشه لفترة القيلولة . لكنى لم أتمكن من الاغفاء . فقمت إلى المطبخ وأعددت كوبا من الشاى . ثم صنعت قهوة لى ولوديع عندما إستيقظ . ووضعت زجاجة الويسكى وإناء الثلج فوق المائدة . وجعلنا نقلب بين قنوات التليفزيون ، متنقلين بين حلقة بوليسية أمريكيه وأخرى مصرية بعنوان « وفاء بلا نهاية » ثم أخبار باللغة الفرنسية . وإنتقينا من برامج السهرة فيلما أمريكيا عن البيتلز ، فأدرنا الجهاز على القناة الخامسة ، وصبرنا على فقرة طويلة من الاعلانات ، تخللتها القائمة المعهودة من العطور والسجائر والمعاجين الأجنبية ، فضلا عن مزايا مروحة توشيبا ذات الريشات الأربع والمصباح الليلى ، والتغيرات الجذرية القادمة من المنطقة العربية كما تنبأ بها العاهل الأردنى فى حديث شامل لأحدى المجلات .

بدأ الفيلم أخيرا . فملأت كأسى ، وقبل وديع أن يشرب على مضض . وعندما بلغنا منتصف الفيلم كنا قد جرعنا عدة كؤوس ، وعدنا بالتدريج إلى الستينات : السجن وفيتنام وجمال عبد الناصر و٦٧ وثورة الطلاب ، وشى جيفارا ، وبريجيت باردو . ومالبث أن إستولى علينا شعور جارف بالاكتئاب .

(٥)

حفلت صحف الأحد بأنباء الانفراج الأمنى . وبشرت « السفير » بان الساعات الأربع والعشرين القادمة ستكون حاسمة بالنسبة للوضع الأمنى فى المنطقة الغربية ، وللمعالجة الجذرية والنهائية لما أسمته « التجاوزات على الأمن الشخصى والكرامة والملكية ، وعمليات الابتزاز والتهديد ، والخوة والنهب ، فضلا عن الاشتباكات بين الافراد والمنظمات ، والعناصر غير المنضبطة التى تروع السكان الامنين وتخطف منهم البقية الباقية من إصرارهم على التمسك بالأرض أو الوطن أو القضية . »

ونشرت الصحيفة صور اللقاءات المتبادلة بين زعماء المنظمات والأحزاب المختلفة فى المنطقة الغربية مع زعماء كل من التنظيمين المتقاتلين . وجمعت احدى

الصور بين الجميع وقد توسطهم ياسر عرفات . كما كانت هناك صور لتأبين عبيد وخير بك فى إحدى الكنائس ، وللجنازة التى تقدمتها صورة فتاة جميلة فى العشرينات هى ناهية بجانى .

شجعنا جو الصحف على الخروج بعد الظهر ، فذهبنا إلى معرض للصور الشخصية الفوتوغرافية فى قاعة أمام الجامعة الأمريكية . كانت الصور جميعا قديمة ، من ذلك النوع الذى يعلق على جدران غرف الاستقبال ، أو يحفظ فى ألبومات سميكة مغلفة بالجلد . وإحتفظت صور النوع الأول بإطاراتها العتيقة ، الموشاة بالزخارف وماء الذهب ، أما الثانية فقد وضعت فى اطارات حديثة بسيطة . وجمع بين الاثنين عنوان واحد هو « لبنان أيام زمان » .

تصدرت المجموعة الصورة التقليدية للعائلة الكبيرة : الجد فى الوسط بملابس عثمانية ، وشاربين كثين تدليا مع لحيته الطويلة فوق صدره . وإلى جواره الابن الأكبر الذى ألقى برأسه إلى الوراء فى كبرياء يليق بدرجته العائلية ، مزيحا طربوشه إلى الخلف ، وقد إنغرزت فى ذقنه الحافة الصلبة لياقة غير مطوية دار بها شريط رفيع ثبتت به ربطة عنق عريضة . وكان يرتدى سترة وصديريا من قماش مربعات ملون ، وبنطلونا مخططا يختفى عند الركبة داخل الرقبة العالية للحذاء .

وإلى يسار الجد جلست زوجته أو إبنته الكبرى ثم الابن الثانى الذى ميز نفسه بكتاب مغلف حمله فى يده اليسرى ، وبنطلون وحذاء عاديين وخلف الجالسين الأربعة إصطف ثلاثة شبان وثلاث فتيات متشابهو الملامح . وألقت آخر فتاة فى الصف يدها على كتف حامل الكتاب فى ألفة خاصة . وبين أقدام الجد إقتعد الأرض ولدان صغيران ، وإستقرت بجوار أحدهما قبعة من القش . وبدا أن الصورة التقطت فى الهواء الطلق اذ كانت خلفيتها تتألف من ستارة أو ملاءة فشلت فى إخفاء جدار حجرى .

لم تكن هناك اية بيانات بجوار الصورة أو فى الكتالوج الذى أخذناه من فتاة عند المدخل ترتدى جينز ضيق للغاية . وتبرع وديع ببعض الايضاحات : فهذه ملابس الدروز ، وهؤلاء من الشيعة أو سكان الجبل ، وهذه زوجة ثالثة أو رابعة للعجوز .

كان يشير إلى عجوز فى جلباب بنصف ياقة ، وطربوش قصير للغاية ، يكشف عن فودين أبيضين ، وبجواره إمرأة فى عمر إبنته أو حفيدته فى ملابس قاتمة ، تتألف من رداء سابغ وصديرية وطرحة . وبينهما وقف طفل فى السادسة من عمره يرتدى بزة كاملة وحذاء برقبة قصيرة . وحمل العجوز على ساقيه طفلا آخر متطلعا إلى الكاميرا فى وقار أبله . أما المرأة فكانت موشكة على الابتسام . فى أسى ؟ أم زهو ؟ أم تلبية لرغبة المصور ؟

تبعت وديع إلى صورة لعدد من الشبان بشوارب رفيعة محفوفة لا تكاد تبلغ جوانب الفم ، وطرابيش طويلة مائلة إلى اليسار أو الخلف ، وسراويل داكنة وسترات تكشف عن قمصان بيضاء بلا ربطات للعنق ، تعلو جلابيب أو سراويل منتفخة . وكانوا يحيطون واقفين بشاب جلس على مقعد خشبى ذى قاعدة من القش ، مثل مقاعد المقاهى الشعبية ، وقد إستقرت يدا إثنين منهم على كتفيه . كان يرتدى الملابس الأوروبية الكاملة مع طربوش أقل طولا وأكثر ميلا إلى الأمام على الناحية اليمنى ، وربطة عنق ذات عقدة صغيرة تكاد تختفى أسفل ياقة القميص ، وشارب صغير أقرب إلى الشارب الهتلرى . وكان يتطلع الى المصور فى إعتداد ، عاقدا ساقه اليسرى فوق اليمنى ، وقد إستقرت يده الممسكة بعصا رفيعة فوق رقبة حذائه .

قال وديع :

ـــ عنترة فى زيارة سريعة لقريته .

بدا أن الركن الذى نقف فيه قد خصص لصور الريف والجبل : شاب وسيم أوشك طرفا شاربه أن يبلغا أذنيه ، وبرز خنجر من فتحة صديريته المزركشة . أم متشحة بالسواد من قمة رأسها الى قبل قدميها بسنتيمترات ، لا يظهر منها غير حاجبيها وعينيها وبداية أنفها ، وإلى جوارها طفل حافى القدمين . عشرة رجال يرتدى أغلبهم الطرابيش المائلة والقمصان والبنطلونات ، تحلقوا حول مائدتين خشبيتين نصبتا فى الهواء الطلق ، وامتلأ سطحاهما باطباق المزات وأقداح العرق الصغيرة ، وأحدهم يصب الشراب من « بطحة » فى حجم الكف ، بينما يشد آخر أنفاس « الارجيلة » . واضطجع ثالث الى الوراء ، متطلعا الى المصور فى نظرة عنترية ، وقد ظهرت سيجارة فوق أذنه اليسرى . ووقف خلفهم رجل فى ملامح أوروبية لعله الأرمنى صاحب المكان .

إنتقلنا إلى قاعة أخرى فكأنما عبرنا حدا فاصلا بين عالمين . وقفت طويلا أمام صورة لمدخل مسكن برجوازى فى المدينة : الباب الخشبى العتيد المؤلف من مصراعين غطت الزخارف المحفورة نصفيهما السفليين بينما تألف النصفان العلويان من نافذتين زجاجيتين تكسوهما شبكات حديدية من زخارف متماثلة . أصص النباتات المنزلية . الحصان الخشبى الملون المعهود المثبت إلى أرجوحة خشبية ، يركبه طفل فى ملابس البحارة ، وقد وقف إلى جواره فى سمت نابليونى ، طفل آخر فى نفس الملابس .

إقتصرت الصورة المجاورة على فتاة رقيقة الملامح فى فستان حريرى ينساب حتى قدميها ، وتصل أكمامه الضيقة إلى أطراف أصابعها ، الذين إستندت بهم إلى الحافة النحاسية المزخرفة لأريكة . كان شعرها مصففا على شكل « شينيون » بفضل القضيب المطاطى ، الذى خصص لذلك فى الماضى . وتبينت فى ركن الصورة توقيعا بالحروف اللاتينية ميزت منه إسم « مارى » .

عثرت فى إحدى الصور على تاريخ : ١٩١٨ . أيام الثورة العربية على الحكم التركى ، وقبل عامين من هزيمة الجيش العربى أمام الفرنسيين فى ميسلون ، والتى أعقبها فرض الانتداب الفرنسى على سوريا ولبنان . وقبل عام واحد من الثورة المصرية الكبرى ضد الاحتلال الانجليزى . وكانت الصورة لأم صارمة الوجه ذات عينين ملونتين ، جلست بجوار إبنتها الكبرى بينما وقفت الأبنة الصغرى خلف مقعديهما . وعرى الثلاثة رؤوسهن ، وإرتدين ملابس طويلة تميزت بكثرة الطيات والزخارف لكن الفتاتين إنفردتا بألوان فاتحة وأكمام من الدانتيل تنتهى أسفل المرفق مباشرة .

وفى صورة أخرى بيضاوية الشكل ، تقارب رأسا فتاتين حتى إلتصقت وجنتاهما . كانت إحداهما تتطلع إلى المصور فى ثبات يعكس قوة واضحة فى الشخصية ، أما الثانية التى إعتمدت بخدها على الأولى ، فقد رمت بنظراتها إلى المجهول فى إبتسامة بلهاء .

وبدلا من تجمعات العرق والمقهى والعائلة الكبيرة ، طالعتنى الصور الانفرادية لشبان متأنقين ، شق أحدهم شعر رأسه ناحية اليسار ، مدليا خصلة خفيفة منه فوق جبينه ، وطوى ياقة قميصه الصلبة عند طرفيها ، بحيث إستقرت حافتاهما فوق ربطة عنق عريضة ، وثنى ساعده الايسر ليمسك بسلسلة تدلت من جيب صداره .

وصفف آخر شعره إلى الوراء ، وإرتدى قميصا بياقة مزدوجة وربطة عنق على شكل الفراشة ، أسفل بزة ضيقة بصفين من الزراير ، وحمل فى يده اليسرى قفازا ، بينما إعتمد بمرفقه الايمن على سياج خشبى وتطلع إلى المصور فى تأمل . وارتدى ثالث طربوشا متوسط الطول ، مائلا إلى اليسار ، وياقة عالية صلبة ، وسترة بصف واحد من الزراير ، وتدلت من يده مسبحة ، بينما إرتفع طرفا شاربه المدببان حتى وجنتيه .

ولم أملك نفسى من الابتسام وأنا أتأمل صورة لشاب عارى الرأس ، فى ملابس السهرة ذات الياقة الصلبة العالية والفراشة ، جلس إلى مائدة تناثرت فوقها أوراق اللعب ، منحنيا برأسه فوق اليد اليسرى لفتاة أنيقة ، التى رفعها إلى شفتيه بطرف إصبعه السبابة ، ليطبع فوقها قبلة والهة ، وقد أسبل عينيه ، بينما كانت الفتاة تتأمله باسمة .

وكان ثمة وقار مشوب بالوجوم فى صور الزفاف . أو على الاقل فى الصورتين اللتين أتيح لى تأملهما قبل أن يحل موعد الاغلاق . فى الأولى وقف شاب عارى الرأس ، خفيف الشارب ، يرتدى ياقة مطوية ذات طرفين طويلين متقاربين بينهما عقدة صغيرة لربطة عنق مخططة ، ويحمل قفازا أبيض فى يده اليمنى ، خلف العروس الجالسة ، التى تزيت بثوب من الدانتيل عرى ساعديها من الكتف ، وأوشك أن يكشف ركبتيها ، وتزينت بكميات من الحلى : صفان من اللآلىء فوق جبينها ، وقلادات حول عنقها ، وحول ذراعها فى منتصف المسافة بين الكتف والمرفق ، وسوار من اللآلىء حول رسغها ، ثم الخواتم حول إصبعى الخنصر والبنصر من يدها الظاهرة التى إستقرت فى حجرها .

وفى الصورة الثانية ارتدى العريس طربوشا واطئا مال بشدة إلى اليمين حتى لمست حافته الحاجب ، ومد شاربا كثا مدبب الطرفين فى خط مستقيم فوق شفتيه ، وإنسدلت سترته حتى أسفل ركبتيه ، كما إختفت يداه داخل قفازين أبيضين .

ووقفت العروس إلى يمينه ، شابكة يدها المقفزة فى ذراعه وقد غطاها فستان الزفاف من قمة رأسها إلى أخمص قدميها .

كنا آخر من غادر القاعة من روادها المعدودين . ومضينا على الرصيف المقابل للجامعة الامريكية التى بدت كتلة من الظلام . إستنشقت بلهفة عبير الاشجار الرطبة

المطلة من خلف سور الجامعة . وتتبعت ببصرى قضيبى الترام القديم اللذين إمتدا إلى جوار السور وإلتمعا فى الضوء الباهر المنبعث من دار للسينما تعرض فيلما ذا طابع جنسى .

تمهلنا أمام مبنى ينبعث منه ضوء خافت ، وتبعت وديع فوق درجات قليلة ، وعبر باب زجاجى ، إلى قاعة أنيقة توزعت الموائد فى جنباتها ، وتغطت جدرانها الخشبية باللوحات الفنية .

إخترنا مائدة بجوار الواجهة الزجاجية المطلة على الطريق ، فجلسنا متواجهين ، وقد أعطى وديع ظهره للقاعة .

قال وهو يرسل البصر إلى الطريق من فوق كتفى :
ـــ هذا المكان من الأماكن الفريدة فى بيروت . فصاحبه نصف فنان ونصف سياسى . وهو يقدم الوجبات الخفيفة والخمور والأخبار والمعارض الفنية . وإلى هنا يأتى ثوار المقاهى ، واللصوص ، والمنفيون ، والعشاق ، والقوادون ، واللوطيون ، والسحاقيات ، والجواسيس .

أحضر لنا النادل كأسين من الويسكى ، وصحنا من الفول السودانى أو فستق العبيد كما يسميه أهل الشام ، وآخر من شرائح البطاطس المحمرة . وما لبث صاحب المكان أن إنضم إلينا مرحبا بوديع . ووجدته أربعينيا ذا عينين زرقاوين ذكيتين ، وفم حسى .

تبادل هو ووديع الأخبار والتعليقات الضاحكة . وإنصرفت أنا إلى تأمل اللوحات المعلقة على الجدران . وكانت لمصورين لبنانيين معاصرين تنوعت مدارسهم وأساليبهم . ولاحظت أن أسماءهم تتراوح بين أرمنية ومسلمة ومسيحية . وكانت الأسماء المسيحية فريقين : واحد ذو طابع عربى مثل إلياس وصليبا ، والاخر أوروبى مثل إيفيت وهيلين . وبالمثل كانت موضوعات اللوحات ، إذ تميز بعضها بجو أوروبى ، والقلة منها كانت ذات طابع محلى .

أعجبتنى لوحتان متجاورتان لنفس المصور ، تميزتا بغنى الالوان ، ووحدة لمصدر الشعبى . كانت احداهما التى غلبت عليها الألوان البنفسجية تمثل فارسين

متقابلين على نسق الصور الشعبية للخضر وذى القرنين . أما الثانية فاستمدت موضوعها من شكل الصليب الذى احتوى السيدة العذراء فى هيئة شمعة متوهجة .

تأملت شابا وفتاة جلسا متلاصقين فى أحد الأركان وأمامهما كأسان من المارتينى . وكان الشاب يهمس فى أذن رفيقته بصورة متصلة . وشعرت بصاحب المقهى يغادر مائدتنا ، فتابعته ببصرى وهو يشق طريقه بين الموائد ، ويوجه تعليقا ضاحكا إلى سيدة كبيرة الجسم فى ملابس سوداء ، إنفردت باحدى الموائد ، وظهرها إلى ناحيتى .

خاطبنى وديع :

ــ هل سمعت ماقاله ؟ إنه يعتقد أن المكتب الثانى هو الذى دبر الانفجار فى دار عدنان . والظاهر أيضا أن له يدا فى حادث بشير عبيد .

ــ كيف ؟

ــ بشير عبيد مسيحى مارونى . وهو تقريبا المارونى الوحيد بين قيادات الحركة الوطنية . وإزاحته تخدم الكتائب التى تريد الانفراد بتمثيل الموارنة .

تساءلت :

ــ لكن « المرابطون » هم الذين قتلوه ؟

هز كتفيه وقال :

ــ هذا لا يمنع أن يكون الأمر من تدبير المكتب الثانى لحساب الكتائب .

ــ ما هو المكتب الثانى بالضبط ؟

ــ جهاز المخابرات . وهو فى تركيبه يعكس الوضع القائم . فيمكنك أن تجد به ممثلين لكافة التيارات فضلا عن أجهزة المخابرات العالمية .

حانت منى نظرة إلى السيدة ذات الملابس السوداء ، فوجدت أنها لم تعد بمفردها . فقد جلست قبالتها إمرأة أخرى فى مقتبل الثلاثين ، جميلة الوجه ، ترتدى بلوزة سماوية اللون بغير أكمام ، كشفت عن ذراعين بضتين .

سألت وديع :

ــ وعدنان ؟

قال :

ــ الاحتمالات واسعة . فربما كان من عملاء المكتب الثانى وتمرد فأرادوا تأديبه . وربما

قاموا بالأمر كله بالعمولة أى لمصلحة جهة ما .

كنت أصغى إليه وأنا أتأمل ذات البلوزة الزرقاء . طالعنى وجه مستطيل ذو بشرة نضرة ، وأنف مستقيمة ، وشفتين ممتلئتين . وكان شعرها فاحم السواد مرسلا فوق ظهرها .

إستطرد وديع :

ــ منذ عشر سنوات لم يكن العمل يستقر بعدنان فى مكان أكثر من شهر أو شهرين ثم يفصلونه . فقد كانت أفكاره ثورية . ثم تزوج لميا . وهى من أسرة عريقة وإن لم تكن شديدة الثراء . ونجح الاثنان فى جمع ثروة طائلة تقدر بملايين الليرات .

وضعت ذات البلوزة الزرقاء ساقا على ساق ، فانحسرت جوبتها عن استدارة جذابة ، وجانب من فخذ مشدود . كانت تتكلم بصورة متصلة ورفيقتها تصغى باهتمام . ثم كفت عن الحديث وإنصرفت إلى تأمل يدها التى إستقرت فوق المائدة . ولمحت يد رفيقتها فوقها فى لمسة طمأنة وود .

إنتبهت إلى صوت وديع :

ــ البترول هو الذى رفع عدنان . فقد مكنه من أن ينتقل من الكتب إلى المطابع والأفلام والشرائط . لكنه موهوب أيضا .

نهضت المرأة واقفة فكشفت عن قامة ممشوقة تعلوها رقبة طويلة . وألقت على كتفيها صديرية ذات كمين طويلين تدليا بجوار ساعديها العاريين . وعبرت القاعة فى خطوات ثابتة وخيلاء غير متعمد . وتبعتها زميلتها التى بدت أكبر منها فى السن . كان وجهها جذابا رغم ما به من ملامح رجولية أكدها خلوه من أى أثر للزينة .

تتبع وديع إتجاه نظراتى ، واذا به يضع يده فجأة على يدى ويهتف بصوت خافت :

ــ هناك مثل لبنانى يقول : إذا جبت سيرة الديب لازم تحضّر القضيب . لميا .

نظرت إليه فى تساؤل ، فأضاف :

ــ لميا الصباغ . زوجة عدنان .

ــ ذات الملابس السوداء ؟

ـــ لا . الأولى الطويلة .

قلت وأنا أستعد للقيام :

ـــ إذن نكلمها .

لم يتحرك من مكانه وهز رأسه قائلا :

ـــ مثل لميا لا يكلمها أحد فى الشارع هكذا . لابد أن تتصل بها أولا عن طريق التليفون . الصباح رباح .

(٦)

أسفر الصباح عن إختفاء المظاهر المسلحة من أمام المنزل . وعندما خرجت إلى الشارع لم أجد أثرا لعلم « المرابطون » .

ركبت إحدى سيارات السرفيس المتجهة إلى البحر . وجلست بجوار شاب ملتح ، فاحت رائحة الحشيش من سيجارته ، وإستغرق فى قراءة صحيفة . ومن فوق كتفه لمحت الصورة التى نشرتها أغلب الصحف ، وتمثل ثلاث جثث عارية لشبان مسيحيين ، إستخرجت من بئر فى بلدة حمانا .

إخترقنا منطقة الروشة الأنيقة ذات البنايات الحديثة العالية ، والملاهى التى لا تنام ، والمقاهى والمطاعم الفاخرة . وخرجنا إلى الشاطىء قرب الصخرة الشهيرة التى ألف العشاق الفاشلون أن يلقوا بأنفسهم من فوقها . ورأيته محتلا بسيارات تبيع القهوة والمرطبات ، و« بسطات » من الملابس والأحذية والأدوات المنزلية والخضروات .

لمحت على الناحية الأخرى ، واجهة مقهى « الدولشى فيتا » ، الذى كان رمزا للحياة البيروتية اللذيذة فى الستينات وبداية السبعينات . وبدت عليه مسحة من الاهمال والقدم ، كما ظهرت المبانى المدمرة من حوله .

إنفصلنا عن طريق البحر ، وإنطلقنا فى شارع كورنيش المزرعة . نزلت قرب

السفارة السوفييتية بعد أن دفعت ليرة . وعبرت الطريق إلى الناحية الأخرى ، ومضيت من أمام سوبر ماركت كبير ومتاجر حديثة مختلفة ، وأنا أطالع اللافتات المعلقة فوق مداخل البنايات وطوابقها حتى عثرت على بغيتى .

إستقبلنى مدير دار « التقدم » فى مكتب تصدرته صورة كبيرة ملونة للينين . كان يتميز بطبيعة بالغة الهدوء ، توحى بالحياة المستقرة الناعمة ، وقوى من هذا الانطباع إمتلاء جسده ، وأناقته المفرطة .

أعطيته رسالة من أحد أصدقائى يطالب فيها ببقية حقوقه عن كتاب له . قرأها بعناية ثم دق جرسا . وجعل يتأمل أظافره بامعان إلى أن إستجاب أحد الشبان للجرس ، فطلب منه أن يحضر البطاقة الخاصة بصديقى ، وأن يأمر لى بقدح من القهوة .

جاء الشاب بالبطاقة المطلوبة فتأملها لحظة ثم إبتدرنى قائلا :

ــ كتاب صديقك لم يوزع منه حتى الآن غير ٩٩٠ نسخة . وهو لا يستحق دفعة أخرى من حقوقه إلا عندما يتجاوز التوزيع رقم الألف .

قلت :

ــ الذى فهمته منه أنه لم يتم بينكما إتفاق على نصيبه من عائد التوزيع .

قال :

ــ الحساب تم على أساس عشرة بالمائة .

قلت :

ــ أظن أنه يستحق خمسة عشر بالمائة .

قال :

ــ نحن لاندفع للمؤلف أكثر من عشرة بالمائة . هذه سياستنا .

قمت بحساب سريع لما سيعود علىّ من نشر كتابى طبقا لهذه النسبة . وقررت ألا أقدم اليه المخطوطة التى حملت معى نسخها . وعندما فرغت قهوتى قمت واقفا وأنا أقول :

ــ سأنقل اليه كلامك .

كانت هناك دار أخرى تحمل اسم « الناشر المعاصر » بالقرب من جامع جمال

عبد الناصر ، ترجع نشأتها إلى بداية الخمسينات ، وإشتهرت بنشر ترجمات الكتب الرائجة فى الغرب . لكن رواج هذه الكتب لم يستمر طويلا . ومن ناحية أخرى إنتشرت الدور المنافسة المدعومة جيدا من الدول العربية البترولية . وأدى هذا إلى تدهور أمرها فى بداية السبعينات ، حتى أوشكت أن تخرج نهائيا من سوق النشر . الا أن السنوات الأخيرة شهدت نشاطا مفاجئا لها ، مما يعنى أن صاحبها قد عثر على مصدر جيد من مصادر التمويل .

لم أجد صاحب الدار فى مكتبه ، فتركت له صورة من المخطوطة مع رسالة موجزة تتضمن رقم تليفون وديع . وأخذت سيارة أجرة إلى الحمرا . ولم أجد صعوبة فى الاهتداء إلى مقر الدار التى أسسها صفوان ملحم منذ عامين .

إستقبلتنى فتاة سمراء ، قصيرة القامة ، ذات عينين واسعتين ووجه صارم التقاطيع . ومالبث صفوان أن خرج إلى ، فتعانقنا ومضيت معه إلى مكتبه .

شربنا القهوة ، ونحن نتذاكر ظروف تعارفنا فى نهاية الستينات . وكان وقتها محررا ضئيل الشأن فى إحدى الصحف اللبنانية التى كانت تمولها السفارة المصرية .

أعطيته رسالة مماثلة لتلك التى أعطيتها لمدير دار « التقدم » ، بشأن كتاب آخر لصديقى ، نشره له صفوان فى بداية نشاطه . فتناول ملفا من خزانة خلفه ، وقلب محتوياته ، ثم دون بعض الأرقام فى ورقة وقدمها إلى وهو يبتسم فى أسف قائلا :

ــ ليس له شىء . فما وزعناه من كتابه حتى الان لم يتجاوز ٩٩٠ نسخة . وبحساب ما وصله فعلا من مال ، يكون قد أخذ حقه وزيادة .

سألته :

ــ على أساس أى نسبة ؟

أجاب :

ــ خمسة عشرة بالمائة .

غادر مقعده وجذبنى من ذراعى ، فتبعته إلى غرفة جانبية تكدست بها أكوام الكتب . قال ومازالت الابتسامة الآسفة على شفتيه :

ــ التوزيع هو مشكلة المشاكل . والكتاب لا ينجح إلا إذا أخذت منه إحدى

الحكومات ألف نسخة . وهم طبعا ينتقون الكتب بمقاييس دقيقة للغاية . وبعد ذلك يأتي دور المعاملات البيروقراطية ثم الوسطاء العديدين . النتيجة أنى فى أزمة متصلة .

قلبت بين الكتب ، فطلب منى أن آخذ ما يعن لى . إخترت كتابا عن دور المملكة السعودية فى دعم النظام الرأسمالى العالمى ، وآخر عن الثورة الايرانية ، وثالث عن خطط اسرائيل لمستقبل المنطقة فى العام القادم .

خرجنا إلى الصالة فدرت بعينى باحثا عن الفتاة السمراء ، دون أن أجدها . وعدنا إلى غرفته ، فقال وهو يجلس الى المكتب :

ـــ لعلك تكون قد أحضرت لى شيئا معك .

أخرجت مخطوطتى من حقيبة اليد ، وقدمتها إليه قائلا :

ـــ للأسف أنى وعدت بها عدنان الصباغ . فاذا لم يتمكن من نشرها ، أعطيتها لك .

تناول المخطوطة وقال :

ـــ مسكين . لقد أصيب بخسارة فادحة . لكنه سيقف على قدميه بسهولة . فهو مدعوم من مصادر كثيرة .

تساءلت :

ـــ مثل ؟

أجاب :

ـــ حبيبى . المصادر معروفة ولا داعى لذكرها .

دخلت علينا سيدة أربعينية ، ترتدى سترة خضراء من الشامواه فوق فستان مزركش ، وتمسك فى يدها بنظارة طبية . كانت بيضاء البشرة ، شقراء الشعر ، لكننى أدركت أنه مصبوغ .

إبتدرت صفوان قائلة :

ـــ سأسافر صباحا .

قدمها إلى على أنها كاتبة أردنية . ولم تعبأ بى إنما وجهت حديثها إليه :

ـــ هل أعددت العقد ؟

أجاب :

ــ سيكون جاهزاً فى المساء .

قالت :

ــ سأذهب الآن اذن .

سألته وأنا أشير برأسى ناحية الباب الذى خرجت منه :

ــ ماذا تكتب ؟

قال :

ــ أشياء على طريقة تحت ظلال الزيزفون ومرتفعات ويذرنج . ولولا أنها تدفع ثمن الورق وأجر المطبعة ما كنت نشرت لها شيئا .

قمت واقفا وأنا أقول :

ــ سأبلغك بموقف الصباغ من الكتاب خلال يومين .

ــ إلى متى تنوى البقاء ببيروت ؟

ــ حتى نهاية الأسبوع فى الغالب .

ــ لابد أن تسهر عندى الليلة .

ــ لا أعرف البيت . وأخشى أن أتوه .

ــ سأمر عليك بسيارتى أو أرسل إليك واحدة فى السابعة .

إسترشدت منه عن الطريق إلى مكتب وديع الذى يقع فى شارع قريب . ورافقنى الى الباب الخارجى . كانت السمراء منحنية على كتاب فوق مكتبها . وشعرتُ بنظراتى ، لكنها لم ترفع رأسها .

وجدت وديع فى مكتبه ينصت إلى الراديو . قلت وأنا أرتمى فى مقعد :

ــ ما هى الأخبار ؟

قال :

٦٨ كيلو جراما من الديناميت إنفجرت هذا الصباح فى سيارتين ملغومتين بالمنطقة الشرقية . والضحايا ٩ قتلى و٨٠ جريحا ، بالاضافة إلى المتاجر ازل والسيارات التى تضررت .

ــ والفاعل ؟

ــ مجهول كالعادة . لكن النتيجة معروفة .

ـ كيف ؟
ـ عمل إنتقامى ضد الغربية .

أحضر لى أحد الشبان علبة بيرة مثلجة جرعتها فى لهفة .

سألنى وديع :

ـ وأنت ؟ ماذا فعلت ؟

ذكرت له مقابلاتى باختصار . وعلق على قصة الـ ٩٩٠ نسخة بقوله :

ـ هل إعتقدت حقا انك ستأخذ منهم شيئا ؟

سألنى بعد برهة :

ـ هل إتصلت بلميا ؟

قلت :

ـ لم أجدها فتركت لها إسمى ورقم التليفون .
ـ واضح أنك ستبقى معنا بعض الوقت . هذا عظيم .
ـ لماذا ؟
ـ عندى عمل لك .
ـ لست مستعدا لأى شىء . أنا مرهق وعاجز تماما عن التركيز .
ـ الأمر سيهمك بالتأكيد .
ـ ما هو ؟
ـ كتابة التعليق لفيلم وثائقى عن الحرب الأهلية .
ـ لكنى لا أفهم شيئا بالنسبة لهذه الحرب . حتى الآن لا أعرف من مع من ومن يحارب من ، ولماذا .
ـ هذه ليست مشكلة . يمكنك أن تفهم الحكاية كلها بسهولة .
ـ أليس من الأفضل أن يقوم بذلك كاتب لبنانى ، أو على الأقل واحد عاصر الحرب ؟ هناك كتاب كثيرون فى بيروت .
ـ المخرجة تعتقد انه من الأفضل أن يكون كاتب التعليق خارج المشكلة لتأتى نظرته موضوعية وطازجة .
ـ مخرجة ؟
ـ أجل . أنطوانيت فاخورى .

ــ سمعت عنها . هل هى جميلة ؟
ــ لا بأس بها .
ــ ومن المنتج ؟ من الذى يقف خلف الفيلم ؟
ــ وماذا يعنيك من أمره ؟
قلت :
ــ لا أريد أن أجد نفسى فى النهاية أداة بيد أحد الأنظمة .
قال :
ــ وماذا فى هذا ؟ هل تذكر صديقك عبد السلام ؟ لقد وضع مجلدا عن سيرة القائد المعلم صدام حسين طبعت منه ملايين النسخ ، فإنهالت عليه الدنانير . ومن حسن حظه أن صدام حسين تخلص من أغلب رفاق النضال الذين ورد ذكرهم فى الكتاب ، فتم سحبه من السوق . وعهد إليه بوضع كتاب جديد ، وبذلك ضمن أن يصير غنيا عن الحاجة إلى الأبد . ثم هناك صديقك الآخر الذى أشهر إسلامه على يد القذافى . على أى حال الفيلم لا علاقة له بأى حكومة . المنتج هو مجموعة تعاونية من السينمائيين اللبنانيين الشبان .
ــ وما هو إتجاههم السياسى ؟
ــ ليست لهم علاقة بأى حزب أو حركة . لكنهم يساريون بشكل عام .
ــ متأكد انه لا يوجد أحد خلفهم ؟
ــ إطمئن . الفيلم مسئولية أنطوانيت . وهى من النوع الذى يسمى بالتقدمى النظيف . أى الذى مازال غارقا فى مثاليات حمقاء .
ــ هل سيدفعون أم يعتبرون الأمر مساهمة منى فى القضية ؟
ــ سيدفعون طبعا . كل شيء الآن بثمنه .
ــ كم تعتقد ؟
ــ لا أعرف . لكنه سيكون مبلغا معقولا .
فكرت قليلا ثم قلت :
ــ لابد أن أرى الفيلم أولا .
ــ بون . كما يقول اللبنانيون المتفرنسون . سنذهب إليها بعد ساعة ونصف . إنها تستخدم الأستديو التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية .
أكلنا ساندوتشات شاورمة ، وشربت علبتى بيرة . وحوالى الثالثة غادرنا

المكتب ، وأقلتنا سيارة أجرة إلى منطقة الفاكهانى الآهلة بالسكان والحركة .

مررنا بالبناية العالية التى تضم مكاتب دائرة الإعلام الفلسطينية ثم تحولنا إلى شارع حفل بالمقاهى والمطاعم الشعبية . وتوقفنا بالقرب من موقف لسيارات الأجرة ينطلق منه نداء متكرر : واحد ع الشام .

ولجنا مبنى يحرسه مسلحان توليا تفتيشنا ، بعد أن تأكدا بالتليفون من صحة موعدنا . وأقلنا مصعد متسخ الأرضية إلى الطابق الثالث حيث شغلت أنطوانيت غرفة صغيرة بها مكتب وخزانة للملفات ، وعدة مقاعد .

كانت نحيلة ، متوسطة الطول ، فى أواخر العشرينات ، ترتدى بزة من الجينز . ومدت إلى راحة خشنة ضغطت بها على يدى فى قوة تشى بالجدية ، بينما كنت أتطلع فى عينين جميلتين تميلان إلى الخضرة ، ووجه شاحب ينطق بسوء التغذية أو الارهاق والتوتر العصبى .

قالت وهى تتقدمنا إلى غرفة جانبية تصدرتها مائدة المافيولا التى تجرى عليها عمليات المونتاج السينمائى :

ــ للأسف لم أتمكن من إحتجاز صالة عرض . لكنك ستتمكن من تكوين فكرة عن الفيلم من المافيولا .

كان هناك شاب ذو سوالف طويلة يجلس إلى المائدة ، أمام لوحة من الزجاج المصنفر تعلو مصباحا صغيرا ، وتحيط بها عدة عجلات ، حملت إحداها شريط الصورة الأسود ، وحملت ثانية شريط الصوت البنى .

جلست أنا ووديع على مقعدين متجاورين خلف الشاب . وإنحنت أنطوانيت فوقه تتابع يديه وهما تضمان الشريطين إلى بعض ، وتثبتهما فوق الأسنان المزدوجة لجهاز التزامن .

أطفأت مصباح الغرفة ، فساد الظلام عدا الضوء الخفيف المنبعث من المائدة . ولمس الشاب بيده إحدى العجلات ، فتحرك الشريطان المتطابقان ، وتسللت إلى أسماعنا حشرجة موسيقية ، بينما تتابعت اللقطات على الشاشة الصغيرة .

كانت الكادرات الأولى معتمة ، وتبعتها أخرى مشوهة بعلامات شطب

ودوائر . ثم ظهر عنوان كبير فى منتصف الكادر عليه علامة شطب :

ماذا حدث للبنان ؟

وتتابعت لقطات للقرى ولشوارع بيروت بأحيائها الغنية والفقيرة ، ولواجهات الحوانيت وملصقات الجدران وإعلانات التليفزيون وصور الزعماء . وتردد صوت فيروز الساحر فى أكثر من أغنية . وأخيرا ظهر العنوان الكبير مرة أخرى :

ماذا حدث للبنان ؟

ثم إسم أنطوانيت بصفتها المؤلفة والمخرجة ، وأسماء الذين عاونوها . وأخيرا بدأ الفيلم .

تمكنت فى البداية من تتبع الأحداث المختلفة وتمييز بعض الشخصيات . وساعدنى على ذلك أن الفيلم لجأ إلى تقليد أفلام السينما الصامتة فى إستخدام العناوين التى تملأ الشاشة ، لإيضاح بعض التفاصيل . لكنى لم ألبث أن عجزت عن متابعة الأحداث المتلاحقة ، ولم أعد أميز بين الشخصيات أو الأماكن .

إستمر العرض ساعة وربع الساعة . وعندما أضيء نور الغرفة ، خلعت أنطوانيت نظارة طبية ، وقدمت إلى علبة سجائر أمريكية ، فأخذت سيجارة وأشعلت لها سيجارتها .

قالت وهى تبتسم فى قلق :

ـــ ما رأيك ؟

قلت :

ـــ الفيلم يشد المتفرج بالتأكيد . وهو ذو قيمة سياسية واضحة . لكنى أكذب عليك إذا قلت أنى فهمت كل شيء .

إسترخت عضلات وجهها ، ولمعت عيناها وهى تقول :

ـــ هذه هى مشكلتنا . فلن يستوعب الفيلم بهذا الشكل إلا من يعرف لبنان جيدا . ولهذا لجأت من البداية إلى إستخدام العناوين . والواضح أنها لم تحل المشكلة ، بل خلقت واحدة جديدة فى توازن الفيلم . والحل الذى توصلت اليه هو إستبدال العناوين والموسيقى التصويرية بتعليق صوتى مترابط يسد كافة الثغرات ، ويساهم

فى دعم البناء الدرامى للفيلم .

وأضافت وهى تحرك يدها بعصبية :

ـــ شيء يلم الفيلم كله .

أومأت برأسى مؤمنا على حديثها ، فاعتبرت هذا موافقة منى على إعداد التعليق المطلوب ، وقالت :

ـــ بون . لقد أعددت لك بعض الكتب والتقارير والمقتطفات الصحفية التى ستعطيك فكرة واضحة عن المشكلة اللبنانية برمتها . إقرأها أولا ثم نتحدث بعد ذلك .

عاونني وديع فى حمل عدد من المجلدات والملفات إلى سيارة تابعة لدائرة الاعلام ، أقلتنا إلى المنزل ، ثم أوْصَلَتْ وديع الى مكتبه .

كانت الساعة تقترب من السادسة ، فأخذت حماما سريعا ، وإستبدلت ملابسى . ثم ملأت كاسا كبيرة من الويسكى ، وجلست فى الصالة أمام التليفزيون . وحوالى السابعة والربع وصلت سيارة الأجرة التى وعدنى بها صفوان .

وجدت عنده الكاتبة الأردنية التى تعرفت عليها فى الصباح ، والفتاة السمراء التى كانت فى مكتبه ، وشابين ليبيين من السفارة . تجمعنا فى صالة كبيرة تكدست بها قطع الأثاث الفخمة ، من كنبتين لوى كانز تحتل كل منهما مترا مربعا ونصف المتر ، إلى طاولات ضخمة محفورة يعلوها رخام أسود .

كان الليبيان يجلسان متجاورين فى طرف إحدى الكنبات ، وفى مواجهة المرأتين . وبينما إسترخت السمراء فى مقعدها بإطمئنان ، وفى يدها كأس من الويسكى ، إستقرت الأردنية فوق حافة المقعد ، حاملة سلسلة مفاتيح فى يدها ، كأنها مستعدة للقيام فى أى لحظة .

جلست بالقرب من الليبيين ، بحيث صارت السمراء أمامى مباشرة . أحضر لى صفوان كأسا من الويسكى ، ثم ظهرت زوجته تحمل عددا من الأطباق . كانت أكبر منه فى الحجم ، وأصغر منه فى السن بفارق واضح . وكانت تتحرك بفتور ظاهر ، وعندما صافحتنى إبتسمت ، لكن الابتسامة لم تجاوز شفتيها .

سمعتهم يخاطبون السمراء باسم راندة . ورأيتها قد فرغت من كأسها فَملأته من

جديد . ورفضت الأردنية أن تشرب . وجعلت تنقل البصر بين الحاضرين ، ثم قامت فجأة وقالت إنها مضطرة إلى الذهاب لأنها ستسافر فى الصباح الباكر .

حاول صفوان أن يثنيها عن عزمها دون جدوى ، فودعها إلى الباب . وجلس إلى جوار الليبيين بعد أن أدار شريطا لفيروز . ولم تشترك زوجته فى الأكل أو الشراب ، إنما جلست مكان الأردنية ، وأمسكت بذراع « أرجيلة » ، وأقبلت تدخن ، وقد شردت نظراتها .

كانت راندة تجرع الويسكى بشراهة وثبات . وتطلعت إليها عدة مرات ، لكنها تجنبت نظراتى .

إنتقلت فجأة إلى جوارها قائلا :

ـــ تعجبنى الطريقة التى تشربين بها .

ضحكت ولم تعلق بشىء ثم وجهت إنتباهها إلى الحديث الذى كان يدور بين صفوان والشابين الليبيين .

ملأت كأسى وسمعتها تقول لصفوان :

ـــ سيأخذان ألف نسخة من كل كتاب .

بادر أكبر الليبيين سنا يقول :

ـــ لم نقرر بعد .

قال الآخر وقد بدا أثر الشراب فى عينيه :

ـــ الأستاذ تسبب فى هرب واحدة . وهو الآن يريد أن يطفش الثانية .

قالت راندة :

ـــ اطمئن . لن يحدث شىء من هذا .

وقامت من جانبى ، فدارت حول الطاولات حتى وقفت أمام الشابين وقالت :

ـــ إفسحا لى مكانا بينكما .

أطاع الاثنان فى سرور ، وقام صفوان فجلس إلى جوارى . قرع كأسه بكأسى ثم قال :

ــ الحرب الايرانية العراقية أصابتنى بضربة قاصمة . فعندما قامت الثورة الايرانية نشرت عنها عدة كتب والنتيجة أن العراقيين قاطعوا كل كتبى بل ورفضوا أن يدفعوا لى ماعندهم .

إنضم إلينا شاب لبنانى ، أنيق الثياب ، منتعش الوجه ، يحمل حقيبة سامسونايت . وتهللت أسارير زوجة صفوان لرؤيته . وبدا قريب الشبه بصفوان وإن صغره فى السن . وقدمه لى صفوان على أنه شقيقه .

تركت زوجة صفوان أرجيلتها ، وقامت فأحضرت للشاب كأسا من الجين وطبقا من المزات .

سألته عما إذا كان يعمل فى النشر بدوره فبادرت زوجة شقيقه قائلة :
ــ يكفى واحد فى هذه المهنة التعيسة .

وقال الشاب إنه يعمل فى شرائط الأغانى .
قال صفوان :
ــ إنه يكسب فى يوم واحد ما أكسبه أنا فى سنة .

لوت زوجته شفتها وخاطبته قائلة :
ــ أين هو الذى كسبته فى السنة الماضية ؟

لزم صفوان الصمت وإستغرق فى تأمل كأسه . ثم خاطبنى قائلا :
ــ لم تحدثنى عن الحال فى مصر . أنت تعرف أنى لم أرها منذ عشر سنوات .
قلت :
ــ لن تتعرف عليها لو رأيتها الآن . فكل شىء تغير فى هذه السنوات العشر . الهواء نفسه على رأى بعضهم .
سألنى :
ــ كيف ؟
قلت :
ــ الشوارع إزدحمت بالسيارات الفاخرة والمبانى السوبر لوكس وبالحفر والأتربة والقاذروات والأجانب . المتاجر إمتلأت بالسلع المستوردة والأطعمة الفاسدة . والصحف بالأكاذيب . ومياه الشرب بالديدان الحية .

قال :

ـــ والناس . كيف يسكتون على ذلك . ؟

قلت :

ـــ الناس ملاحقون بطوابير الخبز والسجائر والدجاج ، بالأوبئة والضجة والقذارة ، وبإنقطاع المياه والكهرباء والتليفون ، بالمواصلات المستحيلة ، وبسباق التظاهر . الواحد منهم يتبعثر كل صباح عدة مئات من القطع ويعجز عن لم نفسه فى المساء مرة أخرى . حتى الكرامة الوطنية لم يعد لها معنى عندهم . فماذا تنتظر منهم ؟ ثم إن عبد الناصر قتل فيهم كل قدرة على العمل الجماعى .

نهض الليبيان معربين عن رغبتهما فى الإنصراف . ونهضت راندة معهما وإنصرفت فى صحبتهما .

أعلنت رغبتى فى الانصراف بدورى ، لكن صفوان ألحف على فى البقاء ، وأراد أن يملأ لى كأسى ، لكنى إعترضته قائلا :

ـــ عندى عمل فى الصباح .

وجه الحديث إلى زوجته :

ـــ توصليه بالسيارة ؟ لا أظن أنى أستطيع القيادة بعد كل ما شربته .

أجابته :

ـــ لماذا تشرب عندما يكون لديك من تحب أن توصله ؟

تدخل الشقيق قائلا :

ـــ سأوصله أنا .

نهضت واقفا فوقف الجميع . وإقتربت زوجة صفوان من شقيقه وألقت بيدها على كتفه قائلة :

ـــ بكيِّر . ثم عندنا .

قلت : بوسعى أن آخذ سيارة أجرة .

قال الشقيق :

ـــ فى هذا الوقت ؟ أنا مضطر للانصراف الآن لأنى سأسافر فى الصباح الباكر إلى دمشق . شرَّف يا أستاذ .

تقدمته إلى باب المسكن . وتبعنا صفوان وزوجته فى صمت .

(٧)

لزمت البيت فى اليومين التاليين ، إنقطعت خلالهما للكتب والوثائق التى زودتنى بها أنطوانيت . ولأول وهلة وجدت أنى ضائع بين مغزى الأحداث ، ومدلولات الأسماء والأماكن . وضاعف من حيرتى تعدد وجهات النظر ، وتعارضها ، فيما قرأته . كما أن كلا منها كان مسلحا بترسانة من الحجج والبراهين القاطعة . لكننى لم ألبث أن تبينت فائدة ذلك . اذ أتاح لى أن اتخذ منهج المقارنة بين الآراء المختلفة . وساعدنى وديع بذاكرته ومشاهداته . وسرعان ما كنت أشق طريقى فى شىء غير يسير من الجهد .

كان لدى تصور ضبابى فى السابق عن الحرب الأهلية اللبنانية ، مؤداه أنها حرب بين التقدميين والرجعيين يحركها الاستعمار . وأن غالبية التقدميين من المسلمين ، كما أن غالبية الرجعيين من المسيحيين . لكننى أدركت الآن أن الأمر أعمق من ذلك بكثير . وبدت المشكلة اللبنانية مثل لفافة ضخمة من شرائط متعددة الألوان ، إشتبك بعضها ببعض حتى صار فصل إحداها عن الأخرى ضربا من المستحيل .

على أنى كلما تتبعت أحد الخيوط ، إنتهى بى إلى الانقسام الطائفى الشامل ، الذى ينفرد به لبنان بين البلاد العربية . فاللبنانيون ، الذين لم يزد عددهم فى يوم من الأيام عن ثلاثة ملايين نسمة ، تتوزعهم قرابة العشرين طائفة ، على رأسها الشيعة والسنة والدروز ، ثم الموارنة والكاثوليك والروم الأتوذكس ، والأرمن والسريان (كاثوليك وأرتوذكس) ، ثم البروتستانت والأشوريون واليهود . وتسيطر على هذه الطوائف مجموعة محدودة من العشائر والعائلات ، تتوارث نفوذها جيلا بعد جيل . وكأنما لبنان بلد « تجمد » عند لحظة من لحظات العصور الوسطى .

وفى ضوء التاريخ ، بدت الحرب الأهلية التى إشتعلت فى أبريل (نيسان) ١٩٧٥ ، وسقط فيها ٧٥ ألف قتيل و ١٤٠ ألف جريح (ليس بينهم واحد يحمل إسم إحدى العائلات التى تؤجج القتال وتجنى ثمن الضحايا) ، حلقة فى سلسلة طويلة من الفتن والحروب . أما البداية فهى موزعة بين اللحظة التى إكتشفت فيها العشائر المتنازعة بالمنطقة مأوى مثاليا فى جبل لبنان يحميها من أعدائها ، وتلك التى رست فيها سفن الغزاة الصليبيين تحت أقدام الجبل العتيد .

فأولئك المستعمرون الأوائل ، الذين قدموا من أوروبا رافعين رايات المسيح المقدسة ، سعوا إلى إقامة علاقات خاصة مع بعض الأقليات الدينية فى المنطقة . ووجدوا ضالتهم فى طائفة مسيحية شرقية ، تنتسب إلى القديس مار مارون ، عاشت فى رخاء نسبى نتيجة إحتكارها لانتاج الحرير . ومن جانبها رأت الطائفة المارونية فى المساندة الأوربية حماية لمصالحها الاقتصادية ، وتدعيما لها .

وطبق الأتراك نفس السياسة عندما حلوا بالشام عام ١٥١٦ م فى ظل الراية الاسلامية ، فقد عمدوا إلى إحتضان طائفة السنة المسلمة على حساب بقية الأقليات من مسلمة ومسيحية . وكان المصريون الذين وجههم محمد على إلى الشام بعد ١٨٣٣ ، هم الذين ألغوا كافة المظاهر التى فرضها الأتراك لتمييز المسيحيين من حيث الملبس ، كما فتحوا الوظائف العامة أمامهم . وبدا المشرق العربى كله على أبواب مرحلة جديدة ، تنقله من ظلام العصور الوسطى إلى آفاق العصر الحديث .

لكن القوى الاستعمارية كانت بالمرصاد لمحمد على . كما أشعل الصراع البريطانى الفرنسى فى المنطقة الفتنة الشهيرة عام ١٨٤٠ بين الدروز والموارنة . ذلك أن الأولين ، وهم مسلمون يؤلهون الحاكم بأمر الله (الشيعى) ، قد إتبعوا مثال الموارنة ، وأقاموا علاقة خاصة ببريطانيا ، يوازنون بها علاقة الموارنة بفرنسا .

إتسعت الفتنة بعد خمس سنوات بانضمام الأرتوذكس والسنة والشيعة الى جانب الدروز . ثم تكررت عام ١٨٦٠ عندما ثار الفلاحون الموارنة على إقطاعييهم . فلم تكد محاولات التوفيق بين الجانبين تشرف على النجاح ، حتى هاجم فريق من مسيحيى المتن قرى درزية ، وأغار الدروز على قرى مارونية ، وتحول الأمر إلى حرب بين المسلمين والمسيحيين ، إنتهت بتدخل قوات الدول الأوروبية ، ودخول الجيش

الفرنسى بيروت .

وينسب المؤرخون لنابليون الثالث دورا فى إثارة هذه الفتنة . فقد دخلت فرنسا فى عهده ، مرحلة جديدة من الآمال التوسعية ، وأراد الامبراطور أن يظهر فى ثوب المدافع عن حقوق المسيحيين فى الشرق .

لكن الآمال الفرنسية لم تتحقق إلا فى أعقاب سقوط الامبراطورية العثمانية فى نهاية الحرب العالمية الأولى . فقد تقاسم الانجليز والفرنسيون المشرق العربى ، وهزموا قوات الأمير فيصل ، الذى كان بسبيل إنشاء الدولة العربية الموحدة من الأردن وسوريا ولبنان وفلسطين .

تولت فرنسا سلطة الانتداب على إقليمى سوريا ولبنان ، فحافظت على النظام الطائفى ، ودعمت مركز الموارنة ، بإعطائهم إمتيازات عدة ، وإتاحة الثقافة الأجنبية لأبنائهم ، الأمر الذى هيأ لهم فرصا إجتماعية لم تتوفر لغيرهم .

ولاح أمل الدولة العربية الموحدة من جديد عام ١٩٢٥ ، عندما نشبت الثورة التى بدأها الدروز بقيادة سلطان باشا الأطرش ، تحت شعار وحدة البلاد السورية (الأردن وسوريا ولبنان وفلسطين) وإستقلالها . لكن الفرنسيين قمعوا الثورة بالسلاح ، كما قضوا على جذوة الوحدة العربية بتأسيس دولة منفصلة لجبل لبنان .

ففى سنة ١٩٢٦ ، أعلنت فرنسا قيام الجمهورية اللبنانية ، وأعطتها علما هو العلم الفرنسى ذاته وقد أضيفت إليه شجرة أرز . وأطلق بعض الموارنة على الدولة الوليدة إسم « فرنسا الصغرى » .

وبعد ثمانية عشر عاما ، إنتهى الانتداب الفرنسى على لبنان ، فاصبح جمهورية مستقلة . وكان الموارنة قد أدركوا خلال ذلك أن عصر الامبراطورية الفرنسية قد ولى ، فتبلور داخلهم إتجاه متحالف مع البريطانيين ، شكل مع عناصر من السنة والشيعة والدروز ماعرف فى تاريخ لبنان السياسى بإسم « الكتلة الدستورية » .

وولد الكيان اللبنانى عمليا فى حضن الانجليز سنة ١٩٤٣ ، وفقا لصيغة تم الاتفاق عليها بين بشارة الخورى (المسيحى المارونى) ، ورياض الصلح (المسلم السنى) ، تنص على أن يتخلى المسيحيون عن رغبتهم فى طلب الحماية من « الأم

الحنون » — كما كانوا يسمون فرنسا — ويخرجوا من عزلتهم ليدخلوا فى الجماعة العربية . ومقابل ذلك يتخلى المسلمون عن السعى للانضمام الى سوريا أو أى وحدة عربية أكبر .

ووفقا لهذا الميثاق غير المكتوب ، تم الاتفاق على توزيع مناصب الدولة الرئيسية توزيعا طائفيا عادلا ، على أن تكون نسبة المسيحيين فى المجلس النيابى ستة إلى خمسة مسلمين . وتضمن هذا الاتفاق أن يكون رئيس الجمهورية مسيحيا مارونيا ، ورئيس الوزراء مسلما سنيا ، ورئيس النواب مسلما شيعيا . وأطلق على هذا الوضع إسم التوازن اللبنانى .

على أن الاتفاق كان منذ البداية ، محملا ببذور الانفجار . فمن ناحية ، لم يكن التوازن بين الطوائف وحدها ، فقد كان فى الوقت نفسه توازنا إقليميا ، وتوازنا بين العائلات والعشائر والمؤسسات . ومن ناحية أخرى ، فان الوضع المتميز الذى هيأه الفرنسيون للموارنة أتاح لهم الازدهار . وجاء الاتفاق فأعطاهم الوظائف الخمس الرئيسية فى البلاد : رئيس الجمهورية ، قائد الجيش ، رئيس المكتب الثانى ، محافظ مصرف لبنان ، مدير الأمن العام .

وكان من الطبيعى أن تشعر الفئات الاجتماعية العليا من الطوائف الأخرى ، مسيحية ومسلمة بالغبن ، وخاصة السنة الذين تتكون منهم غالبية سكان بيروت ، ويعملون بالتجارة من أقدم الأزمنة . فقد أصبحوا يشعرون أنهم ليسوا أقلية ، بعد أن تزايدت أعدادهم بصورة واضحة .

بهذا لم يكن التوازن الطائفى مرحلة على الطريق إلى الوطن ، بل تأجيلا له . فقد صار الوطن هو الطائفة ، أو بالأحرى صراع الطوائف .

وتعددت قوانين الأحوال الشخصية نتيجة لهذا الوضع ، حتى أصبحت أغلب الأمور المتعلقة بالفرد من إختصاص الطائفة ، وأصبحت كل طائفة دولة ضمن الدولة ، تتمتع بالشخصية المعنوية ، وبحق التشريع والقضاء فى مسائل الأحوال الشخصية لرعاياها . فاذا لم يندرج الفرد فى إحدى الطوائف ، حرم من حق العيش فى ظل نظام للأحوال الشخصية ، وحرم بالتالى من الزواج على الأرض اللبنانية .

خلال ذلك أخذ لبنان يكتسب الطابع الذى عرف به دائما . فبنيته الاقتصادية لم تقم فى يوم من الأيام على أساس إقتصاد الانتاج بالمعنى الصحيح ، بإستثناء زراعة الحشيش والأفيون . وإنما قامت على أساس اقتصاد الخدمات الذى يمثل سبعين بالمائة من الدخل القومى . فعرف لبنان بأنه السوق المثالى للمنتجات الأوروبية ذات السعر المنخفض .

وتدفقت على بنوك لبنان رؤوس الأموال من مصادر البترول العربية ، فإنتعشت السوق المالية والمصرفية التى تتكون من مصارف أجنبية ومختلطة مهمتها هى نقل الأموال العربية إلى الأسواق الدولية . وظهرت طبقة جديدة من رجال المال والأعمال ورجال التخطيط والادارة والمحاسبة المؤهلين للعُمل فى شركات البترول بالبلاد العربية التى أقامت مكاتبها الرئيسية فى بيروت .

وإستتبع هذا إنتعاش سياحى ، فأصبحت بيروت مركزا للخدمات بأنواعها بما فيها الخدمات الترفيهية . وأصبح الكسب السريع بكل صوره وأشكاله هو الغاية ، ولو تم على حساب القيم الأخلاقية بل والوطنية . وتحولت بيروت إلى مركز للتآمر السياسى والجاسوسية ، ووكر لتجارة الرقيق الأبيض .

وبحكم الكيان الطائفى الذى تنتقل فيه الزعامات والمناصب مع الثروات إلى الأبناء ، تكدست الثروات العقارية المبنية وغير المبنية والصناعية والتجارية فى أيدى معدودة ، إستغلت ضعف السلطة المركزية وفقر أغلبية المواطنين . وأصبح نصف السكان يحصلون على ١٨ بالمائة من الدخل القومى ويحصل النصف الآخر على ٨٢ بالمائة منه ، بينما يستأثر عشرة بالمائة من النصف الأخير بالجانب الأكبر من هذه النسبة .

هكذا إنضم عنصر جديد ، هو العنصر الاجتماعى ، إلى الصراع الطائفى الدينى الذى أوشك أن يتطور إلى صراع قومى على هوية لبنان . لكن كما ظل الصراع القومى محكوما بالطائفة ، بقى الصراع الاجتماعى أيضا فى هذا الاطار . وظلت التكتلات والأحزاب السياسية ــ مهما إتخذت من صور العقائد السياسية أو الاجتماعية ــ واجهات لطوائف ، وأحيانا عائلات وعشائر .

وكان من شأن المد القومى الذى إجتاح الشعوب العربية فى بداية الخمسينات ،

تحت شعارى التحرر الكامل من الاستعمار والوحدة العربية ، إشعال الصراع القومى على هوية لبنان . فقد بلغت الحركة القومية ذروتها بقيام ثورة الجزائر ، وتأميم عبد الناصر لقناة السويس . وعندما وقع العدوان الانجليزى الفرنسى الاسرائيلى على مصر سنة ١٩٥٦ ، لم يخف الموارنة ورئيس الجمهورية كميل شمعون ، تعاطفهم مع العدوان ، كما هللت له صحيفة حزب الكتائب .

ومن الطبيعى أن انتصار الحركة القومية بدحر العدوان الثلاثى ، أدى الى تعزيز مواقع الجبهة المعادية للموارنة . كما أدى الى ظهور الولايات المتحدة على المسرح العربى فى دور رئيسى .

وقد ذكر راندال ، مراسل « واشنطون بوست » : « قال لى سفير أميركى سابق عن فترة الخمسينات : اننا كنا نشترى الناس بالجملة فى لبنان . ولن أدهش اذا عرفت أن كل شخصية مهمة فى لبنان تلقت أموالا من المخابرات الامريكية »

ولهذا فما أن إفتتحت الولايات المتحدة تحركها لاحتلال مواقع انجلترا وفرنسا فى المشرق العربى بمشروع أيزنهاور سنة ١٩٥٧ ، حتى كان لبنان هو البلد العربى الوحيد الذى جرؤ على إعلان قبوله .

لكن المد القومى إستمر ، فألغت الأردن معاهدتها مع بريطانيا ، وفى فبراير (شباط) ١٩٥٨ ، أعلنت الوحدة بين مصر وسوريا ، فالتهبت مشاعر العرب كافة . وتدفق آلاف اللبنانيين على دمشق ليحظوا بنظرة من « ناصرهم » .

ووجد زعماء السنة والشيعة المتمسحون بجمال عبد الناصر والقومية العربية ، وعلى رأسهم السنيان صائب سلام — رجل السعودية الأول فى لبنان — ورشيد كرامى ، والشيعى كامل الأسعد — المرتبط بالسعودية أيضا — أن الوقت ملائم لاقتطاع جزء أكبر من الكعكة التى يفوز الموارنة بنصيب الأسد فيها ، بالرد على عصابات الاغتيال السرية التى شكلها كميل شمعون (الذى إفتضح رقمه السرى فى المخابرات البريطانية فى بداية السبعينات) ، فأشعلوا ، بالتعاون مع كمال جنبلاط زعيم الدروز ، وحليف شمعون السابق ومنافسه على زعامة جبل الشوف ، ماعرف بعد ذلك « بثورة » ١٩٥٨ ، مستندين إلى حماس الشارع القومى . ولجأ المسلمون إلى السلاح رافعين صور جمال عبد الناصر .

وفى ١٤ يوليو (تموز) ١٩٥٨ ، بلغ المد القومى العربى أقصى مداه ، إذ سقط النظام الملكى فى العراق ، وإنهار حلف بغداد فى ثوان ، وبدت الوحدة العربية الكاملة فى الأفق وطار عبد الناصر ، من عرض البحر الأبيض المتوسط ، إلى موسكو استعدادا لمواجهة شاملة مع الاستعمارين القديم والجديد . هنا استنجد شمعون بسفراء أمريكا وبريطانيا وفرنسا . وجاءه الرد من واشنطون فى الساعات الأولى من صباح اليوم التالى . وفى الساعة الثالثة من بعد ظهر اليوم ذاته ــ الخامس عشر من يوليو (تموز) ، نزل حوالى ألفان من مشاة الاسطول الأميركى بملابس الميدان ، على بعد خمسة أميال إلى الجنوب من بيروت ، بزعم حماية لبنان من جمال عبد الناصر . وفى الأيام التالية وصل مجموع القوات الأمريكية فى لبنان إلى حوالى خمسة عشر ألف مقاتل .

إنتهت « الثورة » بإتفاق مصرى أميركى على إنتخاب اللواء فؤاد شهاب رئيسا جديدا للجمهورية . وإنسحب مشاة الأسطول الأميركى نتيجة لذلك . الا أن حزب الكتائب ، الذى أنشأه الزعيم المارونى بيار الجميل سنة ١٩٣٩ ، على غرار واسم الحزب الفاشستى الأسبانى ، وفى أعقاب إشتراكه فى أولومبياد برلين الشهير سنة ١٩٣٦ ، جاعلا له شعارا ذا مغزى هو « الله والوطن والعائلة » ، تمرد على الاتفاق . وقام أعضاء الحزب بإختطاف أنصار صائب سلام ، وكى أجسادهم بعلامة الصليب . ورد أولئك بنفس الأسلوب . ولم تنته الفتنة إلا بدخول بيار الجُمَيِّل وزيرا فى حكومة جديدة .

وبإشتراك الجُمَيِّل فى الوزارة بدأت الرحلة الدموية التى قطعتها أسرته من أجل الاستئثار بزعامة الطائفة المارونية والاستحواذ على الحكم . والواقع أنه حتى ذلك الحين ، لم يكن اللبنانيون قد أخذوا مأخذ الجد ، ذلك الصيدلى الرياضى ، ذا القامة المنتصبة ، والشعر الأبيض الملتصق بالجمجمة ، والميليشيات المضحكة . ومن فرط إستهزائهم به ، أطلقوا عليه « بيار مانع الحمل » ، وهو لقب جلبته له إدارته لصيدلية فى ساحة الشهداء ، على بعد خطوات من حى الدعارة ببيروت .

لكن إشتراك الجميل فى الوزارة كانت له أهمية أخرى . فقد جاء بمثابة تطبيق للشعار الذى صكه الزعيم الاسلامى ذو السيجار الهافانى ، صائب سلام ، ومؤداه : « لا غالب ولا مغلوب » . ومعناه أن كل ما جرى من أضرار وضحايا لم يعد ذا

موضوع ، ويجب نسيان الماضى ، وإعادة كل شىء إلى ما كان عليه قبل الأحداث ، على أساس أن أيا من الفريقين لم يحرز إنتصارا على الفريق الاخر ، ولا ينال تبعا لذلك إمتيازات خاصة . وصار هذا الشعار قاعدة لما يجرى فى لبنان .

وبلغ لبنان فى السنوات التالية قمة إزدهاره . فالاتجاه الاجتماعى « الاشتراكى » الذى إكتسبته الحركة القومية بعد التأميمات الناصرية الشهيرة ، جعل أصحاب الأموال بمختلف البلدان العربية يرتعدون خوفا من شعوبهم ، ويودعون أموالهم فى مصارف لبنان ، أو يشاركون فى مشروعاتها .

ومن ناحية أخرى ، فإن الطابع العسكرى الديكتاتورى الذى صبغ الأنظمة الوطنية والرجعية على السواء ، جعل من بيروت المتنفس الوحيد للاجئين السياسيين والمعارضين للأنظمة المختلفة ، وميدان معركة بين هذه الأنظمة وبعضها ، وبينها وبين الدول الاستعمارية ، وبين هذه الأخيرة ذاتها .

وأدرك اللبنانيون بحسهم التجارى الموروث ، أنهم يستطيعون الاستفادة من هذا الوضع إلى أقصى درجة . فازدهرت كافة المحرمات ، من الكتب إلى الدعارة ، وأصبح لبنان كله سوقا حرة لكافة الأفكار والسلع . وصدرت عشرات الصحف التى تمولها جهات مختلفة ، بل تكونت أحزاب وتنظيمات سياسية تمولها الجهات المختلفة .

وإكتسب المواطن اللبنانى شخصية الوسيط . فلم يكن بحاجة إلى أكثر من أن يرتدى — ولو عن طريق الاستدانة — أفخم الملابس وأحدث الأزياء ، ويستعين بأحدث الأجهزة ، كى ينجح فى ترويج البضاعة التى إستوردها من الغرب ويبغى إعادة تصديرها إلى العرب . وصار النائب البرلمانى يتباهى بالسفارة الأجنبية التى تدعمه . وشاع أن الذى لا « يقبض » من جهة ما ، هو إنسان فاشل غير جدير بالاحترام .

أما الرجعية العربية والدول الاستعمارية ، فراحت تروج لل « رخاء والحرية الاقتصادية والديموقراطية » بصفتها منتجات لبنانية ناجحة . لكن الواجهة البراقة لشارع الحمرا ما كانت لتخفى واقع البلاد المتخلف . فمع إرتفاع البنايات الشاهقة وسط بيروت وفى أحيائها الارستقراطية ، تكون حزام من عشش « التنك » ، أى

الصفيح ، حول المدينة . وفى عكار وجبل عامل والبقاع (وهى مناطق تسكنها أغلبية شيعية) ، عاش الفلاحون فى حالة مزرية من الرق . ومن جرؤ منهم على التمرد على الملاك « البكوات » ، حرم من التعيين فى الدرك ، وعجز أولاده عن الالتحاق بالمدارس الحكومية ، واذا كان من زارعى التبغ ، حرم من البذور ، ولم ينل محصوله سوى أبخس الأسعار .

وجندت الدولة نفسها لخدمة مجموعة من العائلات القديمة بين مارونية وسنية وشيعية ، إحتكرت أمور البلد وثرواتها .

وخلال ذلك كان عدد المسلمين فى تزايد دائم ، حتى أصبحوا يشكلون غالبية السكان . ولم يعد الموارنة — بإعتراف مجلة « الأيكونومست » البريطانية — يشكلون أكثر من عشرين بالمائة من إجمالى عدد اللبنانيين . وتحققت هذه الزيادة على يد الشيعة بالذات ، الذين أصبحوا — وفقا للمجلة الانجليزية — يكونون ربع السكان . وشهدت نهاية الستينات بداية صعودهم تحت الزعامة القوية للامام الطموح موسى الصدر ، الذى نجح فى إستقطاب جماهيرهم فى حركة « المحرومين » ، قبل أن يختفى عام ١٩٧٨ فى ليبيا .

لكن الستينات إنتهت أيضا بوفاة جمال عبد الناصر ، النصير القوى للشارع الوطنى فى لبنان ، والقلعة التى كانت تحتمى بها القيادات الاسلامية وهى تطالب باعادة توزيع الكعكة . وتلفت الجميع بحثا عن نصير جديد ، وسرعان ما وجدوه فى المقاومة الفلسطينية .

ويرجع التلازم بين قضيتى لبنان وفلسطين إلى بداية الغزو البريطانى للمنطقة . ففى نفس السنة التى إحتل فيها الانجليز مصر (١٨٨٢) ، كان المستوطنون اليهود يبنون أولى مستوطناتهم على مشارف نهر الليطانى . وفيما بعد ، كانت المراسلات البريطانية مع زعماء العرب ، تتمسك دائما بـ « الأوضاع الخاصة » لكل من اليهود فى فلسطين ، والموارنة فى لبنان .

ومن سخرية الأقدار أن لبنان يدين بـ « إزدهاره » للقضية الفلسطينية . وأن الثروات الهائلة التى جمعتها العائلات الحاكمة ، قد تكونت بفضل الصراع العربى الاسرائيلى ، وما لحق بالعرب خلاله من هزائم وإنتصارات ، على حد سواء .

فقد ترتب على هزيمة الجيوش العربية وقيام دولة إسرائيل سنة ١٩٤٨ ، إنتقال مركز النشاط الاقتصادى من فلسطين إلى لبنان ، وخاصة دور الوسيط الذى كانت تتولاه فلسطين من قبل فى مجالات التجارة والنقل والسياحة . وساهم الفلسطينيون اللاجئون فى تطوير الخدمات ، وتدعم « الازدهار الاقتصادى » بالمقاطعة العربية لاسرائيل وإجماع العرب على إخراج لبنان من دائرة الصراع العسكرى مع إسرائيل وإعفائه بالتالى من مصروفات التسلح . ومن ناحية أخرى ، أدى الانتصار العربى فى اكتوبر ١٩٧٣ إلى مضاعفة عائدات البترول وتدفق الرساميل على لبنان . فارتفعت القيمة الخارجية لليرة اللبنانية إلى ٢,٣٠ للدولار الواحد مقابل ٣,٢٥ فى أواخر ١٩٧٠ .

وفيما يتعلق بإسرائيل ، فانها لم تخف لحظة واحدة أطماعها فى لبنان . ففى فبراير (شباط)١٩٥٤ ، كتب بن جوريون إلى موسى شاريت يقول : « ... من الواضح أن لبنان هو أضعف حلقة فى الجامعة العربية . إن الأقليات الأخرى فى الدول العربية كلها مسلّمة ، باستثناء أقباط مصر . لكن مصر هى أكثر الدول العربية تآلفا وتماسكا .... إن خلق دولة مسيحية فى لبنان يعتبر عملا طبيعيا له جذور تاريخية ... إن تحقيق شىء كهذا فى الأوقات الطبيعية أشبه بالمستحيلات .. لكن فى أوقات الارتباك أو الثورة أو الحرب الأهلية تأخذ الأمور منحى آخر . »

وعشية العدوان الاسرائيلى على مصر وسوريا والأردن عام ١٩٦٧ ، صرح ليفى أشكول ، رئيس الوزراء الاسرائيلى لمندوب « لوموند » الفرنسية بقوله : « لا يسع اسرائيل العطشى أن تقف مكتوفة الأيدى وهى تشهد مياه نهر الليطانى تذهب هدرا إلى البحر . »

وأمام ذلك قامت الحكومات اللبنانية بدور الذراع الاسرائيلية داخل لبنان . ففى أعقاب قيام إسرائيل ، هاجر مائة ألف فلسطينى إلى لبنان . ومنحت الحكومة اللبنانية الجنسية لأربعين ألف مسيحى منهم ، وفرضت على الباقين حياة الكلاب فى مخيمات يحكمها رجال الأمن .

ووقعت هجرة فلسطينية جديدة فى أعقاب استيلاء إسرائيل على الضفة الغربية لنهر الأردن وقطاع غزة عام ١٩٦٧ . وحل عدة آلاف جدد فى مخيمات الجنوب

اللبنانى وحول بيروت .

فرضت السلطات اللبنانية الحصار على المخيمات الفلسطينية ، وحظرت إنتقال الفلسطينين من مخيم إلى آخر ، أو إلى المدينة ، إلا بإذن مسبق . وحرمت عليهم إقامة تنظيمات سياسية أو الاتصال بإحداها . وطاردت وقتلت كل من حاول منهم التسلل إلى إسرائيل . كما حرمت العمال الفلسطينيين من التمتع بالضمان الاجتماعى . وألفى هؤلاء أنفسهم مرغمين على القيام بالأعمال الهامشية والشاقة ، وبأجور أدنى من تلك التى يحصل عليها أقرانهم من اللبنانيين .

وعلى حد تعبير أحد الكتاب ، كان البؤس والفاقة والنزوح ، جمرات دفينة فى أزقة المخيمات ، وأسفل بيوت التنك .

لكن هزيمة القيادات العربية التقليدية فى ١٩٦٧ ، أتاحت للفلسطينيين أن ينظموا أنفسهم فى جماعات مسلحة . وعندما حاولت السلطات اللبنانية تقييد العمل الفدائى فى الجنوب ، إثر غارة اسرائيلية على مطار بيروت دمرت خلالها ١٣ طائرة مدنية لبنانية دون تدخل من الجيش ، وقع أول صدام كبير بين الجانبين فى ١٩٦٩ ، إنتهى بوساطة جمال عبد الناصر ، وبتوقيع إتفاق القاهرة السرى فى نوفمبر (تشرين الثانى) من نفس العام . وأعطى هذا الاتفاق للفلسطينيين حق العمل والاقامة والتنقل فى لبنان ، والاشراف على المخيمات ، وإقامة نقاط للكفاح المسلح (الشرطة العسكرية) داخلها .

تأجل الصدام فى ظل هذا الاتفاق بين المقاومة الفلسطينية والقوى المناوئة لها بعض الوقت . لكنه بدأ يتصاعد من جديد بعد أن قام الملك حسين بتصفية قوات المقاومة فى الأردن عام ١٩٧٠ . فقد ترتب على ذلك نزوح آلاف جديدة من الفلسطينين إلى لبنان ، الذى أصبح أيضا المنفذ الرئيسى إلى الأراضى المحتلة .

وخلال ذلك وجد الشارع الوطنى والاسلامى فى المقاومة الفلسطينية حليفا قويا ، كما أن المنظمات الفلسطينية كانت تنتمى إلى هذا الشارع نفسه بحكم تكوينها وأهدافها . وكان عليها أن تحمى كيانها فى لبنان بأوسع تحالفات ممكنة .

ولعبت إسرائيل دورها فى تصعيد التوتر بالتنسيق مع الموارنة وحزب الكتائب

بوجه خاص ، فشنت هجوما عسكريا على مخيمى البارد والبداوى فى ١٧٣ ، آشفعته بغارة كوماندوز فى قلب بيروت ، قتلت خلالها ثلاثة من قادة منظمة التحرير الفلسطينية ، وعددا من المدنيين ، دون أن يحرك الجيش اللبنانى ساكنا .

تفجر الموقف بصورة لم يسبق لها مثيل ، وقامت مظاهرات وإضرابات دعت لها القوى الوطنية ، نددت بعجز السلطة عن حماية البلاد . وطالبت القوى اليمينية من جانبها بنقل المخيمات الفلسطينية من حول بيروت . ولم يكن سرا أن الرهبانيات التى تملك جانبا كبيرا من أراضى هذه المخيمات ، تسعى جاهدة لاستردادها بعد أن إرتفع ثمنها كثيرا فى السنوات الأخيرة . وإضطلع رئيس الجمهورية ، سليمان فرنجية ، بالمهمة .

وتصلح سيرة سليمان فرنجية موضوعا لفيلم مثير من أفلام المافيا ، كما أنها تعطى صورة دقيقة لطبيعة العمل السياسى فى الديموقراطية اللبنانية ذائعة الصيت .

فقد بدأ سليمان فرنجية حياته العملية فى الأربعينات ، فى ظل أخيه الأكبر حميد فرنجية ، الذى كان زعيما للعشيرة المارونية فى بلدة زغرتا ، وممثلها فى البرلمان والوزارة . وكانت مهام سليمان تشمل إلى جانب الدعاية الانتخابية لأخيه ، تدبير مقتل واحد من مسلمى مدينة طرابلس كل شهر ، كنوع من الانذار المتجدد لأبناء المدينة المجاورة ذات الأغلبية السنية .

وعشية إنتخابات الرئاسة فى سنة ١٩٥٨ ، برز حميد فرنجية كمرشح محتمل . وكان كميل شمعون يطمع فى تجديد رئاسته للجمهورية ، فقام بمناورة ماكرة لإزاحة خصمه المارونى عن طريق إثارة النزاع بين عائلتى فرنجية والدويهى . وكما قدر شمعون ، تصاعد النزاع إلى مواجهة بين العائلتين فى قداس بكنيسة بلدة المزيارة ، أطلق سليمان النار خلالها على منافسيه ، فأردى منهم عشرين . وعلى الفور أصدر شمعون أمرا بالقبض على القاتل الذى هرب إلى سوريا ونزل ضيفا على الحكومة السورية فى أحد فنادق اللاذقية ، حيث تعرف على الضابطين حافظ الأسد ورفعت أسد اللذين أصبحا شركاء لعائلة فرنجية فى عدد من صفقات السوق السوداء ـــ التجارية والسياسية ـــ المربحة .

لم تمض سنة ونصف السنة حتى صدر عنه العفو . وخلال ذلك كان أخوه قد

أصيب بالشلل ، فعاد سليمان ليدخل البرلمان مكانه ، ويصبح زعيما مبجلا للعائلة والعشيرة ، بفضل سجله الحافل بالقتلى (والذين إرتفع عددهم على مر السنوات إلى سبعمائة قتيل) .

وعندما حلت إنتخابات الرئاسة الجديدة عام ١٩٧٠ ، دارت المشاورات التقليدية المعقدة بين العائلات الحاكمة : إدة ، الجُميّل ، شمعون ، جنبلاط ، سلاّم ، الصلح ، حمادة ، كرامى ، الخ ، بحثا عن مرشح يرضى الجميع . وفى مكتب غسان توينى بالطابق التاسع من مبنى جريدة « النهار » التى يملكها ، تم الاتفاق على ترشيح سليمان فرنجية .

وفى يوم ١٧ أغسطس/آب ، هبط خمسة آلاف من رجال فرنجية المسلحين من زغرتا إلى بيروت ، وأحاطوا بمبنى البرلمان ليضمنوا إنتخاب زعيمهم . وأسفر الاقتراع الثالث عن خمسين صوتا له مقابل تسعة وأربعين لمنافسه إلياس سركيس . وعندما أعلن صبرى حمادة ، رئيس البرلمان ، ضرورة إجراء اقتراع رابع ، أطلق أنصار فرنجية فى الخارج النيران معلنين إنتصار رجلهم . وإندفع فرنجية شاهرا مسدسه إلى حمادة صارخا ، بينما اشتبك أولاد الأخير مع الأب دويهى (الذى أصبح الآن من أنصار فرنجية) . وتقدم حراس حمادة لحمايته رافعين مدافعهم الرشاشة ، بينما أخرج رجال فرنجية ، الذين نجحوا فى التسلل إلى المبنى قبل الاقتراع ، مسدساتهم .

إنسحب حمادة الى مكتبه وتلفن للرئيس شارل حلو طالبا النصح ، فقال له الأخير : « إن معلوماتى تخول لى أن أقول لك أنه فى حالة إصرارك على موقفك ، فان أحدا لن يبقى حيا من الموجودين فى البرلمان . إفعل ماتراه ضروريا لمنع تدمير البلاد . »

وبعد ذلك بثلاث سنوات إستخدم سليمان فرنجية شعار « ما هو ضرورى لمنع تدمير البلاد » ليبرر الأمر الذى أصدره فى مايو (آيار) ١٩٧٣ إلى قائد الجيش بمهاجمة المخيمات المحيطة ببيروت لانهاء سيطرة المقاومة عليها . وقد وصف دبلوماسى أميركى هذا الهجوم الذى إشتركت فيه الطائرات بقوله : « كانت المرة الأولى التى أرى فيها الجيش اللبنانى يتحرك بفعالية . »

لكن الجيش اللبنانى فشل فى مهمته ، فشرعت الأحزاب المارونية فى تدعيم ميليشياتها المسلحة لتقوم بما عجز الجيش عن القيام به . وتحملت

« الكسليك » ، وهى مجموعة من الرهبان والمثقفين الموارنة ، العبء الأكبر فى جمع التبرعات لهذا الهدف ، وتمكنت من جمع ٥٦ مليون ليرة أى ٢١ مليون دولار بأسعار ٧٤/٧٣ . ولهذا الهدف أيضا زار بيار الجميل المملكة العربية السعودية فى أول أبريل (نيسان) ١٩٧٤ ، على متن طائرة سعودية خاصة . وأعدت الخطط لتدريب ميليشيا الكتائب فى ألمانيا الغربية واسرائيل والأردن . وخرج إسكندر غانم من قيادة الجيش ليتولى قيادة ميليشيا الكتائب .

وقد ذكر « أنتونى سامسون » فى كتابه « سوق السلاح » الذى صدر فى منتصف ١٩٧٧ ، أن الجبهة المارونية إشترت كمية من السلاح يتراوح ثمنها بين ٢٠٠ و ٦٠٠ مليون دولار ، جاءت ــ على حد قوله ــ من البنوك التى نهبتها الميليشيات المارونية فى لبنان ومن وكالة المخابرات الأمريكية ، وإسرائيل ، وألمانيا الغربية ، والفاتيكان ، وشاه إيران ، والدول العربية الاسلامية .

ومن الطبيعى أن الطرف الآخر ــ إبتداء من المقاومة الفلسطينية إلى الأعداء الدينيين التقليديين للموارنة ، مرورا بأصحاب البرامج الاقتصادية والاجتماعية « التقدمية » ــ ما كان ليقف مكتوف الأيدى أمام هذه الحملة الضخمة من التسليح . ووجد قادته الخزائن مفتوحة أمامهم فى بغداد وليبيا والسعودية أيضا فسلح كمال جنبلاط رجاله من الدروز ، وكون الإمام الصدر جهازا عسكريا لحركة « المحرومين » الشيعية ، وتجمعت العناصر السنية الشابة فى تنظيم « المرابطون » الناصرى المسلح ، وشكل الشيوعيون والبعثيون ميليشياتهم المسلحة .

ولم يعد ثمة مفر من الحرب .

(٨)

ظلت هناك جوانب عديدة غامضة فى نظرى . لكن الوقت كان ضيقا . وكنت أعرف بتجربتى أن الأمور تتضح دائما أثناء العمل نفسه .

تلفنت لأنطوانيت ، وإتفقت معها على موعد . وما أن وضعت السماعة حتى دق جرس الجهاز ، فرفعتها إلى أذنى من جديد .

جاءنى صوت أنثوى ناعم :

ـ أستاذ ... ؟

قلت مقلدا اللهجة اللبنانية :

ـ مين عمّ بيحكى ؟

قالت صاحبة الصوت برقة :

ـ وحياتك .. إحكى مصرى .

ضحكت وقلت :

ـ حاضر .

ـ أنا ليا .. ليا الصباغ .

ـ أهلا وسهلا . لقد إتصلت بك أكثر من مرة .

ـ أعرف . لكنى كنت فى الضيعة ثم إنشغلت فى ترميم الملجأ .

ـ آه ... شىء فظيع .

ـ لا يهم . هذه أمور أصبحت عادية هنا . أستاذ .. اليوم حكى معى زوجى من باريس .

ـ ألن يأتى إلى بيروت ؟

ـ لا أظن الآن .. المهم ، حدث شىء سخيف . فقد أبلغنى أن مخطوطة كتابك فقدت منه قبل أن يتمكن من قراءتها .

لزمت الصمت ولم أعلق بشىء .

قالت فى تردد :

ــ آلو ... يا ترى لديك نسخة أخرى منها ؟

ــ عندى .

ــ هل تتكرم بإحضارها لى .

ــ لترسليها إليه ؟

ــ بلى .

ــ كنت أريد الانتهاء من هذا الموضوع بسرعة .

ــ إلى متى باقٍ ببيروت . ؟

ــ ربما أسبوع آخر .

ــ إذن سنرى . متى أراك ؟

ــ الوقت الذى يناسبك .. صباح الغد مثلا . فى العاشرة ؟

ــ أوكى . سأنتظرك . أنت تعرف أين تقع الدار ؟

تساءلت مدهوشا :

ــ التى تحطمت ؟

ضحكت وقالت :

ــ الانفجار كان بالطابق الأرضى الذى يضم المخازن . أما المكاتب نفسها فلم يلحقها ضرر كبير . وقد رممناها وعادت كما كانت .

ــ بهذه السرعة ؟ سأعرف كيف أصل اليها .

قالت :

ــ فى العاشرة إذن .

أعدت السماعة إلى مكانها وأشعلت سيجارة . كان النهار مازال فى بدايته ، لكنى شعرت بالحاجة إلى قليل من الشراب ، فأعددت لنفسى كأسا من الجين . وجلست أقلب فى صفحات مجلد كبير عن وقائع الحرب الأهلية اللبنانية .

وقرب العصر إتصل بى وديع قائلا أنه سيتناول طعام الغذاء مع أحد أصدقائه . وطلب منى أن أستخدم محتويات الثلاجة فى إعداد طعامى .

أعددت قرصا من البيض المقلى وأكلته مع قليل من الزيتون والسلاطة ، وأنا أتصفح إعلانا فى صحيفة الأمس يدعو المواطنين العرب للإنضمام إلى القوات المسلحة

لليبيا « النواة الثورية للدولة العربية المتحدة » ، لمواجهة « الانقضاض الوحشى الذى تتعرض له الأمة العربية من جانب الأمبريالية والصهيونية والرجعية العربية » . وإكتشف بجوار الاعلان نبأ صغيرا عن إتساع حجم التدخل الليبى فى تشاد إلى جانب رئيس الحكومة عويضى ، ضد منافسه حبرى الذى تدعمه الولايات المتحدة . وكانت هناك أيضا اشارة إلى افتتاحية لجريدة « الأهرام » القاهرية ، تطالب أمريكا « باستعادة هيبتها ومواقعها ، وتحمل مسئولياتها فى حفظ السلام ، ومواجهة العدوان ، ووقف التوسع ورفض السيطرة وإرهاب الشعوب بالغزو والتدخل » .

شعرت بعد الأكل بالرغبة فى شىء من الراحة . لكننى تحاملت على نفسى وإرتديت ملابسى وغادرت المنزل .

أقلتنى سيارة أجرة إلى مكتب أنطوانيت . ورافقنى أحد المسلحين إلى غرفتها . فوجدت معها رجلا ربعة فى الخمسين ، إحتل مقعدا مجاورا لمكتبها .

قدمتنى إليه ثم قالت :

ـــ أبو نادر . رئيس دائرة السينما بالمنظمة . لعلك سمعت عنه .

صافحته بحرارة وأنا أقول :

ـــ من لم يسمع عنه .

كانت العملية الفدائية التى قادها وسط تل أبيب من القصص التى تروى . وقد قبض عليه الاسرائيليون بعدها وحكموا عليه بالاعدام ، لكنه تمكن من الفرار بعد أن أصيب إصابة بالغة أقعدته عن الحركة مدة طويلة .

جلست فى مواجهته ، وواصل هو حديثا سابقا مع أنطوانيت :

ـــ الحركة فى الملعب أصبحت محدودة . غدا ستثبت لك الأحداث قولى . أنت تعرفين نبوءاتى وكيف تتحقق . إنه شىء كالحدس . هل حكيت لك عن عملية تل أبيب ؟

أطرقت برأسها ، لكنه واصل الحديث متوجها إلى :

ـــ كان أمامنا جندى إسرائيلى يحمل مدفعا رشاشا . وكانت يده على الزناد ، مستعدا لإطلاق النار فى أية ثانية . لكننى شعرت أنه لن يفعل وتقدمت منه فى ثبات حتى

لمست فوهة المدفع صدرى . ثم مددت يدى وأخذت المدفع .

غير الموضوع فجأة وقال لى :

ــ كيف حال مصر ؟ لقد زرتها مرة واحدة فى الثمانية والستين وقابلت جمال عبد الناصر . وكان المفروض أن أذهب مرة أخرى فى السبعين ، لولا الروس .

تساءلت مدهوشا :

ــ كيف ؟ أقصد لماذا ؟

إبتسم وقال :

ــ فى أول عملية فدائية لى تسللنا إلى الأرض المحتلة من الأردن . هل تعرف من الذى أطلق علينا النار ؟ الأردنيون . يومها قلت للأخوة : مصيبتنا ستأتى دائما من أصدقائنا لا من أعدائنا .

قلت :

ــ لكن الروس ...

قاطعنى :

ــ أعرف ما ستقوله . صدقنى نحن لا نأخذ منهم غير الكلام .

تدخلت أنطوانيت فى الحديث قائلة :

ــ السادات يقول نفس الشيء . كأنما المفروض أن يحملوا السلاح بدلا منا .

ــ لسنا سوى قطع شطرنج فى اللعبة بين الروس والأمريكان .

ردّت عليه بحدة :

ــ لو سمعك بيجين لقفز من السعادة .

إتسعت إبتسامته وقال :

ــ عندما إعتقلونى سألونى عن موقفى من الروس ، فقلت لهم الحقيقة . ولم يمنعهم هذا من الحكم على بالاعدام . ما علينا . قالت لى أنطوانيت أنك معجب بالفيلم ؟

قلت :

ــ فعلا .

قال :

ــ هل تعتقد أنه ينجح إذا عرض فى مصر ؟

قلت :

ـ الفيلم الوثائقى عموما ليس له جمهور فى مصر . ثم إن الاعلام الساداتى نجح فى قتل إهتمام الناس بالقضايا العربية .

وجه حديثه لأنطوانيت :

ـ ألم أقل لك أن الكتاب أفضل من السينما ؟

وتحول إلى ثم أضاف :

ـ هل تعرف أنى كتبت رواية كبيرة ؟ كل الذين قرأوها أعجبوا بها وقالوا أنى أخطأت طريقى فى الحياة .

أبديت إهتمامى قائلا :

ـ أتمنى أن تتيح لى قراءتها .

نقل البصر بيننا ثم نهض واقفا وهو يقول :

ـ سأذهب الان وأترككم تعملون .

قالت أنطوانيت بعد إنصرافه :

ـ أبو نادر شخص ممتاز وإن كانت له آراؤه . هل أفادتك المواد التى أعطيتها لك ؟

ـ جدا . لكنى أريد أن أرى الفيلم مرة أخرى .

ـ بالطبع . لقد حجزت لك اليوم قاعة العرض .

إنتصبت واقفة وهى تجمع بعض الأوراق من فوق المكتب . كانت ترتدى البنطلون الجينز الذى رأيتها فيه أول مرة ، لكنها إستبدلت سترته بلوزة مشجرة خفيفة بنصف كم .

تقدمتنى إلى الخارج ، وإرتقينا الدرج إلى الطابق الأعلى . ولجنا قاعة عرض فى حجم غرفة معيشة . وكانت بها عدة صفوف من مقاعد ذات مساند ، تتوسطها طاولة صغيرة تحمل منفضتين للسجاير ، وتفصلها خطوتان عن الشاشة التى غطت حائطا بأكمله .

جلست فوق أحد المقاعد بالصف الأول ، وأشعلت سيجارة . ومضت أنطوانيت إلى كوة العرض فتحدثت مع العارض . ثم أطفأت النور وإستقرت فى المقعد المجاور لى .

بدأ العرض على الفور . ووجدتنى أكثر قدرة من المرة السابقة على متابعة لقطات الفيلم .

كان الجو حارا ، فخلعت سترتى ، وألقيت بها على المعقد المجاور . وأرحت ساعدى الأيمن فوق مسند مقعدى . كنت أرتدى قميصا قصير الأكمام . وشعرت بساعدها العارى قريبا منى . ولدى أول حركة منها تلامس ساعدانا .

ظل ساعدانا ملتصقين بضع ثوان ، ثم أزاحت ذراعها بعيدا فى رفق .

وجهت إهتمامى إلى الفيلم ، ولم ألبث أن إندمجت فى صوره ، ولم أشعر بمرور الوقت إلى أن قرأت كلمة النهاية .

قامت أنطوانيت فأضاءت النور . ووضعت يديها فى جيبى بنطلونها وهى تستدير وتتقدم منى . وقفت أمامى وثنت إحدى ركبتيها وأسندتها إلى حافة المقعد الذى كانت تحتله . ولحظت أن وجهها الشاحب قد تضرج قليلا .

قدمت إليها سيجارة فأخذتها ، وأخرجت ولاعة ذهبية من جيبها قربتها منى . أشعلت سيجارتى وقلت :

ــ العناوين كثيرة ، ولابد من دمجها فى التعليق . لابد أن أعمل وأمامى اللقطات .

قالت :

ــ يمكنك أن تعمل على المافيولا .

قلت :

ــ لا . المشكلة أنى لا أستطيع أن أعمل فى أى مكان أو أى وقت . أليس لديك سيناريو ؟

قالت :

ــ مجرد خطوط عامة . فكل شىء هنا .

وأشارت إلى رأسها .

قلت :

ــ ولا حتى قائمة باللقطات ؟

قالت :

ــ عندى واحدة لن تنفعك . فهى عبارة عن أرقام ورموز .

ـ لم يبق إذن غير أن أعد قائمتى بنفسى . أسجل مضمون اللقطات من المافيولا .
ـ لكن الفيلم ستة فصول غير المقدمة .
ـ سيكون الأمر مرهقا بالتأكيد وسيستغرق بعض الوقت . لكنه سيضعنى داخل الفيلم تماما . فقط لدى شرط .
ــ ما هو ؟
ــ ألا يتعرض ما سأكتبه لأى تعديل إلا بموافقتى . أنا أدرك ما تمليه السينما من ضروريات ، وسأحاول التلاؤم معها قدر الامكان . لكنى لن أقبل أى محاولة لتحريف ما سأكتبه لصالح جهة ما بالذات .
ــ هذا حقك . متى يمكن أن تبدأ ؟
تطلعت فى ساعتى ثم قلت :
ــ الآن . نقوم بتجربة مع المقدمة .

إرتديت سترتى ، وهبطنا إلى مكتبها . وتبعنا العارض حاملا العلب المعدنية المحتوية على الفيلم ، فتعاونا فى نقلها إلى غرفة المونتاج . وتولت أنطوانيت تثبيت شريطى الصوت والصورة بأصابع مدربة . ثم ناولتنى بضع ورقات بيضاء وأطفأت النور بعد أن إرتدت نظارتها . وجذبت مقعدا إلى جوارها ثم أخرجت قلمى من جيبى .

تتابعت اللقطات الأولى المعتمة والمشوهة . وظهر إسم الفيلم فوضعت سن القلم على الورقة دون أن أرفع عينى عن الشاشة الصغيرة ، وشرعت أسجل ما أراه :

لقطات عامة للطبيعة . الثلج يغطى قمة الجبل . أشجار الأرز تبرز من تحت الثلج الذائب . سفح الجبل يتغطى بخضرة سابغة . أشجار توت وتين وبرتقال . جدول ماء تحت شجرة جوز . أشعة الشمس تلتمع فوق المياه . شجيرات التبغ الصغيرة الخضراء . أوراق التبغ السمراء فوق قطع من القماش على حافة طريق . إلى جوارها مزارعون فى ملابس بيضاء وسراويل منتفخة . رعاة ماعز . راديو ترانزستور فوق حمار . فيروز تغنى : يا طير الوروار .

الطريق يمتد صاعدا إلى قصر كبير فوق ربوة . فى شرفة واسعة جلس « البك » فى ملابس ريفية وفوق رأسه طربوش قصير مائل . على مقربة عدد من « القبضايات » ينتظرون أوامره .

الطريق يخترق قرية . حوارى ترابية وبيوت واطئة . أمام أحدها تربع عجوز فوق مصطبة

حجرية يدخن « الأرجيلة » . متجر به عدة موائد خشبية يلعب حولها عدد من الصبية لعبة مثل الفليبرز .

القرية بالليل . شبان صغار فى قمصان وبنطلونات يطوفون بطرقاتها حاملين مصابيح اللوكس وهم يهتفون : بدنا الوحدة باكر باكر مع ها الأسمر عبد الناصر .

فيروز تغنى : « حبيتك بالصيف ، حبيتك بالشتى » .

فيروز فى أغنية أخرى تتميز بإيقاع سريع ، غربى .

كانت باللهجة اللبنانية فلم أتمكن من تمييز كلماتها . وأشرت إلى أنطوانيت أن تعود إليها ، فأوقفت العرض . ومدت يدها إلى طارة متصلة بمحور المافيولا ، فحركتها ببطء ، وعاد الفيلم إلى الوراء .

بدت لى الأغنية مألوفة ، لكنى عجزت مرة أخرى عن تمييز كلماتها . وأدركت بعد لحظة ما إجتذب انتباهى اليها . فقد كانت الموسيقى لأغنية أوروبية شائعة . وبدا مزيج العامية اللبنانية والموسيقى الغربية الراقصة غريبا .

أوضحت انطوانيت :
ــ الأغنية إسمها « كان زمان » .
أومأت برأسى فأدارت الفيلم ، وإستأنفت التسجيل :

شارع الحمرا فى بيروت . الواجهات الزجاجية الأنيقة . اللافتات البارزة بعرض الأفريز . السيارات الفارهة المسرعة . الأنوار المتلألئة . متاجر المجوهرات والفليبرز . معاطف الفيزون . دور السينما الفخمة . المينى جيب والميدى والماكسى . أنوار خافتة حمراء فى الشوارع الجانبية . مقهى الدولشى فيتا . مقاهى متناثرة على البحر حتى صخرة الروشة . زحام كيوم الحشر . الغطرة الخليجية والجلاليب البيضاء . فتيات شقراوات شبه عاريات فى إستعراض فوق خشبة مسرح .

ملصق يملأ فراغ الشاشة يحمل هذه الكلمات :

كازينو لبنان السياحى
يقدم كل مساء
أفخر المزات وأطيب المأكولات الشرقية
إستعداد تام لتلبية كافة الطلبات

ملصق آخر :

لبنان واحة الحرية

صوت فيروز الملائكى : « زورونى كل سنة مرة ، حرام تنسونى بالمرة » .

مطار بيروت . طائرة قادمة من أفريقيا يغادرها خليط من الأفارقة واللبنانيين . لبنانى ممتلىء الجسم فى بزة بيضاء ، أصلع الرأس . يتدلى بطنه فوق بنطلونه داخل قميص من الحرير الأبيض . سوالفه تصل إلى منتصف وجنتيه . يحمل حقيبة سامسونايت . يتابع فى لهفة وقلق نقل صندوق كبير من الكرتون إلى خارج المطار .

قاعدة معدنية ترتفع عن الأرض قرابة المتر . تدور حول نفسها حاملة نماذج ضخمة من الأجهزة الكهربائية : ثلاجة وستنجهاوس ، عصارة مولينكس ، مكنسة هوفر .

سيارة حديثة خالية تدور حول نفسها فوق الحامل .

صوت رجل فى لهجة مسرحية وإلقاء سريع : « إستمتع بالحياة اللذيذة مع السيارة الجديدة الرياضية . خمس سرعات . كمبيوتر لترشيد الرحلة وإستهلاك الوقود وإختبار المحرك . مع ساعة رقمية وفتحة بالسقف وراديو كاسيت » .

شاب فى ملابس أوروبية حديثة . شعره غزير وناعم ، مصفف بعناية . يشبه الشبان الأوروبيين فى كل شىء . يجلس على نفس الحامل الدائرى ، ويدور معه بسرعة حول نفسه . يتوقف الحامل فجأة جاعلا الشاب فى مواجهة الكاميرا . يمد يده إلى ياقة سترته ليرينا علامتها التجارية وهو يبتسم فى فخر .

واجهة صالة لبيع المفروشات . سيدة متوسطة العمر فى معطف متواضع . رأسها مغطى بمنديل ملون ، إنعقد طرفاه أسفل ذقنها . تلصق وجهها بالزجاج لتتأمل المعروضات . عيناها تنتقل بين مطبخ « ستينليس ستيل » وأنواع الموكيتات ، وكنبات « لوى كاتورز » .

سيدات مثل السيدة السابقة يقلبن بأيديهن بين أكوام من الملابس المختلفة وضعت فوق عربات خشبية فى ساحة البرج .

أكواخ متجاورة من الصفيح . الأرض قذرة بها آثار مياه مستخدمة . أطفال فى ملابس متواضعة يحملون أوانى من البلاستيك الملون فوق رؤوسهم . الأوانى مليئة بالمياه التى يجلبونها من صنبور عام إلى كل كوخ .

إمرأة تغسل ملابس فى بركة مياه منسابة من حطام ماسورة .

صور جمال عبد الناصر فوق جدران الأكواخ .

صوت فيروز : « نطرتك بالصيف ، نطرتك بالشتى » .

قصر فاخر تحيط به حديقة واسعة تغمرها الأضواء . مجموعات من الرجال والنساء فى ملابس السهرة . الموسيقى الراقصة التى إستخدمت فى أغنية فيروز « كان زمان » .

اعلان يغطى الشاشة :

إمعاء الخروف هى أكل الكلاب المفضل . وقد أعددناها
لكم بعدة طرق تلائم الأمزجة المتنوعة

الحمرا ليلا . فتاة فى جينز أبيض تعبر الشارع . الكاميرا تركز على فخديها تقترب منها . البنطلون ضيق للغاية . الكاميرا تقترب من أعلى فخذيها . تتضح تفاصيل جسمها : الجوانب الممتلئة والشق فى المنتصف .

واجهة زجاجية لمتجر ملابس . تماثيل متقنة الصنع لنساء فاتنات فى ملابس داخلية شفافة وملونة . عدد من الشبان يحدقون فى المعروضات . الشبان يرتدون قمصانا مزركشة وأحذية ذات كعوب عالية . سوالفهم طويلة . هيأتهم العامة توحى بأنهم من العمال أو الفقراء عموما .

شاشة تليفزيون ملون يظهر عليها إعلان عن كيلوتات رجالية . يرتديها شبان ذوو أجسام ناعمة تخلو من الشعر .

اعلان آخر عن كريم جديد للرجال . عنوان يملأ الشاشة :

اعتن ببشرتك كما تعتن بسيارتك

عدد من الشبان تحلقوا حول كتب ومجلات مفروشة على إفريز الشارع . جريدة فى حجم نصف الصحيفة اليومية تتصدرها صورة كبيرة لفتاة شبه عاريه . تظهر من مانشيت الصفحة كلمة « اغتصاب » .

أزقة متعرجة تمر بالأسواق القديمة ذات الطابع العثمانى . كما تؤدى إلى حى الدعارة . ساحة الشهداء . مواقف سيارات السرفيس المرسيدس المتجهة الى طرابلس وعمان وحلب . ساحة البرج فى المساء . زحام أمام واجهات متواضعة لمتاجر ملابس وأحذية . مطاعم الفلافل والحلوى . تلال « المعمول » و« البرازق » ، وصوانى البقلاوة ، خلف الواجهات الزجاجية . الزحام مضاعف أمام مدخل ضيق لأحدى دور السينما . لافتة عريضة تحمل صورة شبه عارية للنجمة الأمريكية « راكيل والش » .

داخل السينما أثناء العرض . سحب كثيفة من دخان السجاير . راكيل والش على الشاشة فى أسمال بالية تكشف فخذيها . صيحات وصفير من القاعة .

جانب من أخبار الجرائم والحوادث فى صحيفة يومية :

جريمة برج حمود
حملت بدرية محمد طه سفاحا من شخص مجهول
والتجأت إلى دير الراعى الصالح حيث وضعت طفلا .
ومنذ شهر ونصف أخذها أهلها بعد أن تعهدوا إلى
النيابة العامة بعدم إيذائها . وقبل عشرة أيام زوجوها إلى
كامل كرم طه ، وهو عامل سابق فى بلدية بيروت ، فأحضرها
إلى العاصمة وأقاما فى منزله بمحلة برج حمود . وبعد
خمسة أيام عثر عليها مقتولة إثر إصابتها بطلقتين ناريتين
فى رأسها وصدرها إنطلقا من مسافة قريبة . وإختفى
الزوج عن الأنظار .

الاعتـــداء على طفلة

إستدرج وديع « ز » (١٧ سنة) الطفلة رجاء إلى غرفته الخاصة وإنتزع عنها ثيابها ثم حاول الاعتداء عليها .

شارع الحمرا بالنهار . محلات الويمپى . الموفنبيك . الهورس شو . المودكا . كافى دى لا پيه . مظاهرة وسط الشارع من شبان فى ملابس أنيقة . المظاهرة ترفع لافتات باللغتين الانجليزية والفرنسية تحمل شعارات يسارية تدافع عن الطبقات الشعبية .

ملصقات وشعارات حماسية على الجدران .

رسم بالزيت على أحد الجدران لصورة جمال عبد الناصر وتحتها عبارته الشهيرة : « ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة » .

عدد من الشبان يحيطون بواحد منهم جلس إلى مائدة فى مواجهة الكاميرا . الشاب يرتدى قميصا مفتوحا يكشف عن شعر غزير وسلسلة ذهبية . يتحدث فى ميكروفون بلهجة نارية : « إن التحرك الامبريالى الصهيونى فى المنطقة العربية بات يشكل تهديدا خطيرا ومباشرا لمكاسب الثورة العربية وجماهيرها الصامدة وتطلعاتها القومية الاشتراكية الديموقراطية التقدمية الوحدوية ... »

فيروز فى المقطع الحماسى الأخير من أغنية « زهرة المدائن » :

« الغضب الساطع آت
الغضب الساطع آت وأنا كلى إيمان
من كل طريق آت . »

صف من أجهزة التليفزيون والفيديو وغيرها . شاب أنيق يبتسم للكاميرا يشير بيده إلى الأجهزة : « أكثر من أربعين لعبة فيديو كلها إثارة وتشويق » .

إعلان آخر عن أجهزة مماثلة فوق شاشة التليفزيون . صوت من وراء الشاشة : « الآن ! عالم جديد من المشاهدة الملونة الثلاثية . شاهد وسجل أشرطة الفيديو على مدى خمس ساعات ! إبحث عن الصورة التى تريدها وثبتها وتحكم فى الجهاز كله وأنت جالس على مبعدة ! »

ملصق يحمل هذه الكلمات فوق خلفية من قمم جبلية تغطيها الثلوج :

لبنان
أرض الترحيب والتسامح
ملتقى الحضارات

شبان فى ملابس عسكرية سوداء وقبعات كبيرة من نفس اللون يسيرون بخطوات منتظمة فى أحد الشوارع وهم يصيحون : « هان دوى ، هان دوى » (أى واحد إثنين بفرنسية الشارع اللبنانى) .

ملصقات من أحجام مختلفة تحمل صورا فوتوغرافية لزعماء لبنان .

عنوان يملأ الشاشة :

أمراء لبنان

صوت فيروز فى أغنية « يا أنا أنا وياك » . ملحوظة لى : (موسيقى الأغنية مقتبسة عن سيمفونية لموتسارت) .

الكاميرا تمر بصور كميل شمعون ، سليمان فرنجية ، بيار الجميل ، الأباتى شربل قسيس ، البطريرك خريش ، ريمون إدة ، صائب سلام ، المفتى حسن خالد ، كامل الأسعد ، الامام موسى الصدر ، رشيد كرامى ، إلياس سركيس .

تتوقف الكاميرا عند صورة كمال جنبلاط .

عنوان :

ورث كمال جنبلاط عن والديه نفوذا إقطاعيا ودينيا كبيرا على طائفة الدروز . إلا أن ثقافته الواسعة ورحلاته قادته إلى غاندى وماركس . أصبح صوفيا متعبدا يمارس اليوجا ولا يأكل اللحم . ولم يمنعه هذا من الاشتراك بنشاط فى لعبة السياسة اللبنانية ووفقا لقواعدها ، حتى وصف بصانع الرؤساء ورئيس حكومات الظل . إشتكى مرارا من أن الدروز لا يحق لهم — طبقا لاتفاق التوازن الطائفى — الوصول إلى أكثر من منصب وزير . كون الحزب الاشتراكى التقدمى . قبل خروجه من منصبه كوزير للداخلية فى أوائل السبعينات رخص للحزب الشيوعى بالعمل العلنى . نال جائزة لينين للسلام . فى سنواته الأخيره تزعم أولاد الشوارع ضد أبناء العائلات .

مائدة مستدير يتحلق حولها زعماء التنظيمات الناصرية والبعثية والشيوعية ، يتوسطهم كمال جنبلاط . بين الجالسين جورج حاوى ، محسن ابراهيم ، ابراهيم قليلات ، بشير عبيد ، انعام رعد ، كمال شاتيلا .

أغنية « مذنب » الفرنسية . موسيقى الأغنية هى التى أقتبست منها أغنية فيروز الشهيرة « حبيتك فى الصيف » .

مدينة النبطية فى الجنوب . مهرجان دينى فى ذكرى عاشوراء ، التى يحتفل بها الشيعة فى العاشر من شهر محرم كل عام . موكب من سيارات المرسيدس والدراجات ترفع صور الخمينى وموسى الصدر . صورة الأخير تحمل هذه الكلمات : « دورى محدد من الله ومن تاريخ وطنى ودينى وأمتى . » فوق سيارة المقدمة جلس شابان أحدهما فى قميص أبيض يحمل هذه العبارة : « لبيك يا حسين » . الآخر فى قميص أسود نقشت عليه عبارة « الله أكبر » . حول رأس كل منهما عصابة سوداء تكاد تخفى عيونهما .

ساحة وسط المدينة . عشرات الشبان يهوون بأكفهم فوق رؤوسهم المحلوقة على صورة دائرية . بعضهم يستخدم جوانب السيوف بدلا من الأيدى ويواصل لطم الرؤوس حتى تنبثق منها الدماء . (التقليد يعبر عن ندم الشيعة عن موقف أسلافهم منذ أكثر من ألف سنة ، عندما تخلوا عن الحسين ، إبن الامام على ، وتركوه يذبح على يد أعدائه .)

إبتهالات دينية لاتينية .

داخل كنيسة مهجورة خافتة الضوء . قسيس يصعد المنبر ويفتح الكتاب المقدس . يتلو : « يا ليت لى فى البرية مبيت مسافرين فأترك شعبى وأنطلق من عندهم لأنهم جميعا زناة ، جماعة خائنين . »

داخل قفص إتهام فى محكمة . قسيس ينهض واقفا . القضاة يجلسون أسفل نجمة داوود .

عنوان :

فى أغسطس (آب) ١٩٧٤ ، إعتقلت إسرائيل المطران كبوجى ، زعيم الطائفة المسيحية فى القدس ، بتهمة الانتماء إلى منظمة « فتح » ، وتهريب الأسلحة للفدائيين . وحكم عليه بالسجن إثنى عشر عاما .

كبوجى يعلن من داخل القفص : « قوميتى هى الأساس لمسيحيتى . وما لم أكن عربيا حتى اللدم فلست مسيحيا » .

ميناء حيفا فى الأربعينات . سفينة أوروبية إحتشد فوقها المهاجرون اليهود تقترب من الشاطىء وترسو بجواره .

عنوان :

« مصلحتنا فى أن تكون فى المنطقة دول طائفية عدة لتبرر وجود إسرائيل . »

بن جوريون

الشاشة تنقسم إلى أربعة أقسام . فى كل قسم تتتابع لقطات خاصة بمشهد مستقل . اللقطات جميعا تمثل الدبابات والطائرات الاسرائيلية أثناء القتال . أحد الأقسام يعود إلى تاريخ قديم ويبدو فيه الجنود الاسرائيليون وهم يهاجمون منازل قرية فلسطينية بالسلاح الأبيض . فى قسم آخر تبدو شوارع بورسعيد بعد تدميرها سنة ١٩٥٦ . فى قسم ثالث الطائرات الاسرائيلية تغير على أطلال مدينة السويس ١٩٦٧ . القسم الرابع يمثل الهجوم الاسرائيلى على مدينة القنيطرة السورية ١٩٧٣ .

عنوان :

« لن يكون هناك سلام .... وستستمر الحرب بيننا وبين العرب حتى ولو وقعوا معنا معاهدة صلح . »

مناحم بيجين

حقل ممتد . حافة طريق زراعى . أسرة عربية تخطو فى بطء . الأسرة مكونة من نساء وأطفال ولا يوجد بينها رجال . الجميع يحملون لفائف وأغراضا مختلفة . يتطلعون إلى الأفق فى وجل .

صوت مذيع البرنامج الفلسطينى الذى يذاع منذ ثلاثين عاما : « ... يطمئن الأهل أنه بخير ويطلب منهم تطمينه . نحن بخير طمنونا عنكم » .

عنوان :

« اليهودى عندما يذبح فلسطينيا أو عربيا يتخلص من مخاوفه ويصبح جديرا بحمل رمز الذكورة . »

مناحم بيجين

أشلاء أسرة عربية كانت تلعب الورق . طفل قتيل مازال يمسك بورقة لعب فى يده . شظايا القذيفة التى سقطت عليهم تختلط ببقايا الأجسام وبقع الدماء . ملابس داخلية لطفل معلقة على حبل . باب الثلاجة مفتوح .

عنوان :

« إن قلوبكم أيها الاسرائيليون لا يجب أن تتألم وأنتم تقتلون عدوكم ، ولا ينبغى أن تأخذكم بهم شفقة طالما أننا بعد لم نقض على ما يسمى بالحضارة العربية التى سوف نبنى حضارتنا الخاصة على أنقاضها . »

مناحم بيجين

صورة تذكارية من مذبحة دير ياسين سنة ١٩٤٨ . فى طرف الصورة مجموعة من اليهود الأوروبيين كما يتضح من ملامحهم وملابسهم . يتطلعون فى بهجة ظاهرة إلى جندى من عصابات الأرجون زفاى الصهيونية وهو يحمل فوق السلاح الأبيض لبندقيته رأسا عربية يسيل منها الدم . فى الطرف الأخر من الصورة سيارة شحن عسكرية تقل مجموعة من النساء العربيات العاريات المقيدات بالحبال .

عنوان :

« انى أومن بتفوقنا الخلقى والفكرى بحيث يستخدم نموذجا لاصلاح الجنس العربى . »

بن جوريـون

جامعة بيروت العربية . قاعة جمال عبد الناصر الضخمة وقد غصت بالحاضرين . فى الصف الأول أمام المنصة جلس كمال جنبلاط وزعماء الأحزاب الوطنية والتقدمية اللبنانية والمنظمات الفلسطينية . ياسر عرفات يتقدم من المنصة فى نشاط . يستدير إلى الحاضرين بوجه متهلل . الجميع يقفون ويصفقون طويلا .

عنوان :

ياسر عرفات أو أبو عمار ، زعيم منظمة « فتح » ، كبرى المنظمات التى تتكون منها منظمة التحرير الفلسطينية ، والأمين العام للمنظمة الأخيرة ، والقائد العام لقوات الثورة الفلسطينية ، كما يلقب فى النشرات الرسمية ، و« الاختيار » أى العجوز كما يناديه أعوانه .

ياسر عرفات فى حديث إلى الصحفيين : « لا نطلب إلا أن يؤمن ظهرنا ، ولا يساوم بنا أو علينا » .

صورة تذكارية لفيروز وعاصى الرحبانى فى شهر العسل بالقاهرة سنة ١٩٥٥

عنوان :

طوال الحرب الأهلية ، كان القتال يتوقف تماما فى الساعة السابعة من مساء كل يوم ،

ليستمع كل اللبنانيين إلى برنامج زياد الرحبانى ، إبن فيروز ، من الاذاعة اللبنانية .

صوت زياد : « بعدنا طيبين » .

زياد بوجهه النحيف السقيم ، يرتدى بيجامة مخططة ، ويتحرك فوق خشبة مسرح . فوق مدخل المسرح لافتة تعلن عن المسرحية التى ألفها وإشترك فى تمثيلها :

فيلم أميركى طويل

عنوان يملأ الشاشة :

ماذا حدث للبنان ؟

يظل العنوان ثابتا بينما تتتابع على جانبيه أسماء العاملين فى إنتاج الفيلم .

★ ★ ★

رفعت أنطوانيت يدها عن طارة المافيولا ، فتوقف العرض . خلعت نظارتها ، وأراحت ساعديها على سطح المائدة وهى تتطلع إلى باسمة فى الضوء الضعيف . ثم نهضت فى حركة سريعة ومضت إلى مفتاح النور فأدارته .

تطلعت إلى ساعتى فوجدتها تقارب الثامنة . قلت وأنا أتأمل شريطى الفيلم اللذين تجمعا فى أكوام متداخلة داخل صندوق من القماش بجوار المافيولا :

ــ إستغرقت منا المقدمة ساعتين ونصف تقريبا . بهذا المعدل يمكن أن أنتهى من تفريغ جميع اللقطات فى أقل من أسبوع .

عادت إلى مكانها بجوارى وقالت :

ــ وأسبوع آخر لكتابة التعليق ؟ أليس كذلك ؟

قلت :

ــ تقريبا .

قالت :

ــ هل يزعجك هذا ؟

وإبتسمت فى خبث .

قلت :

ــ أبدا .

إنهمكت فى لف شريطى الفيلم وإعادة كل منهما إلى علبته بينما أشعلت سيجارة . وعندما إنتهت عاونتها فى حمل العلب إلى غرفتها . وتركتنى لحظة ريثما أحضرت سترة صوفية وحقيبة يدها .

سألتنى وهى تخرج مفتاحا من الحقيبة :

ــ أين أنت ذاهب الآن ؟

قلت :

ــ إلى المنزل .

قالت وهى تتقدمنى إلى خارج الغرفة ، وتغلق بابها بالمفتاح وراءنا :

ــ وأنا أيضا .

سألتها :

ــ أين تسكنين ؟

قالت :

ــ فى المنطقة الشرقية .

تطلعت إليها مبهوتا فضحكت قائلة :

ــ إستغربت ؟

ــ يعنى تعودين إلى هناك فى المساء وتأتين فى الصباح ؟

قالت ونحن نخرج إلى الشارع الذى حفل بالأضواء والمارة :

ــ لا تنس أنها مدينة واحدة . أثناء الحرب كنت آتى أيضا إلى هنا كل يوم . أترك أهلى فى بلوزة وجيبة أو فستان ، وبمجرد وصولى ألبس الأوفرول العسكرى وأحمل الكلاشينكوف . وبالليل أغير ملابسى قبل أن أعود إلى أهلى .

ــ هل هم .. ؟

ــ أجل . موارنة متعصبون .

ــ أنت مثل زياد الرحبانى إذن ؟

ــ زياد كان متمردا على أمه .

ــ وأنت ؟

ــ أنا متمردة على الوضع كله .

فتحت حقيبة يدها وأخرجت سيجارة . وحانت منى نظرة إلى محتوياتها فلمحت فوهة مسدس صغير الحجم .

أشعلت لها سيجارة ، وأشعلت واحدة لى . وتقدمنا من سيارة فولكس فاجن قديمة .

سألتنى فجأة :

ــ هل تعرف وديع من مدة ؟

قلت :

ــ كنا فى المدرسة معا .

عادت تلح فى السؤال :

ــ هل تعرفه جيدا ؟

حرت فى الإجابة . وجذبت هى باب السيارة وهى تقول :

ــ إركب معى . سأوصلك .

(٩)

كان الطلق النارى قريبا للغاية ومفاجئا حتى أوشكت كأس الويسكى أن تقع من يدى . وكنت جالسا فى الصالة مع وديع نشاهد فيلما فرنسيا فى التليفزيون .

قال وديع دون أن يرفع عينيه عن التليفزيون :

ــ الطابق الأعلى فى الغالب .

وضعت كأسى على الطاولة وأنا أتساءل :

ــ ماذا تظن ؟

هز كتفه وأجاب :

ــ أى شىء .

نهضت واقفا ومضيت إلى الشرفة فجذبت بابها . وخطوت إلى الخارج فلفح الهواء البارد وجهى . ووقفت أتأمل الشارع الهادىء الغارق فى الظلام . وألقيت نظرة على ساعتى فوجدتها تشير إلى منتصف الليل .

شعرت بوديع خلفى وسمعته يقول بصوت خافت :

ــ أفضل شىء فى هذه الظروف ألا نفعل شيئا على الاطلاق .

إستدرت عائدا إلى الداخل ، فتبعنى وهو يضيف :

ــ ليست هذه أول مرة ولن تكون الأخيرة . منذ شهرين فقط دق ثلاثة من المسلحين باب المسكن الذى يجاورنى مباشرة . وعندما فتحه شاغله أطلقوا عليه الرصاص . كان من الشيوعيين العراقيين .

أشعلت سيجارة وسألت :

ــ وهم ؟

قال :

ــ مخابرات عراقية .

ــ قتلوه وإنصرفوا هكذا ؟

ــ كان القتيل فى حماية أبو عمار . فقد تجنبه الشيوعيون اللبنانيون حرصا على علاقتهم بصدام حسين . وعندما علم أبو عمار بالحادث أصدر أمره الى جهاز أمن « فتح » ، فقام باعتقال عشرات من عملاء البعث العراقى . ثم سوى الأمر فيما بعد بين جميع الأطراف كالعادة .

تعالى صوت سيارة مسرعة فى الطريق . وتوقف الصوت أمام منزلنا . وإرتفع صوت حوار بين عدة أشخاص . تباعد صوت المتحاورين ثم تردد خافتا بعد قليل وإنقطع . ودوى طرق على الأبواب فى الطابق الذى تحتنا . ثم ساد الصمت .

كان وديع قد خفض من صوت التليفزيون ، فأوشكت أن أعيده إلى ما كان عليه عندما إقترب وقع خطوات ثقيلة من باب المسكن ودق الجرس .

شحب وجه وديع ثم قام وخطا نحو الباب وصاح :

ــ مين ؟

جاءنا صوت أبو شاكر :

ـــ أنا يا أستاذ وديع . فى إخوان من جماعة الـ ١٧ .

همس لى وديع :

ـــ أمن « فتح » .

أدار وديع مفتاح الباب ، وجذب مصراعه فى تردد كاشفا عن حارس البناية وفى رفقته شابين مسلحين برشاشات الكلاشينكوف . كان أحدهما متوسط الطول فى العشرينات تبدو عليه علامات الارتباك بعكس زميله الذى كان يكبره فى السن وينم مظهره عن خبرة ونفوذ واضحين .

تساءل الأخير فى دماثة عن صاحب المسكن ، فقدم وديع نفسه ، وأخرجت جواز سفرى . سأل وهو ينقل البصر بين وجهينا :

ـــ سمعتما الرصاص ؟

قال وديع :

ـــ سمعنا رصاصة واحدة ونحن جالسون هنا .

ـــ ولم تعرفا من أين إنطلقت ؟

هز وديع رأسه نفيا فطلب الشاب أن يلقى نظرة على المسكن . تنحى وديع عن الباب وصحبناه إلى غرفتى فألقى نظرة على محتوياتها دون أن يمس شيئا . ثم إنتقلنا إلى غرفة وديع .

كان المسدس مازال فى مكانه فوق الكومودينو المجاور للفراش . لمحه الشاب فالتقطه وقرب فوهته من أنفه ثم حمله فى يده إلى الصالة . وأخرج دفترا صغيرا من جيبه فدون به علامات المسدس وتركه على الطاولة . ثم إنتزع ورقة بيضاء من دفتره ، وسجل عليها عدة أرقام وناولها لوديع قائلا :

ـــ أرجو أن تتصل بأحد هذه الأرقام إذا عرفت شيئا .

تناول وديع الورقة وهو يقول :

ـــ أنا أعرف الرقم . سأفعل .

أعرب الشابان عن أسفهما لازعاجنا ، وغادرا المسكن فانضما إلى أبو شاكر الذى سبقهما إلى باب المسكن المجاور .

أغلق وديع الباب بينما كنت أملأ لنفسي كأسا من الويسكي .

قال وهو يرتمي في أحد المقاعد :
ــ إملأ لي واحدة أنا الآخر .

ملأت له كأسه ، وناولتها له فرفعها إلى شفتيه ثم أعادها إلى الطاولة وهو يقول :
ــ تذكرت . لقد قابلت هذا المسلح قبل الآن . كان وقتها في الجبهة الشعبية .

تساءلت : ولماذا تركها إلى « فتح » ؟

هز كتفيه قائلا :
ــ من يعلم ؟ ربما تشاجر مع رؤسائه ، أو إختلف معهم فكريا ، أو إرتكب خطأ ما وأرادوا معاقبته . وقد يكون الراتب هو السبب . ففتح تدفع أكثر لمقاتليها .

مددت يدي إلى المسدس فتناولته وقلبته في حذر قائلا :
ــ هل تعرف أن هذه هي أول مرة في حياتي أمسك بمسدس حقيقي ؟ لكنني تدربت جيدا على البنادق الروسية أيام العدوان الثلاثي . كان يدربنا جندي عجوز . وكان يتعمد أن يتشدد معنا بسبب آرائنا . وعندما دخلنا السجن نقا. إليه . صدفة على ما أعتقد . وكان يستمتع بالاشراف على تعذيبنا . ثم [illegible] أمامه ويأمرنا بأن نجلس القرفصاء ونهتف بحياة جمال عبد الناصر . كأنما الهتاف لعبد الناصر يتطلب كل هذا العناء .

أعدت المسدس إلى مكانه . وحانت مني نظرة إلى جهاز التليفزيون ، فرأيت أن الفيلم إنتهى ، وأن المذيع يقرأ نشرة الأخبار الأخيرة . فرفعت درجة صوته .

كان الموقف في بيروت هادئا . وعلى العكس من ذلك كان الوضع في الخليج . فقد إستأنفت القوات العراقية والايرانية تدمير المنشئات البترولية في البلدين . وبلغ عدد لاجئي الحرب من الطرفين أكثر من مليون لاجيء .

كان النبأ الأخير من مصر ، ومؤداه أن إحدى طائرات النقل الأمريكية ، تحطمت في الساعات الأولى من الصباح ، أثناء هبوطها في قاعدة غرب القاهرة الجوية ضمن تدريبات قوات الانتشار السريع . ولقي ١٣ عسكريا أمريكيا مصرعهم .

شعرت بشيء من النشوة ، فملأت لنفسى كأسا جديدة .

قال وديع وهو يرتشف من كأسه ببطء :

ــ أنت تشرب كثيرا .

أغلقت التليفزيون وقلت :

ــ لأتمكن من النوم .

ــ أعطيك قرص فاليوم .

ــ انه يجعلنى كالمسطول فى الصباح . وأنت تعرف أنى محتاج لكل ذرة إنتباه تسجيل اللقطات .

علت شفتيه إبتسامة ماكرة وقال :

ــ أراك صرت متحمسا للفيلم . على العموم أنطوانيت فتاة هائلة .

ــ ماذا تعنى ؟

ــ أقصد أنها غير معقدة . تذهب إلى الفراش بسرعة .

أشعلت سيجارة وإقتربت من رف الكتب وأنا أقول :

ــ هذا عكس ما أريده تماما . فأنا أذهب إلى الفراش ببطء .

قلبت بين الكتب القليلة ، وإلتقطت كتابا قديما لكولن ويلسون .

قال :

ــ إقرأه . إنه يزعم أن إطالة مدة القذف ستحقق السعادة الأبدية للبشر .

أعدت الكتاب إلى مكانه وتناولت غيره قائلا :

ــ هذه ليست مشكلتى .

ــ ماهى مشكلتك إذن ؟

تجمدت يدى على الكتاب وفكرت بتركيز . ما هى مشكلتى فعلا ؟ سألته :

ــ ماذا تشعر أثناء القذف ؟

قال :

ــ أحيانا أجأر من اللذة .

قلت :

ـ يا بختك .

تناولت مفكرتى وعلبة سجائرى من فوق الطاولة وأنا أقول :

ـ سأحاول النوم . تصبح على خير .

مضيت إلى غرفتى ، فخلعت ملابسى وإستلقيت على الفراش . ثبت عيناى على السقف وفكرت فى زوجتى السابقة . ثم فى أول فتاة أحببتها ، أو بمعنى أصح ، أحببناها . فقد كنت أنا ووديع ، وإثنان آخران من أصدقائنا نحبها فى وقت واحد . كان ذلك فى الجامعة ، فى بداية الخمسينات ، عندما كان الأغنياء والفرسان هم وحدهم الذين يستطيعون كسر الحواجز الخفية القائمة بين الجنسين . كنا نحيط بها طول الوقت ونتمشى معها ساعات طويلة . وعندما تنخفض درجة الحرارة ، كنا نلعب لعبة تدفئة الأيدى ، فتضع يدها اليمنى فى جيبى الأيسر ، ويدها اليسرى فى جيب وديع الأيمن .

تذكرت أيضا أول مرة إستمنيت فيها ، والمرة التى شربنا فيها أنا ووديع زجاجة نبيذ ، وإستمنى كل منا أمام الأخر . وتذكرت أول فتاة نمت معها . وكنت أنا ووديع وثالث من مجموعة تدفئة الأيدى ، قد نجحنا فى إدخار جنيهين ، فالتقطناها من مكان مظلم على شاطىء النيل ، هو نفسه الذى يقوم عليه الان قصر أنور السادات وفندق الشيراتون . وذهبنا بها عند أحد أصدقائنا . وعندما جاء دورى وجدتها غارقة فى نوم عميق . وأيقظتها ثم لم أدر ماذا أفعل ، فأرقدتنى على ظهرى وركبتنى . ولم يستغرق الأمر غير ثوان ، لم أشعر خلالها بشىء سوى أنى أحدثت قدرا كبيرا من البلل . وعندما غادرت الغرفة كانت قد إستأنفت النوم وعاد شخيرها يتردد فى إنتظام .

(١٠)

لم تذكر صحف الصباح شيئا عن حادث الطلق النارى . وبينما كنا نتناول إفطارنا ، دق أبو شاكر الباب ليبلغنا أن الرصاصة إنطلقت على سبيل الخطأ أثناء تنظيف مسدس بأحد مساكن الطابق الأخير .

عكفت على تنظيف بزتى الزرقاء الداكنة بالفرشاة ، ثم كويت القميص الذى غسلته بالأمس . ودعكت حذائى بقطعة من القماش وجدتها فى المطبخ . وأخيرا علقت حقيبتى فى كتفى ، وإنطلقت خلف وديع .

أقلتنا سيارة أجرة إلى منطقة « عين المريسة » القريبة من نقاط التماس مع المنطقة الشرقية . وطلب وديع من السائق التوقف أمام مبنى حديث تبدو آثار الحريق فى مدخله . فغادرت السيارة التى كرت عائدة بوديع إلى مكتبه .

كانت آثار الحريق تمتد إلى متجر لمبيع السجاير والحلوى ، تتصاعد منه رائحة البن المنعشة ، وتتصدر مدخله مجموعة من الأوانى الزجاجية الكروية الشكل والمتماثلة الحجم ، تضم أنواع البندق واللوز المقشور ، والفستق الحلبى الشهير .

إعترضنى شابان مسلحان فى مدخل المبنى ، أصرا على تفتيش حقيبة يدى ، والاتصال من تليفون أمامهما بمكتب لميا قبل أن يسمحا لى بالصعود .

إرتقيت درجات قليلة إلى كشك المصعد . ولم يكن موجودا ففضلت أن أواصل صعود الدرج الذى ظهرت آثار الانفجار على جدرانه . وعندما بلغت الطابق الثانى ، رأيت لافتة « دار الثقافة » فوق باب مفتوح ، إنتصب أمامه حامل معدنى . وكان هناك عامل فوق قمة الحامل ، عكف على إضافة طبقات من خليط إسمنتى إلى السقف .

كان هناك عامل آخر بالداخل يطلى الجدارن ، يراقبه رجل طويل القامة بصورة غير مألوفة ، يتدلى مسدس من خاصرته . ولم يسمح لى بالمرور إلا بعد أن اطلع على جواز سفرى وتولى تفتيشى . ثم أسلمنى الى سكرتيرة ممتلئة الجسم ضاحكة الوجه ،

أرشدتنى إلى غرفة فى أقصى ممر على يمين المدخل .

طرقت الباب ودخلت ، فطالعتنى عينا لميا الواسعتان . كانت تجلس خلف مكتب معدنى فى صدر غرفة رحبة . نهضت باسمة ، ودارت حول مكتبها ثم مدت يدها لى فتصافحنا . وإحتفظت بيدى فى يد رخصة ، وهى تقودنى إلى كنبتين صغيرتين متعامدتين فى ركن الغرفة ، إستقرت بينهما طاولة زجاجية صغيرة . فجلس كل منا على واحدة .

كانت ترتدى رداء أخضر اللون ، يتألف من بلوزة ذات كمين قصيرين ، وجوب على شكل البنطلون القصير . وملأت عينى من بشرتها الموردة وشفتيها الممتلئتين الناعمتين .

خاطبتنى فى صوت رقيق :
ــ كيفك أستاذ .
قلت :
ــ منيح .
قالت :
ــ نحن نحب اللهجة المصرية ونفهمها بسهولة . فلا تتعب نفسك فى تقليد لهجتنا .

قلت وأنا أستخرج من حقيبتى المظروف الذى يضم نسخة من مخطوطة كتابى :
ــ ماذا أفعل إذا كنت قد أحببت اللهجة اللبنانية ؟

تناولت منى المظروف بأصابع مستقيمة ذات أظافر طويلة مصبوغة بلون بشرتها ، ووضعته على الطاولة قائلة :
ــ ماذا تشرب ؟ قهوة أم شيء بارد ؟
ــ قهوة .
ــ مرة أم على الطريقة المصرية ؟
قلت وعيناى على شفتيها :
ــ كما ستشربينها أنت .

نهضت واقفة فى حركة رشيقة . ومضت إلى مكتبها فانحنت فوقه معطية ظهرها لى . ضغطت زر جهاز ديكتافون ، وتحدثت فيه بصوت شبه هامس .

لم أرفع عينى عن ردفيها المشدودين المتناسقين . وإلتقت عيوننا عندما إستدارت فجأة وخطت عائدة إلى الكنبة . ولمحت فى عينيها ظل إبتسامة خفيفة .

إنضمت إلى على الكنبة الملاصقة ووضعت ساقا على ساق وهى تقول :

ـــ حكى معى عدنان مرة أخرى اليوم . وهو يعتذر إليك بشدة عما سببناه لك من إزعاج . وقد فوضنى التصرف فى أمر كتابك .

ـــ أصبح مصيرى بين يديك .

ضحكت وقالت :

ـــ ليس إلى هذه الدرجة .

قلت :

ـــ هل تعرفين أننى رأيتك منذ أيام ؟

ـــ أين ؟

ـــ نسيت إسم المكان . مقهى قرب الجامعة الأمريكية . كانت معك سيدة فى فستان أسود .

ـــ آه .. هذه صديقتى .

أحضرت السكرتيرة القهوة فى صينية صغيرة من الفضة ثم إنصرفت . ورفعت فنجانى إلى شفتى وإبتلعت رشفة من القهوة المرة ، بينما كانت عيناى تجريان على ساق لميا حتى قدميها المتناسقتين ، وأظافرها الطويلة ، الممتلئة .

لحظت إتجاه نظراتى ، فحولت عينيها إلى قدميها . وفى هذه اللحظة دق جرس التليفون ، فنهضت من جديد . وسارت إلى مكتبها ثم دارت حوله بحيث واجهتنى . رفعت سماعة التليفون إلى أذنها وأنصتت لحظة ثم ضغطت زرا فى الجهاز . وقالت بنفس الصوت الهامس :

ـــ هالو .

رأيتها تقطب حاجبيها قليلا وهى تنصت دون أن تنبس بشىء . ثم غمغمت

بكلمة لم أتبينها ، وأعادت السماعة إلى مكانها فى بطء .

تشاغلتُ بالنظر إلى خزانة زجاجية إحتوت على نسخ من منشورات الدار فى مجلدات فاخرة . وخاطبتنى من خلف مكتبها وهى تومىء إلى جهاز التليفون :

ــ هذه كانت صديقتى التى تحدثنا عنها . للأسف أنا مضطرة للانصراف الآن . تحب أوصلك إلى شى مكان ؟

قلت :

ــ أنا ذاهب إلى الفاكهانى .

مالت على الديكتافون وضغطت زره ثم همست فيه بكلمتين . وجذبت حقيبة يد صغيرة من فوق المكتب ونهضت واقفة .

وضعت فنجانى فى الصينية ، وتناولت حقيبتى وأنا أنهض بدورى . وتبعتها إلى الخارج .

كانت السكرتيرة تنتظرنا وبجوارها الشاب الطويل الذى تقدمنا إلى الخارج بنشاط . خطوت نحو المصعد ، لكن لميا مدت يدها ولمست ذراعى قائلة :

ــ ننزل الدرج أحسن . تعليمات الأمن .

ــ لماذا ؟

ــ المصعد يمكن أن يكون ملغما وينفجر .

نزل الشاب أمامنا على الدرج . ومالت لميا برأسها ناحيتى فلفح عطرها أنفاسى .

قالت هامسة و هى تومىء إليه بعينيها :

ــ تعليمات الأمن أيضا ألا أذهب إلى أى مكان دون حارس .

سبقنا المرافق إلى سيارة شيفروليه حديثة الطراز ، إحتل مقعد قيادتها سائق فى بزة ذات صفين من الزراير النحاسية اللامعة ، فجذب بابها الخلفى إلى الخارج . وإنتظر حتى صعدت لميا ، فأغلقه ودار حول السيارة وأنا أسير فى أعقابه . وفتح لى الباب الاخر ، وبعد أن أغلقه خلفى ، أكمل دورته حول السيارة وإحتل المقعد المجاور للسائق .

قلت والسيارة تنطلق من أمام السفارة الأمريكية وتتجه إلى الحمرا :
ــ يمكنك أن تقرئ المخطوطة على مهل ، فسأبقى فى بيروت عشرة أيام أخرى على الأقل .

قالت مقلدة اللهجة المصرية :
ــ كويس قوى . وسأتصل بك بمجرد أن أنتهى منها .

إخترقت السيارة شوارع ضيقة مزدحمة بالمارة ، ثم توقفت أمام مؤسسة الاعلام الفلسطينى . غادرت السيارة وسرت حتى المبنى الذى يضم مكتب أنطوانيت . وبعد الاجراءات الأمنية المعتادة صعدت إلى مكتبها . ووجدتها تنتظرنى فى غرفة المونتاج وقد إنتهت من تثبيت شريطى الفيلم . أخرجت أوراق وقلمى ، وبدأنا العمل على الفور .

الفصل الأول من الفيلم

تشكيلات من طائرات حربية تحمل نجمة داوود على جوانبها . الطائرات فى طلعات متلاحقة فوق منازل متواضعة وحقول ممتدة . القنابل تنفجر وسط الحقول . المنازل تتهاوى .

عنوان :
مع الساعات الأولى من عام ١٩٧٥ ، إرتفعت حدة الاعتداءات الإسرائيلية على الجنوب اللبنانى .

دائرة حول فقرة من جريدة معاريف الاسرائيلية بتاريخ ٣١ يناير (كانون الثانى) ١٩٧٥ . مردخاى جور ، رئيس الأركان الاسرائيلى ، يعلن : « يجب خلق وضع جغرافى سياسى جديد فى المنطقة » .

بلدة شتورة اللبنانية السياحية الجميلة . الثلوج تغطى الشوارع وقمم المنازل الأنيقة . موكب الرئيس السورى حافظ الأسد يخترق شوارع البلدة . الرئيس اللبنانى سليمان فرنجية يهبط درج قصره ، ويتقدم لاستقبال الرئيس السورى .

متحدث رسمى يقرأ على الصحفيين بيانا عن اجتماع الرئيسين . البيان يؤكد إستعداد سوريا لدعم لبنان فى مواجهة الاعتداءات الاسرائيلية .

عنوان :
وفى نفس الوقت ...

كميل شمعون يقف أمام مائدة مستطيلة إلتف حولها الجالسون والواقفون . يرفع كأسا إلى شفتيه ليشرب نخب شركة « بروتين » .

عنوان :
تأسست شركة « بروتين » برساميل لبنانية وخليجية ، وقرض من شاه إيران ، ومعونة تكنولوجية من عدة شركات أجنبية . وإختار المؤسسون شمعون رئيسا للشركة ، فحصل لها من حكومة صائب سلام على إمتياز إحتكار الصيد على الشواطىء اللبنانية لمدة ٩٩ سنة .

مظاهرات إحتجاج من صائدى الأسماك والأحزاب الوطنية والتقدمية . لافتات تحمل شعارات متعددة بينها : « السمك الكبير يأكل السمك الصغير » ، « أبناؤنا الجنود للدفاع عن الجنوب » .

بلدة صيدا . مظاهرة حاشدة ترفع على الاعناق النائب الناصرى « معروف سعد » . الجيش يطلق النار على المظاهرة .

عنوان صحيفة لبنانية : « إصابة معروف سعد بطلق نارى » .

بيروت . عدة آلاف من الطلبة والطالبات الموارنة فى مظاهرة تأييد للجيش . لافتات تطالب بسحب الأسلحة من الفلسطينيين .

عنوان صحيفة لبنانية : مصرع معروف سعد .

مظاهرة هائلة ترفع صورة مجللة بالسواد لمعروف سعد .

مقر وزارة الدفاع فى بيروت . ممر هادىء طويل على جانبيه أبواب مغلقة . ضابط كبير يبرز من إحدى الغرف ويصفق الباب خلفه بشدة .

عنوان :
رفض الجيش أن يسلم للمحاكمة الجندى الذى قتل معروف سعد ، وضابط المخابرات الذى أعطاه الأمر بذلك .

زعماء الأحزاب الوطنية واليسارية حول مائدة مستديرة ، يتوسطهم كمال جنبلاط . الصحفيون يسجلون بيان جنبلاط : « ... إن أهداف إغتيال معروف سعد هى إرهاب الحركة الشعبية والتحضير لفتنة طائفية وجر المقاومة الفلسطينية إلى صراع داخلى لبنانى . »

طائرات إسرائيلية تسقط قنابلها على الجنوب اللبنانى .

تل أبيب . سيارة أمريكية فاخرة تقل شربل قسيس ، زعيم الرهبانيات المارونية اللبنانية ، فى ردائه الكهنوتى الأسود . صليب ذهبى يتدلى من رقبته .

عنوان :
وصل الأباتى شربل قسيس إلى إسرائيل فى ٥ أبريل (نيسان) .

شربل قسيس يلوح بيد إزدانت بالخواتم الماسية والمجوهرات . لقطة مكبرة لوجهه السمين وشفتيه الممتلئتين . يقول : « ماذا يظن المسلمون أنفسهم ؟ هل بعولهم أكثر فحولة من رجالنا ؟ إن لدينا فى الجبل رجالا يمكن للواحد منهم أن ينجب عشرة وعشرين » .

بيروت . مبنى المجلس الشيعى الأعلى فى منطقة الحازمية ، القلعة المارونية فى العاصمة اللبنانية . مدخل المبنى الأنيق . عشرون ألف شيعى تجمعوا حول المبنى .

عنوان :
فى الأسبوع الأول من شهر أبريل (نيسان) ، إنتخب المجلس الشيعى الأعلى الامام ، موسى الصدر رئيسا مدى الحياة .

سيارة أتوبيس متوسطة الحجم ، خالية من الركاب . آثار طلقات الرصاص على جدرانها ونوافذها .

عنوان :
بعد ظهر الأحد ١٣ أبريل (نيسان) ١٩٧٥ ، كان هذا الأتوبيس فى طريق العودة من إحتفال بذكرى ضحايا مذبحة دير ياسين . وكان الأتوبيس يقل عددا من سكان مخيم « تل الزعتر » من لبنانيين وفلسطينيين . وعند وصوله إلى منطقة عين الرمانة ، أطلقت عليه ميليشيا الكتائب النار ، فأردت ٢٦ من ركابه ــ أغلبهم من الأطفال ــ وأصابت ٢٩ آخرين بجروح .

جثث مغطاة بالأعلام الفلسطينية .

شارع الجميل . سيارة فولكس فاجن يقودها شاب . السيارة تبلغ كنيسة سيدة الخلاص . أعيرة نارية تنطلق من داخل الكنيسة على السيارة .

شارع مار مارون . سيارة فيات مسرعة تقل عددا من المسلحين يلفون رؤوسهم « بالحطة » المزركشة ، التى يرتديها عادة الفلسطينيون وسكان الجنوب اللبنانى . عدد من المسلحين يحاولون

إيقاف السيارة ، لكنها تمر منهم عنوة . يتبادل ركاب السيارة إطلاق النار مع المسلحين . يسقط أحد المسلحين على الأرض . كما يصاب أحد ركاب السيارة .

سطح إحدى البنايات العالية . ثلاثة شبان خلف مدافع رشاشة فوق حوامل . تستند إلى حافة السطح . بالقرب من الشبان إبريق ماء وصفيحة . أحد الشبان يرتدى حذاء ذا كعبين من طراز قاع الكوب . الشاب الثانى يرتدى سترة جلدية . الثالث لف حول ساق بنطلونه حزاما عسكريا .

لقطة بعيدة من خلال منظار الرؤية لمدفع رشاش . المنظار يتحرك بحثا عن هدف . خطا تحديد الهدف ، المتعامدان على شكل صليب ، يلاحقان جسما متحركا . يقترب الجسم بالتدريج من نقطة إلتقاء خطى الرؤية ، فيكشف عن رجل متوسط العمر يغذ السير . المنظار يبتعد عن الرجل قليلا ويستقر عند نقطة خلف قدميه . رصاصة تنطلق . المنظار يعود إلى الرجل . يتابعه وهو يجرى . رصاصة أخرى تنطلق على مبعدة قدم أمامه . الرجل ينبطح أرضا . يزحف فى رعب . ينهض فجأة واقفا ويواصل الجرى . المنظار يركز على يد الرجل . رصاصة تصيبها وتحدث بها جرحا . الرجل يضع يده الأخرى على اليد المصابة ويواصل الجرى . المنظار يهتز فى حركة شبه راقصة بحثا عن هدف جديد . رصاصة تصيب الرجل فى ساقه . يقع على الأرض . المنظار يستقر على بطنه . رصاصة تصيب الرجل فى بطنه .

أكياس الرمال على جوانب شوارع خالية . متجر تعلوه لافتة « قطع مرسيدس أصلية . وكلاء فبارك وموزعون . » سيارة محطمة أمام حانوت مغلق .

رصيف محطة بنزين مدمرة . لافتات صغيرة على الجدران لم يتبق منها غير كلمة واحدة هى « سوبر » . شاب منكوش الشعر فى قميص وبنطلون ملقى على جانبه فوق الأرض . يزحف والدماء تسيل منه .

القباب الداخلية المحترقة لمسجد المجيدية فى ميناء الخشب . جثة محترقة تظهر بها آثار الحبال التى كانت تقيدها .

لوحة زيتية كبيرة الحجم للسيدة العذراء تحمل السيد المسيح فوق ساقيها بعد صلبه وقد إستقرت الأسهم فى قلبها . آثار الأعيرة النارية واضحة فى أنحاء اللوحة .

العنوان الرئيسى لصحيفة النهار : « إتفاق على وقف إطلاق النار وسحب المسلحين وإزالة المتاريس » .

دائرة حول فقرة من مقال لبيار الجميل فى صحيفة حزب الكتائب : « لبنان أجمل بلد فى العالم . وأفضل دولة فى الشرق . وللأسف فان هذا الوضع بدأ يتشوه منذ أربع أو خمس سنوات

عندما بدأ سيل من الغرباء مجهولى الهوية والانتماء يتسلل إلى لبنان » .

دائرة حول فقرة من مقال بجريدة « الثورة » السورية : « الثورة الفلسطينية لا تقف وحدها فى مواجهة أعدائها . والقيادة الموحدة بين سوريا والمقاومة هى الرد . »

أمام مبنى مجلس النواب اللبنانى . مصفحة تحمل لافتة « الأمن الداخلى اللبنانى » . عدد من الضباط . سيارة مرسيدس تحمل علما . داخل المجلس . النواب مجتمعون . رئيس الوزراء ، رشيد الصلح ، يتكلم : « من الواضح أن حزب الكتائب يتحمل المسؤولية الكاملة عن المجزرة وعن المضاعفات التى أعقبتها والضحايا والأضرار المادية والمعنوية التى لحقت بالبلاد نتيجة لها . »

النائب أمين الجميل يجرى خلف رئيس الوزراء ويجذبه من ذراعه محاولا الاعتداء عليه .

واشنطون . هنرى كيسينجر فى مكتبه بالطابق السابع لمبنى وزارة الخارجية الأمريكية يتحدث لصحفى أميركى : « الوضع فى لبنان يشبه ما كان عليه فى الأردن سنة ١٩٧٠ . كل ما يحتاج لمعالجته هو أن ترسل سوريا لواء من قواتها . » .

قاعة واسعة يتصدرها مفتى الجمهورية السنى الشيخ حسن خالد . على رأسه عمامة بيضاء . إلى يمينه يجلس وزير الخارجية السورى عبد الحليم خدام . إلى يساره إمام الشيعة فى عباءته السوداء . ثم رئيس أركان الجيش السورى . ثم كال جنبلاط الذى عقد ذراعيه فوق صدره ، وأغمض عينيه . إلى يسار الامام الصدر زعيم سنة طرابلس رشيد كرامى وإلى جواره صائب سلام زعيم سنة بيروت العجوز ، ذو السيجار الهافانى .

دائرة حول خبر فى صحيفة لبنانية : إعتمدت المملكة السعودية أربعين مليون ليرة باسم صائب سلام لمحاربة الالحاد والشيوعية .

عنوان رئيسى لصحيفة أخرى : حكومة جديدة برئاسة رشيد كرامى وعضوية كميل شمعون للداخلية .

عنوان رئيسى فى صحيفة أخرى : عدوان إسرائيلى على مخيمات الجنوب . مصرع ١١ وتهدم ٦٠ منزلا فى الرشيدية .

بيروت . منطقة المسلخ ــ الكارنتينا . عشش متلاصقة من الصفيح (التنك) . أعلام فلسطينية ولبنانية . لقطة أخرى لنفس المكان وقد تحول إلى دمار . مجموعة من القذائف التى سقطت عليه . إحدى القذائف فى حجم وإرتفاع قامة صبى يافع . قذيفة أخرى تحمل رمز المملكة السعودية الذى يتألف من سيفين متقاطعين حول عبارة « لا إله إلا الله » . وجه عجوز مذهولة يتطلع من بين الخرائب . طفلة حافية فى رداء مزركش تحمل رضيعا فوق ساعديها ، وتجلس إلى جوار جدار متهدم .

سيدة متوسطة العمر تغطى رأسها بلفاعة بيضاء شفافة عقدتها حول عنقها وأرسلت طرفا منها فوق صدرها . تبكى ويدها على خدها . إلى جوارها فتاة تشبهها تبكى بدورها . أسرة تجرى فى الشارع وقد حمل الأب لفافة على ظهره وأمسك بطفل فى كل يد . طفل ثالث يتقدمهم . عدد من الشبان بينهم من تلفع « بالحطة » المزركشة . يبتسمون للكاميرا وهم يرفعون أصابعهم بعلامة النصر . إلى جوارهم جثث مغطاة بالأعلام الفلسطينية .

العنوان الرئيسى لصحيفة « السفير » : « الامام الصدر يعلن ولادة أفواج المقاومة اللبنانية « أمل » للدفاع عن الجنوب . الامام يجدد إلتزامه بتحقيق مطالب المحرومين من كل الطوائف وإنهاء التميز الطائفى والدفاع عن الثورة الفلسطينية . »

شاب يحمل مدفعا رشاشا فوق سطح منزل . يرتدى فانلة بيضاء نقشت عليها كلمة « أمل » بالحروف اللاتينية .

لقطة طويلة لأحد الشوارع . برميلان بترول فى عرض الطريق وإلى جوارهما عدد من المسلحين . المارة قليلون . المسلحون يستوقفونهم ويفحصون هوياتهم . يحجزون البعض ويطلقون سراح الآخرين . يعصبون أعين المحتجزين .

أمام فرن محلة أبو شاكر . كتلة من الأحذية والشباشب المستعملة تناثرت قرب الجدار .

قرب الخط الأخضر . حفرة واسعة أصبحت تستخدم جبانة للمسلمين . كوم من الجثث الملقاة حديثا . الأعضاء التناسلية للرجالة مقطوعة وتبرز من أفواههم .

عنوان :

فى مايو / آيار ، قامت جماعة متطرفة من الشيعة تسمى نفسها « فرسان على » بقتل خمسين شخصا ، بينهم عدد من اليساريين .

شبان يجرون وقد حملوا على أكتافهم لفائف كبيرة من الخبز . ناصية شارع . سيدة فى جوب قصير تجرى فى إتجاه سيارة إحتمى خلفها أحد المسلحين .

الصفحة الأولى من جريدة لبنانية . عنوان رئيسى : « قائد كتائبى يعترف » . عنوان آخر : « سعيد نعيم الأسمر يقر بأنه عمل قناصا فى منطقة الشياح ، ويقول إن مسلحى الكتائب بقيادة جوزيف أبو عاصى هم الذين قاموا بمذبحة عين الرمانة . » عنوان ثالث : « الأسمر يتهم عناصر رسمية من المكتب الثانى وأخرى من المخابرات الأردنية بأنها تساعد الكتائب فى عملياتها العسكرية . »

عنوان فى صحيفة « النهار » : « قصف مدفعى إسرائيلى على الجنوب . »

عنوان فى صحيفة « السفير » : « واشنطون تكشف النقاب عن صفقة سلاح أمريكية أرسلت إلى لبنان أخيرا عن طريق السفارة الأمريكية ببيروت . »

عنوان آخر لنفس الصحيفة : « الأنتربول تحذر من وصول سبعة إرهابيين أوروبيين من عملاء الصهيونية إلى بيروت . »

بلدة بشعرين . شعارات على جدران المنازل : « كل الحمير تدعم الثورة الفلسطينية . » شعار آخر : « تسقط فلسطين » .

قصف إسرائيل لمدينة صور من البر والبحر والجو .

عنوان صحيفة : « كيسنجر يتجه إلى مصر فى جولته المكوكية الحادية عشرة » .

عناوين صحف : « توقيع إتفاقية سيناء بين مصر وإسرائيل فى أول سبتمبر (أيلول) » . « وكالة الأنباء الفرنسية تقول أن واشنطون هى الفائز الأكبر فى هذه الصفقة » . « ياسر عرفات يحذر : الاتفاقية تترك السوريين والفلسطينيين يقفون وحدهم وتؤدى إلى حرب أخرى . تخطىء إسرائيل وأمريكا واهمة إذا إعتقدتا أن الجيش المصرى سيقف مكتوف الأيدى إذا تعرضت الثورة الفلسطينية للتصفية » . « الاتحاد السوفيتى يطلب رسميا من الولايات المتحدة دعوة مؤتمر جنيف للانعقاد باشتراك منظمة التحرير الفلسطينية » .

الصفحة الأولى من مجلة « الكرازة » الصادرة عن الكنيسة القبطية المصرية . صورة الأنبا صموئيل ، مسئول العلاقات الخارجية للكنيسة المصرية ، فى لقاء مع أعضاء مجلس الكنائس العالمى .

عنوان :

فضحت تحقيقات الكونجرس الأمريكى ، علاقة مجلس الكنائس العالمى ، الذى إشترك جون فوستر دالاس فى تأسيسه ، بالمخابرات المركزية الامريكية .

فقرة من مقال بمجلة ألمانية غربية عن الكنيسة المصرية . صورة الأنبا صموئيل وتحتها هذه الكلمات : « قام الأنبا صموئيل ، وهو أحد أبرز قيادات الكنيسة القبطية ، بدور هام فى مساعدة أبناء العائلات القبطية الغنية التى أضيرت بقرارات المصادرة والتأميم الناصرية ، مستغلا علاقاته الدولية الواسعة ، وخاصة فى ألمانيا الغربية ، فحصل للكثيرين منهم على مراكز مرموقة فى المؤسسات المصرفية والتجارية الأجنبية التى فتحت لها سياسة السادات الأبواب . »

بيروت . الصحفيون يحيطون برشيد كرامى ، رئيس الوزراء اللبنانى باسم الوجه فى بزة بيضاء ورباط عنق ملون . يقول للصحفيين : « الرئيس فرنجية زعيم عظيم وأنا واثق أن آخر سنوات عهده سيسجلها التاريخ » .

عنوان صحيفة لبنانية : « مسلحون من موارنة زغرتا ، معقل الرئيس فرنجية ، يحتجزون ٢٥ رهينة من مدينة طرابلس ، معقل رئيس الوزراء رشيد كرامى ، ويقتلون ١٢ منهم » .

عنوان صحيفة أخرى : « إنفجار القتال فى ثلاثة أماكن بالشمال . الكتائب تطالب بإنزال الجيش . إذاعة صوت العرب المصرية تهاجم المقاومة الفلسطينية وتدعو الجيش اللبنانى للنزول إلى الشارع لضربها » .

دائرة حول فقرة من إفتتاحية جريدة « أخبار اليوم » المصرية : « ... الاشتباكات الحالية جزء من مؤامرة الرفض لاحباط التسوية السلمية بين مصر وإسرائيل بهدف خلق وضع يضطر سوريا إلى التدخل ، وإذا حدث ذلك فان إسرائيل ستضطر للتدخل . »

شارع مهجور فى بيروت . النفايات والبراميل فى كل مكان . أقفال محطمة وملقاة أمام الحوانيت المغلقة . باب منزل مفتوح . فى الداخل غرف فارغة منهوبة . لص يحمل ثريا كهربائية يجرى فى الشارع . يطارده أفراد من قوة « الكفاح المسلح الفلسطينى » .

النيران تشتعل فى سينما ريفولى .

قصر الرئاسة فى دمشق . رشيد كرامى يصعد الدرج .

جانب من إجتماع فى بيروت : زهير محسن ، قائد منظمة « الصاعقة » الفلسطينية التابعة لسوريا فى قميص حريرى ملون وبنطلون أبيض ، يحمل فى يده غليونا فاخرا ، أبو الحسن مسئول أمن فتح ، ياسر عبد ربه من قادة الجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين ، العقيد أنطوان الدحداح مدير الأمن العام اللبنانى .

عنوان :

تم الاتفاق على وقف اطلاق النار ، لكن الكتائب فجرت الموقف فى زحلة .

بيروت . ساحة الشهداء . أنقاض الفندق العربى وتظهر بينها ساق آدمية . رجل ملقى على وجهه فى مدخل حانوت تبدو فى واجهته الزجاجية صناديق « نيكس » . الدم يلطخ ظهر الرجل .

رجل معصوب العينين يمشى بين إثنين من المسلحين .

عناوين صحف لبنانية : « خطف ٣٠٧ وإعادة ٢٠٠ . العثور على ٢١ جثة » . « مجموعة فلسطينية متطرفة تهاجم مطار بيروت . مصرع ثلاثة أفراد فى الهجوم . قيادة المقاومة تستنكر الهجوم وتسلم السلطة أحد المهاجمين » .

شاحنات تحمل مسلحين تغادر إحدى القرى وتنطلق على الطريق الزراعى . تمر بقرية فتطلق النار على منازلها .

بيروت . شارع مهجور . عجوز بلا أسنان فى بزة كاملة يسير وهو يضم كيسا إلى صدره .

تصيبه رصاصة قناص فى فخذه فيقع على الأرض . يرفع رأسه ويتطلع حوله ثم يزحف مستخفيا دون أن يتخلى عن الكيس . رجل إحتمى بمدخل منزل مجاور يعقد حبلا فى أنشوطة ويلقى بها إلى العجوز دون أن يغامر بابراز رأسه من مدخل المنزل . يجر العجوز بالحبل بعيدا عن مرمى القناص . الكيس يسقط من يد العجوز وتتدحرج منه أرغفة خبز .

النار تشتعل فى سوق سرسق القديم . الدمار يمتد إلى سوق الخضار وسوق الأوبرا وسوق الصاغة .

أطفال ونساء فى ثياب رخيصة ملونة ينقبون بين ركام الأسواق والمتاجر . يشترك معهم فى التنقيب بعض المسلحين . شبان يحملون أكواما من الملابس واللفائف . آخرون يفرشون سلعا مختلفة على أرصفة الحمرا والروشة .

منزل فى حى البرجاوى إخترقت القذائف جداره . أطلال مصنع عسيلى للنسيج فى الشياح . سيارة مرسيدس تحول ظهرها إلى منخفض عميق بفعل قذيفة . سيارة أخرى محطمة تسلقها أحد المسلحين ليقفز إلى نافذة منزل فخم . حطام مسكن . هياكل متفحمة للسراير والعلاقات والمقاعد .

سيارة مسرعة فوق جسر فؤاد شهاب ، متجهة إلى حى الأشرفية المسيحى . رصاصة قناص تصيب قائدها فيصطدم بسياج الجسر وتميل السيارة من فوقه .

الناس تحيط بسيدة مذهولة يتغطى رأسها بمنديل . إلى جوارها مباشرة قتيل ملقى على الأرض .

مرسيدس يعكف سائقه على ربط حقائب الركاب فوق سطحه . أسرة من سيدتين ورجل وطفلين يحملون الحقائب ويسيرون فى طريق يخلفه الغبار .

واجهة مبنى محطم أسفله متجر كبير مغلق يحمل لافتة « تركيب جميع أنواع الزجاج والبللور » . غرفة داخل المبنى نسفت الصواريخ حوائطها . رأس طفل وسط الحطام .

عنوان صحيفة : « جنبلاط يعلن أن الكتائب وحدها تتكلف مليون ليرة يوميا فى حالة الاستنفار العسكرى . أقل مقاتل لديهم يتقاضى من ٥٠٠ إلى ٩٠٠ ليرة ورئيس المتراس ٢٠٠٠ ليرة وآمر الحى ٣٠٠٠ ليرة . بالاضافة إلى أجور المرتزقة الفرنسيين ، وتكاليف التأمين عليهم » .

ياسر عرفات فى ملابس عسكرية يضع يده على ذراع كميل شمعون مبتسما فى تودد . شمعون متجهم الوجه .

عنوان رئيسى بصحيفة لبنانية : « الاتفاق على إزالة المتاريس والمسلحين فى مناطق القتال بالعاصمة » .

عنوان :

وبعد أربعة أيام ...

مدفع هاون عيار ٨١ ملم يقذف لهبه . حريق ودخان . الناس مهرول إلى الخابىء . النساء بقمصان النوم والرجال حفاة .

عنوان رئيسى فى صحيفة « السفير » : « الكتائب والنمور تقصف حى اللعازارية وقلب بيروت يحترق » .

سماء بيروت بالليل . القذائف المتطايرة بين الأحياء تضيؤها .

الاذاعة : معظم شوارع بيروت غير آمنة .

شارع تجارى طويل عند الغروب . الحوانيت مغلقة . ليس هناك أثر لانسان . المنازل التى تعلو الحوانيت تبدو كأن سكانها هجروها . سواتر من أجولة الرمال فى طرفى الشارع . القذائف متبادلة بين الطرفين . ترتفع راية بيضاء أعلى كل ساتر فيتوقف القتال . يتقدم مسلح من كل جانب حاملا الراية البيضاء . يلتقى الاثنان فى منتصف الشارع . يتبادلان حديثا قصيرا ثم ينضم إليهما عدد من زملاء كل منهما . يتوزعون إلى مجموعات من اثنين ، واحد من كل طرف ، تقوم بإقتحام الحوانيت الواقعة على جانبى الشارع . المسلحون ينقلون محتويات الحوانيت إلى الخارج . الملابس والأحذية والأجهزة الكهربائية والمواد الغذائية تتجمع فى كوم كبير وسط الطريق . يجرى إقتسام الأغراض المنهوبة بين الطرفين . يحمل رجال كل طرف نصيبهم إلى موقعهم . يُستأنف القتال .

حى القنطارى الأرستقراطى المسيحى يحترق . الدخان يغطى سماء بيروت . النيران تلتهم مطعم « ميرتلدوم هاوس » النمساوى . سيارة من طراز « ألفا روميو » تحترق فى عرض الطريق . النيران تلتهم مبنى قديما من الطراز التركى . رجال ونساء يتدافعون فى مداخل المنازل ، بين داخلين وخارجين ، يحملون الحقائب واللفائف ويلقون بها إلى الشاحنات والسيارات .

درج مبنى فخم . مسلحون يحملون سجاجيد فارسية . مدخل مسكن ويبدو الأثاث الوثير محطما إلى قطع صغيرة .

عنوان :

فى ٢٦ أكتوبر (تشرين الأول) أقر مجلس الوزراء إتفاقا بوقف إطلاق النار .

سيارات رانج روفر مدهونة باللون الأسود ، تقل حوالى عشرين مسلحا مقنعا ، من ميليشيا النمور التابعة لوزير الداخلية شمعون . تتوقف السيارات أمام فندق السان جورج . المسلحون يقومون بإنزال صناديق الأسلحة والذخائر . داخل الفندق يقوم عماله بجمع السجاد .

عنوان :

فى ٢٩ اكتوبر (تشرين الأول) عقد إتفاق جديد لوقف إطلاق النار ضمنه كل من رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء .

سيارات شبه عسكرية مدهونة باللون الأسود تطلق زماميرها أثناء السير . يقفز منها مسلحون فى ملابس سوداء وقبعات سوداء ، من رجال الكتائب ، يحملون البنادق الرشاشة . يركض أحدهم من زاوية إلى أخرى وعلى صدره يتأرجح منظار ميدان . المسلحون يصرخون فى المارة ثم يبدأون بإطلاق النار فى كل إتجاه .

عنوان :

فى أول نوفمبر (تشرين الثانى) عقد إتفاق جديد لوقف إطلاق النار . وخرقه الكتائب والنمور بعد ثلاث دقائق .

وبعد يومين إجتمع ممثلو الأحزاب والفرق المتقاتلة من جديد وإتفقوا على إزالة المظاهر المسلحة وإعادة جميع المخطوفين .

وفى اليوم التالى ....

عنوان رئيسى لصحيفة : « حواجز متنقلة تقتل أكثر من خمسين مواطنا على الهوية . العثور على عشرات الجثث . إلقاء قنبلتين من سيارة على مقر الحزب القومى الاجتماعى . »

عنوان رئيسى لصحيفة أخرى : « الحركة الوطنية والمقاومة الفلسطينية يتهمان المكتب الثانى بالعمل على تخريب كل هدنة بالقيام بأعمال إرهابية ضد كل الأطراف » .

عنوان رئيسى لصحيفة ثالثة : « لجنة إرتباط من خبراء مدنيين وعسكريين يمثلون حلف الأطلنطى ، تعمل فى غرفة عمليات وزارة الدفاع اللبنانية » .

مدينة طرابلس . مؤتمر صحفى فى مستشفى المدينة العام يعقده النقيب إسكندر نقولا المعلوف . يقول للصحفيين : « لقد أنتدبت فى مهمة من جول بستانى ، رئيس المكتب الثانى ، مع ضباط آخرين ، لالقاء القنابل فى أماكن متفرقة من طرابلس من أجل إشعال الفتنة . »

صحيفة « الأهرام » المصرية . عنوان رئيسى : « حسنى مبارك ، نائب الرئيس ، يعلن أن الشيوعيين هم اللذين يفجرون الأحداث فى لبنان ، وأنه ليست هناك حركة وطنية وإنما مجرد تغطية لأهداف الشيوعية الدولية » .

القاهرة ، مبنى مجلس الشعب . الدكتور صوفى أبو طالب رئيس المجلس يؤكد أن هناك توجيها من الرئيس « المؤمن » أنور السادات بجعل الشريعة الاسلامية أساسا لقوانين الدولة بحيث تطبق على

غير المسلمين . يقول لأحد الصحفيين أن هناك مشروع قانون مقدم للمجلس عن « أحكام الردة » يقضى بالاعدام شنقا لمن يخرج عن الدين .

بيروت . ممثلو الأطراف المتقاتلة حول مائدة مستديرة . المجتمعون يتبادلون قوائم المخطوفين . يستخدمون التليفون فى العمل على إطلاق سراح أعداد كبيرة منهم . الجميع يصرحون للصحفيين أنه لا توجد علاقة بينهم وبين حوادث الخطف .

عنوان صحيفة لبنانية : « قوة إسرائيلية تعبر الحدود وتقيم حاجزا وتخطف مواطنين لبنانيين . »

دائرة حول فقرة من صحيفة « واشنطون بوست » : « اليسار اللبنانى خرج من معركة بيروت الأخيرة أقوى عسكريا ، لكنه أقل تلاحما . فبعد سبعة شهور من القتال إستطاع أن يحقق نصرا واضحا على الكتائب » .

رشيد كرامى للصحفيين : « لابد من تعديل نسبة تمثيل المسلمين فى مجلس النواب وجعلها مناصفة » .

الاذاعة اللبنانية : .. إلى الأهل ، نحن بخير طمنونا عنكم .

عنوان :
التقديرات الأولية لضحايا المعارك : ٨ آلاف قتيل و٤٠ ألف جريح .

(١١)

لم تكن انطوانيت فى غرفتها عندما ذهبت إليها فى اليوم التالى . وكان الباب مغلقا فاضطررت إلى انتظارها فى غرفة المونتاج . وقضيت الوقت فى قراءة الصحف والمجلات . ثم جذبت جهاز التليفون ، ومددت يدى إلى جيب سترتى الأعلى حيث أحتفظ بمفكرتى عادة . كان الجيب خاليا ، ففتشت بقية جيوبى ، وفى حقيبة يدى . وتذكرت فجأة أنى وضعتها على الكومودينو المجاور للفراش ، عندما كنت أرتدى ملابسى ، ونسيتها هناك .

وصلت أنطوانيت بعد ساعة برفقة شاب وسيم يصغرها فى السن بعامين أو ثلاثة . وكان وجهها مضرجا من الانفعال . إعتذرت عن تأخرها ، وقدمت لى رفيقها على أنه رسام سورى . ثم إنصرفت إلى إعداد القهوة .

عرض على الشاب بيانا موجها إلى الحكومة السورية يطالب بالافراج عن عدد من المثقفين اليساريين الذين أعتقلوا أخيرا فى دمشق . وكان ثمة عدة توقيعات أسفل البيان . وسألنى أن أضع توقيعى ، ففعلت .

شربنا القهوة ، ثم حملنا علب الفيلم إلى مائدة المونتاج . وغادرنا الشاب ليواصل جمع التوقيعات ، فبدأنا العمل .

الفصل الثانى من الفيلم

الصفحة الأولى من جريدة « النهار » اللبنانية . صورة الرئيس فورد . العنوان الرئيسى : « الرئيس الأميركى يقول : الولايات المتحدة ستعمل كل ما فى وسعها للمحافظة على الحرية والديموقراطية فى لبنان . »

صحيفة « نيويورك تايمز » . دائرة حول فقرة من مقال : « ... السلاح الغربى يتدفق على اليمين اللبنانى ، وتمويله يتم بواسطة الكنيسة المارونية والمملكة العربية السعودية . »

مطار بيروت . كوف دى مورفيل ، المبعوث الفرنسى ، يهبط درج طائرة .

دائرة حول فقرة من مجلة « ليكسبريس » الفرنسية : « فرنسا ، عراب الميثاق ، تأتى اليوم لتؤكد أنها لم تتخل عن المسيحيين . » فقرة أخرى من نفس المقال : « المبعوث الفرنسى يلمح إلى مسئولية الفلسطينيين عن أزمة لبنان . »

صفحة من مجلة سويدية تتصدرها صورة فوتوغرافية لعدد من الشبان الملتحين ، فى جلاليب بيضاء ، يطاردون شبانا آخرين فى قمصان وبنطلونات . أحد الملتحين يلوح بمطواة من نوع « قرن الغزال » . فى الخلف تبدو ساعة جامعة القاهرة . الكاميرا تركز على عبارة أسفل الصورة ، بينما تظهر ترجمتها إلى اللغة العربية على الشاشة : « سلاح ذو حدين » .

دائرة حول فقرة من الصفحة المذكورة ، تظهر ترجمتها على الشاشة : « إستمع أنور السادات

إلى نصيحة صديقه المليونير عثمان أحمد عثمان ، وعهد اليه هو والمحافظ عثمان إسماعيل ، بتسليح عدد من المتطرفين المسلمين ليرهب بهم معارضيه ويتقرب إلى التيار الاسلامى بالبلاد . وما أغفله السادات هو أن المدى سلاح ذو حدين . »

الصفحة الأولى من صحيفة إسرائيلية . صورة شيمو ن بيريز ، وزير الدفاع الاسرائيلى ، أسفل عنوان مستمد من تصريح له يقول فيه : « الحرب الأهلية اللبنانية حرب دينية ودليل على إستحالة إنشاء دولة فلسطينية تشارك فيها جميع الأديان . »

صحيفة النهار اللبنانية . عنوان رئيسى على الصفحة الأولى : « لجنة الكسليك ، تدعو إلى إعلان الحياد اللبنانى بين العرب وإسرائيل . »

سرب من الطائرات الاسرائيلية يحلق على إرتفاع منخفض فوق حقول تين وزيتون . أسراب أخرى فوق مخيمات ترفع الأعلام الفلسطينية واللبنانية .

العنوان الرئيسى لصحيفة « السفير » : « ٣٠ طائرة إسرائيلية تغير على الجنوب . مقتل ٦٠ فى المخيمات والقرى وجرح ١٤٠ وتهدم ٧٠ منزلا » .

مبنى الأمم المتحدة . إجتماع لمجلس الأمن . أمام أحد الجالسين لافتة باسم منظمة التحرير الفلسطينية .

مذيع أمريكى متعجل : « لأول مرة تشارك منظمة التحرير الفلسطينية ، رغم المعارضة الأمريكية العنيفة ، فى مناقشات مجلس الأمن حول الاعتداءات الاسرائيلية . »

صحيفة « السفير » . صورة المطران « إيلاريون كبوجى » . العنوان يقول : « كبوجى يضرب عن الطعام فى سجنه » . عنوان آخر : « رسالة مهربة من المطران السجين » . عنوان ثالث بنص الرسالة : « إلى الأهل فى الجنوب الصامد : مازلنا على العهد ، فلسطين فى القلب . »

دمشق . بيار الجميل يصعد درج قصر الرئاسة .

عنوان :

وفى اليوم نفسه ...

بيروت الشرقية . نهر من السيارات المسرعة التى تدق أبواقها بصورة متصلة وتتجه إلى المتحف ، حيث نقطة العبور إلى المنطقة الغربية . المارة يجرون . عدد من المسلحين فى ملابس سوداء يطاردونهم . موسيقى البوب تنبعث من أجهزة الراديو .

ساحة البرج . الفواكه وصناديق البيبسى كولا والسفن أب متناثرة فى عرض الطريق . رجال

يجرون . أحدهم إنكمش فى ملابسه من البرد . الآخر غطى رأسه بقلنسوة روسية . ثالث يضع طاقية شعبية . فى الخلف دار للسينما تعرض الفيلم المصرى : « إحترسى من الرجال يا ماما . »

عنوان :

السبت الأسود

فى يوم السبت ٦ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٧٥ ، وبعد فترة من الهدوء النسبى ، أطلقت ميليشيا الكتائب مقاتليها فى ساحة الشهداء وباب أدريس ، فقاموا بخطف العشرات وقتلوا أغلبهم ثم حملوا الباقين إلى مقار حزبهم ، فذبحوهم أمام أبوابها . وقاموا بمهاجمة المكاتب الحكومية وخاصة شركة الكهرباء حيث إغتالوا أكثر من مائتى مسلم . كما هاجموا المرفأ وأطلقوا النار على عماله ، ثم ألقوا بجثثهم فى البحر .

مبنى شركة الكهرباء ، المملوكة للدولة ، فى بيروت الشرقية . الكاميرا تركز على نافذة فى الطابق الثالث عشر .

عنوان :

نجا رئيس الشركة ، فؤاد بزرى ، المسلم السنى ، من المذبحة بفضل علاقاته الوثيقة برئاسة الجمهورية ، إذ عمل من قبل مستشارا لأثنين من الرؤساء . فقد تلفن لمساعد الرئيس فرنجية ، وإتصل هذا على الفور بقيادة الكتائب، فتم تأمين حياته .

مفترق طرق فى بيروت . عربة يد ذات إطارات ثلاثة من الكاوتشوك . صحون وأكواب وأدوات منزلية تغطى سطحها . يدفعها صاحبها بسرعة وقد أحنى رأسه محتميا ببضائعه . قذيفة قوية تصيبه فتطوح به فوق عربته والدماء تنزف منه .

الاذاعة اللبنانية : مجددا نحن معكم . لا تتحركوا من منازلكم . كل الطرق غير آمنة .

سيارة فولكس فاجن إنغرزت إطاراتها المثقوبة فى الأرض . هيكلها إمتلأ بثقوب متجاورة متساوية الأحجام إلا عندما يلتحم ثقبان منها .

ردهة مستشفى . أنين الجرحى . سلال مهملات يحوم حولها الذباب . السلال تمتلىء بالأقدام المقطوعة والعيون السائلة .

صحيفة « السفير » . العنوان الرئيسى : « قيادة الكتائب تعترف : الميليشيا تمردت و خطفت وقتلت . »

دائرة قلمية حول فقرة من مقال بصحيفة « ليموند » الفرنسية : « دارت مذبحة يوم السبت فى عدة أحياء من بيروت ، وبطريقة منظمة للغاية . فهل هم أنصار تقسيم لبنان ، أم عملاء أجانب

إسرائيليون وأمريكيون ، كما يقول الزعيم المارونى المستقل ريمون إدة ، أم متطرفون يحلمون بلبنان مسيحى صغير ؟ »

متراس من الأتربة . شاب فى ملابس عسكرية إنحنى فوق مدفع كلاشينكوف . خلفه شاب ملثم « بالحطة » الفلسطينية المزركشة ، يثبت صاروخا من صواريخ أر بى جى الروسية المضادة للدبابات ، إستعدادا لاطلاقه . الشاب يحمل خزانة الصواريخ على ظهره .

شاطىء البحر . النار والدخان يتصاعدان من فندق فينيسيا الفخم .

العنوان الرئيسى لصحيفة « السفير » : « القوات الوطنية تقوم بتطهير منطقة الفنادق . »

شارع كورنيش المزرعة . مكتب منظمة التحرير الفلسطينية . مصفحة تابعة للجيش اللبنانى تطلق النار على المبنى .

العنوان الرئيسى لصحيفة « السفير » : « الانعزاليون يحتلون حارة الغوارنة بعد أن أحرقوا ٣٠٠ منزل ، وأسروا النساء والأطفال والشيوخ . »

مستشفى الأمراض العقلية جنوب بيروت ، قرب طريق دمشق الدولى . داخل حديقة مسورة . عدد من المرضى بملابسهم المخططة يتريضون فى الشمس . الطريق المؤدى إلى المستشفى . سيارة عسكرية تقبل مسرعة وتتوقف أمام بوابة المستشفى . يغادرها عدد من المسلحين . يقتحمون المستشفى عنوة ويخرجون بنزيل شاب . النزيل يبدو على صلة ما بأحد المسلحين . عدد من المرضى ينتهزون الفرصة ويندفعون خارج المستشفى . يمضون بخطوات سريعة فى الطريق المؤدى إلى المدينة . أحدهم كهل يضع على رأسه طاقيه حمراء .

شارع وسط بيروت . جثث عارية مشوهة ملقاة على مسافات متباعدة بعرض الطريق . فتاة عارية يتدفق الدم بين فخذيها . إلى جوارها زجاجة يلوث الدم عنقها . شاب مجرد من أعضائه التناسلية . إلى جواره شاب آخر يرقد على بطنه وتبرز من مؤخرته الأعضاء التناسلية المقطوعة للاخر .

الطريق المؤدى إلى مستشفى الأمراض العقلية عند الغروب . المريض الكهل ذو الطاقية الحمراء يهرول عائدا نحو البوابة الحديدية للمستشفى .

دائرة حول فقرة من صحيفة أمريكية : « أسفرت الأيام الأخيرة عن بوادر إنقسام فى صفوف جبهة الأحزاب « الوطنية والتقدمية » فى لبنان . فقد طالب رشيد كرامى بوقف الاقتتال ، بينما أعلنت الجبهة عزمها على الاستمرار فى المعركة ضد الوجود المسلح للمسيحيين . وإذا بمجموعة من الأحزاب والتنظيمات المرتبطة بسوريا ، بالاضافة إلى « المحرومين » أتباع الامام الصدر ، تعلن تأييدها

لكرامى . وتبدو المقاومة الفلسطينية عازفة عن التورط فى مزيد من القتال ، وهى تبذل لذلك مساعى مكثفة لعمل مصالحة بين كرامى وجنبلاط ، وإستئناف الحوار من أجل وقف اطلاق النار . »

عنوان صحيفة : « طونى فرنجية زعيم ما يسمى « بجيش التحرير الزغرتاوى » يعلن : نحن مرتاحون فى منطقتنا ولسنا بحاجة إلى العاصمة . »

العنوان الرئيسى لجريدة « السفير » : « المقاومة الفلسطينية تبذل المساعى لوقف القتال بين أهالى زغرتا وطرابلس . »

دمشق . مدخل قصر الرئاسة . رشيد كرامى وجول بستانى ، رئيس المكتب الثانى اللبنانى ، يرتقيان الدرج .

بيروت . أجراس الكنائس . مقر البطريرك المارونى فى بكركى . سيارة دبلوماسية ترفع العلم الفرنسى أمام الباب .

عنوان :

كالعادة ، رأس سفير فرنسا القداس « القنصلى » فى عيد الميلاد .

مطار دمشق . الملك خالد ، ملك السعودية ، يهبط درج طائرته .

عنوان :

قدمت السعودية بالاشتراك مع دول الخليج ، ثلاثة مليارات من الدولارات لسوريا ، كمساعدة مالية عن عام ١٩٧٥ . وبلغت ميزانية سوريا التقديرية لعام ١٩٧٦ ستة عشر مليارا من الليرات السورية ، منها تسعة مليارات من السعودية والخليج .

العنوان الرئيسى لصحيفة سعودية : « متحدث بإسم الملك خالد يقول أن السعودية تؤيد الجهود العربية لحل الأزمة اللبنانية من خلال سوريا وحدها . »

دمشق . وزير الخارجية السورى للصحفيين : « لبنان كان جزءا من سوريا . لو قسم سنضمه . »

بيروت : كميل شمعون للصحفيين : « كنت أتمنى أن يتمكن من إستعادة الجولان قبل التفكير بضم لبنان . »

جانب من صحيفة لبنانية تتصدره صورة زهير محسن . عنوان : « رئيس منظمة الصاعقة يحذر من أى إنتصار كبير على الانعزاليين لأنه سيستدرج تدخلا إسرائيليا . »

العنوان الرئيسى لجريدة السفير : « الكتائب والأحرار بمساعدة الجيش يقتحمون مخيم ضبية الفلسطينى الذى يبعد عشرين كيلو مترا عن بيروت . مصرع وإصابة ٤٧ من سكان المخيم . »

عنوان :

يضم مخيم ضبية الصغير ٢٠٠ عائلة فلسطينية مسيحية .

العنوان الرئيسى لجريدة « السفير » : « مذبحة فى المسلخ والكارنتينا يروح ضحيتها ٥٠٠ قتيل . الكتائب تعلن سيطرتها على الكرنتينا وتهجير أهلها . »

لقطات عامة لعشش الصفيح والخشب التى تتألف منها منطقة الكارنتينا ، قرب مبنى المجلس الحربى « للقوات اللبنانية » ذى الطوابق الثلاثة .

عنوان :

ضمت الكارنتينا ثلاثين ألفا من السكان ، أغلبهم من الأكراد وفقراء الشيعة المهاجرين من الجنوب .

صورة فوتوغرافية ثابتة لعدد من الشبان يرقصون فوق كوم من الجثث . أحدهم يقوم بفتح زجاجة شمبانيا . وسطهم فتاة فى بلوزة وبنطلون تعزف على الجيتار .

صورة فوتوغرافية ثابتة لرجال من أعمار مختلفة ، وقفوا ووجوههم إلى جدار مبنى خلفهم عدد من المسلحين الذين تتدلى الصلبان « الخشبية » الكبيرة من أعناقهم .

صورة فوتوغرافية ثابتة لموكب من النساء والأطفال يحمل أفراده رايات بيضاء . ليس بينهم رجل بالغ واحد .

مصنع أثاث « سليب كو مفرت » أى « نم فى راحة » .

عنوان :

داخل هذا المصنع ، تحصن بضع عشرات من الفلسطينيين المسلحين ، من سكان الكارنتينا ، وصمدوا فى وجه الكتائب لمدة ثلاثة أيام حتى قتلوا عن آخرهم .

على جانب الطريق العام ، جلست إمرأة فلسطينية ذات عيون واسعة وملامح قوية محددة ، فى وجه بيضاوى أحاط به منديل مزركش عقد أسفل ذقنها . إلى جوارها حشد من الأطفال الحفاة يتطلعون باسمين إلى الكاميرا وهم يرفعون أيديهم بعلامة النصر .

عنوان :

وبعد يومين ...

بلدة الدامور . قصر كميل شمعون . مسكن فقير مهجور على حافة البلدة . حجرتان من الحجر . موقد . جهاز تليفزيون . أدوات زراعية إلى جوار الجدار . صورة ملونة لمسيح حزين العينين ذى شعر أشقر طويل .

عنوان :

إنتقاما لمذبحة الكلارانتينا ، هاجمت بعض القوات الفلسطينية واللبنانية اليسارية المتطرفة ، بلدة الدامور المسيحية فى الجنوب ، التى تعتبر من معاقل النمور والكتائب . وبعد أن حاصرت قوات الميليشيات المارونية ، طردت السكان من منازلهم وذبحت البعض منهم بينما إحتمى الآخرون بالكنيسة . وتدخلت قوات « فتح » ، فحوطت الكنيسة لحماية من بها ، ونقلتهم سالمين إلى بيروت . كما نقلت شمعون وإبنه فى طائرة هليكوبتر إلى بيروت الشرقية .

الحدود السورية اللبنانية . ناقلات جنود سورية تعبر الحدود إلى داخل لبنان .

جريدة كويتية : « ألفا فلسطينى يقودهم ضباط سوريون دخلوا لبنان من سوريا . شمعون يرحب بالخطوة السورية . »

جريدة النهار . صورة ريمون إدة فوق تصريح له : « رغبة كيسينجر فى التوصل إلى إتفاق بين سوريا وإسرائيل ، تجعله يحاول الحصول لسوريا على أجزاء من لبنان . »

جريدة كويتية : « الجميل يعلن إستعداده لإنهاء القتال على أساس قاعدة لا غالب ولا مغلوب . »

جريدة النهار . عنوان رئيسى : « وزارة الخارجية الامريكية تعلن إعترافها بالدور البناء الذى تلعبه الحكومة السورية فى لبنان بعد الوصول إلى اتفاق وقف النار . »

جريدة « السفير » : « نايف الحواتمة ، زعيم الجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين يعلن : لا أظن أن هدف سوريا هو إحتواء المقاومة . »

جريدة فرنسية : « عناصر من منظمة الصاعقة التابعة لسوريا هاجمت بالصواريخ الثقيلة جريدتى المحرر وبيروت اللتين تمولهما العراق ، وسقط ٧ قتلى ضحية الهجوم بينهم الصحفى المصرى إبراهيم عامر . »

جريدة أمريكية : « الجميل يصرح لوكالة أ . ب : نحن نستورد أسلحة جديدة إستعدادا لجولة أخرى . »

ريمون إدة لأحد الصحفيين : « إن حزب الكتائب الذى كان شعاره الله والوطن والعائلة ، خالف الوصايا الالهية ، وقضى بتصرفاته على الوطن ، وشرد عائلات الغير وهدم بيوتها ، وإستثمر الشعب ، ولا زال يفرض الخوة ويحصل الاتاوات على مواقف السيارات ، ويجبى الرسوم التى مفروض أن تجبيها الدولة . »

أبو إياد ، الرجل الثانى فى فتح ، لمندوب « السفير » : « هناك حوادث سلب ونهب قامت بها عناصر محسوبة على الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية . لقد إغتنى بعض الأفراد ، وإغتنت بعض التنظيمات على حساب الثورة . »

جريدة الوطن الكويتية . تصريح لزهير محسن ، رئيس الدائرة العسكرية لمنظمة التحرير الفلسطينية ، وزعيم منظمة الصاعقة التى تمولها سوريا : « قيادة المقاومة فى حاجة إلى دم جديد » .

عنوان فى صحيفة أخرى : « هل يحل زهير محسن محل عرفات ؟ »

زهير محسن خارجا من مبنى منظمة التحرير فى قميص ملون . فى يده سيجار .

عنوان :

إشتهر زهير محسن باسم زهير عجمى ، بسبب هوايته للسجاد الذى كان يجمعه من المنازل المدمرة والمنهوبة . وقد تزوج من إبنة تاجر سجاد ثم إشترك مع أحد زعماء الكتائب ، شقيق سفير لبنان فى فرنسا ، فى تهريب الأسلحة قبل أن تغتاله رصاصات مجهولة على أبواب كازينو القمار فى مدينة كان الفرنسية .

جريدة « ليموند » الفرنسية : « القذافى ينفى أنه قدم مساعدات إلى أى من أطراف النزاع فى لبنان . »

جريدة النهار . صورة سليمان فرنجية وتحتها تصريحات له على رأسها قوله : « لبنان مختبر إنسانى فذ . »

جريدة الأنباء . صورة كمال جنبلاط أسفل تصريح له : « أتمنى أن يكون رئيس الجمهورية المقبل عنده شخصية ورجولة وثقافة أكثر . »

جريدة كويتية : « جورج حبش ، زعيم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين يتهم سوريا بمحاولة فرض وصايتها على المقاومة ، ويدعو القوى الوطنية إلى إقامة السلطة الشعبية على جميع الأراضى اللبنانية . »

جريدة السفير : « تمرد عسكرى يقوده أحمد الخطيب مكونا « جيش لبنان العربى » . »

جريدة النهار : « جنود صربا يتمردون ويستولون على أسلحة ومصفحات كتبوا عليها « جيش التحرير اللبنانى » ، ثم يقيمون حواجز ذهب ضحيتها ١٥ قتيلا مسلما . »

أحد الشوارع المتفرعة من الحمرا . نهارا . مجموعة من الرجال والنساء فى ملابس تشى بإنتمائهم للطبقة المتوسطة يقتحمون سوبر ماركت سبينز . ينهبون محتويات الحانوت من أطعمة وأجهزة كهربائية وخمور . يعودون بأحمالهم إلى حيث تركوا سياراتهم فيفاجأ بعضهم بأنها سرقت . تنشب معركة بينهم يتبادلون خلالها إطلاق الرصاص .

مطعم لى ريليه دى نورماندى . أثناء تناول طعام العشاء . مسلحون يندفعون إلى الداخل ، يجمعون نقود الجالسين وساعاتهم ومجوهراتهم . يجبرون فتاتين على الخروج معهم .

جريدة السفير : « الأحزاب والقوى الوطنية تفوض كمال جنبلاط إتخاذ كل المواقف باسمها بشأن موضوع الحكومة . »

جريدة النهار : « الامام الصدر والمفتى حسن خالد يطالبان بتعديل نسب توزيع المقاعد بين المسلمين والمسيحيين . »

جريدة الانباء : « جنبلاط يقول : الزعماء التقليديون المسلمون الذين يعادون العلمانية ليسوا أفضل من الانعزاليين . »

مدخل قصر المختارة فى جبل الشوف . أسفل البوابة الضخمة العتيقة وقف صفان من المسلحين فى سترات وحطات مزركشة وقد خفضوا فوهات مدافعهم الرشاشة . جنبلاط يرحب بوزير الخارجية السورى عبد الحليم خدام .

صحيفة إسرائيلية . « مردخاى جور ، رئيس الأركان الاسرائيلى ، يقول : الحرب الأهلية فى لبنان أسفرت عن لبنان جديد يختلف عن لبنان بصورته المعروفة . وهو سيشترك بصورة فعالة فى أى مواجهة عسكرية جديدة مع إسرائيل . »

مؤتمر صحفى لكمال جنبلاط . يقول : « الناس يطلبون ثمنا لعشرة آلاف قتيل وعشرين ألف جريح أكثر بكثير مما ورد فى بيان رئيس الجمهورية .. لابد من تعديل الدستور وتبديل النظام السياسى بكامله والقفز فوق عتبات التقليديين ، والانعزاليين المسيحيين والمسلمين على السواء ، لغاية علمنة الدولة وإلغاء الطائفية السياسية .. الحركة الوطنية يجب أن تشترك فى حكومة جديدة موسعة . »

صحيفة السفير : « ٦٦ نائبا من إتجاهات مختلفة بينهم رشيد كرامى وصائب سلام وكمال جنبلاط يطلبون إستقالة فرنجية . »

مطار بيروت . طائرة مدمرة تابعة للخطوط الجوية السورية .

صحيفة لبنانية : « جنبلاط يتهم المكتب الثاني بضرب الطائرة السورية لدفع سوريا إلى التدخل العسكرى . »

صحيفة العمل الناطقة بلسان حزب الكتائب : « الوفد الكتائبى يعود من دمشق بخطة جديدة أهميتها فى سريتها . »

ميناء بيروت . الكتائبيون ينهبون الميناء وينقلون محتوياته من سيارات وأجهزة كهربائية وسجاد وأدوات مختلفة إلى مخازنهم .

عنوان :
قدرت المسروقات بمليار دولار . وأصبح فى وسع أى تاجر أن يدفع ستة آلاف دولار لأحد الكتائبيين مقابل أن يملأ شاحنته بما يشاء من السلع المنهوبة . ثم قام الكتائبيون بتقسيم الغنائم حسب أنواعها ، وعقدوا لها مزادا عاما فى كلية الأخوة المسيحيين بالجميّزة .

شارع المصارف فى بيروت .

عنوان :
تنقل شارع البنوك بين عدة أيدى قبل إنهيار الجيش . لكن الأتاوات التى دفعها أصحاب البنوك بسخاء ، حمتهم من الأذى . إلى حين . فقد قام رجال الكتائب والنمور بتجريد البنك الوطنى مما به من نقد . ونهبت منظمة الصاعقة بنك دى روما . وإستولى مسلحو الجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين على محتويات الخزائن الخاصة للبنك البريطانى التى قدرت بأكثر من مائة وثلاثين مليونا من الدولارات . وعند إنصرافهم بالغنائم إعترضهم مسلحو الصاعقة . فنشب قتال وجيز بين الجانبين حسمته لصالح الجبهة الديموقراطية مدافع ثقيلة وصلت محمولة فوق سيارات عسكرية .

الهيكل الناقص لبرج المر . القذائف تنطلق من طابقه الرابع والثلاثين وتسقط فى منطقة الفنادق التى تحصن بها مسلحو الكتائب .

واجهة فندق « هوليداى ــ ابن » ، ذى السبعة والعشرين طابقا . عمال الفندق يدلون بملاءات بيضاء من نوافذ الطابق الثانى . الردهة الداخلية للفندق . ثريات فخمة تتدلى من السقف . حشد من المسلحين الفلسطينيين الشبان يتجمعون أمام الكاميرا فى صورة تذكارية . فى أيديهم اليسرى مدافع كلاشينكوف . يرسمون باليمنى شارة النصر .

العنوان الرئيسى لجريدة لبنانية باللون الأحمر . العنوان يحتل أغلب النصف الأعلى من الصفحة الأولى : « سقوط الهوليداى — اين فى أيدى القوات الوطنية . »

واجهة الفندق مرة أخرى . على الأفريز أمامها جثة عارية منتفخة . هناك بقايا كيلوت فوق الفخذين . نفس اللقطة فى صورة فوتوغرافية بصحيفة . أسفل الصورة هذه الكلمات : « قناص الهوليداى — اين الكتائبى . وقد سقط هكذا من الطابق الثانى والعشرين للفندق . »

النار تشتعل فى فندق السان جورج . أمام الفندق دبابة تبدو كلمة « الله » بجوار مدفعها . خلفها مصفحة تحمل صورة جمال عبد الناصر فوق عبارة « الاتحاد الاشتراكى العربى » .

مسلح يحمل علم الكتائب ويقف خلف مدفع دوشكا . يرمى العلم ويجرى تاركا المدفع .

عنوان صحيفة : « القوات الوطنية تحكم تطويق فندق الهيلتون والنورماندى ، وتدفع الكتائبيين إلى الخلف حتى ساحة الشهداء . »

عنوان صحيفة : « جنبلاط يقول : وقف النار ليس واردا لدى الحركة الوطنية . »

دائرة حول فقرة من جريدة « البعث » السورية : « ... والأخطر إمتداد اللعبة إلى بعض القوى الوطنية لتصبح طرفا فى تثبيت تقسيم لبنان كأمر واقع ، وترتد المؤامرة ليقع صف من الجانب الوطنى فى مقلب التقسيم والانعزال لهاثا وراء مكاسب آنية بحتة . »

عنوان فى صحيفة لبنانية : « عرفات يعمل على تقريب وجهات النظر بين جنبلاط ودمشق . »

عنوان فى صحيفة أخرى : « جنبلاط يجتمع إلى الأسد تسع ساعات . »

عنوان فى صحيفة ثالثة : « فرنجية يهرب إلى جونية . »

عنوان فى صحيفة رابعة : « جنبلاط يعلن : الطرف الآخر فى طور الانهيار . »

جبل لبنان . أحدث الأسلحة وأثقلها وسط أكوام الجليد . مصيف عالية الجميل بشوارعه الدائرية وبيوته الحديثة الواطئة . القتال يدور من شارع إلى آخر .

طرابلس . النيران تشتعل فى المدينة .

صيدا . سيارة محترقة تسد مدخل المدينة .

الحدود الجنوبية . حشود إسرائيلية كثيفة .

عنوان صحيفة : « القوات الوطنية منتصرة .»

جريدة حزب البعث اللبناني التابع لسوريا : « جنبلاط يخرب المبادرة السورية لصالح المخطط الأميركي . »

عنوان في جريدة أخرى : « الموفد الأميركي براون ، الذى حضر مذبحة الفلسطينيين فى الأردن سنة ١٩٧٠ ، يعلن تأييد بلاده للمبادرة السورية . »

صحيفة واشنطون بوست . براون لمراسل الصحيفة فى بيروت : « جنبلاط قال لى أن الحل الوحيد للمشكلة اللبنانية هو ذبح ١٢ ألف ماروني . »

مؤتمر صحفي لجنبلاط بعد إجتماع الأحزاب الوطنية والتقدمية :
« جنبلاط : ليس هناك إتجاه لوقف اطلاق النار رغم الضغوط السورية .
صحفي : هل تنوى الاستمرار فى المعركة إذا قرر الفلسطينيون وقف اطلاق النار ؟
جنبلاط : نحن حركة لبنانية مستقلة بأهدافها . لأن لنا تطلعات لتبديل الدستور وتغيير النظام السياسى ... ليحل محله نظام ديموقراطى حقيقى يلغى التصنيف السياسى للمواطنين على أساس الأديان والمذاهب ويفصل بين الكنيسة والدولة ... لكن يبدو أن الأنظمة العربية تخاف قيام دولة ديموقراطية علمانية فى الشرق لأنه ليس هناك نظام سياسى عربى ، بإستثناء تونس ، تبنى مبدأ العلمنة ... لا نطالب بدولة إشتراكية ولا بتأميم .. إننا نطالب بتغيير النظام السياسى الذى لم يعد يمكن النخبة اللبنانية من الوصول إلى الحكم .. لن نوقف القتال قبل إستقالة رئيس الجمهورية . »

كمال جنبلاط يغادر المؤتمر الصحفى فجأة ، إثر إتصال تليفونى ، ويستقل سيارته إلى مقر عرفات . جنبلاط ينضم إلى إجتماع من أبو عمار ونايف الحواتمة والمفتى حسن خالد ، وأبو إياد وإنعام رعد وبشير عبيد .

عنوان فى صحيفة السفير : « بعد إجتماع إستمر ساعتين ونصف ، جنبلاط يقول : عرضنا الوضع مع عرفات ومدى الضغوط التى تمارس على الفلسطينيين . ونأسف لتعرض المقاومة الفلسطينية لأى ضغوط على صعيد التموين والأسلحة من أى دولة كانت . »

عنوان :
وفى اليوم التالى ....
عناوين الصحف : « أبو عمار يرحب بوقف إطلاق النار » . « الحركة الوطنية توافق على هدنة عشرة أيام يتمكن خلالها مجلس النواب من الاجتماع لانتخاب رئيس الجمهورية الجديد . »

شارع الحمرا بالقرب من بنك بيبلوس . زحام الناس والسيارات . السلع المختلفة معروضة على

الأرصفة . فتاتان صغيرتان وطفلة إفتصدن الأرض إلى جوار الحائط الرخامي لمتجر مجوهرات . الفتاتان تمدان أيديهما للمارة .

واشنطون . الملك حسين يرتقى درج البيت الأبيض . يتوقف ليعلن للصحفيين : « إنى أؤيد أى تدخل سورى محتمل فى لبنان لمواجهة محاولات المتطرفين تغيير تركيبة الحكم لصالحهم . »

صحيفة أمريكية : « كيسينجير يصف دور سوريا السياسي بانه : كبح جماح العناصر اللبنانية الأكثر تطرفا . »

صحيفة أمريكية بتاريخ ١٤ أبريل (نيسان) : « كيسينجر يصرح بأن الولايات المتحدة وإسرائيل متفقتان على أن التدخل السورى لا يهدد إسرائيل . »

مدرج دمشق . الرئيس حافظ الأسد يخطب : « إننا نملك حرية الحركة بشكل كامل ونستطيع إتخاذ المواقف التى نراها دون أن يستطيع أحد منعنا (تصفيق طويل وحاد) ، نحن ضد من يصر على إستمرار القتال ... قيل لى : نريد أن نحسم عسكريا . قلت كما نقول فى العامية : بدكم عنب ولا تقتلوا الناطور ؟ . (تصفيق حاد) »

صحيفة كويتية : « فرنجية يبرق مهنئا الأسد على خطابه فى مدرج دمشق . » « الجميل يمتدح خطاب الأسد واشتراكيته ويهاجم اليسار الدولى . »

صحيفة إسرائيلية : « وزير الخارجية الاسرائيلى آلون : فيما يتعلق بلبنان ، فان السكوت من ذهب . » « إسحق رابين : إسرائيل رسمت خطا أحمر للقوات السورية هو نهر الليطانى . »

صحيفة لبنانية : « الكتائب تخرق الاتفاق الـ ٣٥ لوقف إطلاق النار . »

الصواريخ تضىء سماء بيروت فى الليل .

صحيفة لبنانية : « ٦٠٠ قتيل وجريح فى يومين . »

مكتب الأمن العام اللبنانى . زحام من أجل جوازات السفر للهجرة .

مؤتمر صحفى لإلياس سركيس يعلن فيه ترشيح نفسه لرئاسة الجمهورية ويرحب بتأييد سوريا له .

عنوان صحيفة : « الأحزاب الوطنية والتقدمية تدعو إلى الاضراب العام وتناشد النواب الامتناع عن حضور جلسة إنتخاب سركيس . »

فندق بريستول فى بيروت الغربية . سيارات مدرعة تتوافد على باب الفندق ويهبط منها مدنيون

يحملون حقائب يد متنوعة . عدد من المسلحين يرافقونهم إلى داخل الفندق .

عنوان :

فى مساء ٧ مايو (آيار) بدأت منظمة الصاعقة فى جمع أعضاء البرلمان فى فندق بريستول . وأصبح معروفا أن ملايين الليرات دفعت للأعضاء ، منها ثلاثة ملايين تقاضاها كامل الأسعد رئيس مجلس النواب ، مقابل عقد الجلسة وإحضار مجموعته البرلمانية . وأكد زهير محسن ، زعيم الصاعقة ، أنه لم يدفع إلا للذين أحضرتهم الصاعقة إلى مقر الجلسة ، وأن هناك مصادر أخرى دفعت .

وفى نفس المساء ، إتصل الشيخ بيار الجميل بكميل شمعون ووعده بارسال شيك بمبلغ مليونين من الليرات السورية مقابل حضوره هو ومجموعته البرلمانية . وأصر شمعون أن يكون الدفع بالليرات اللبنانية ، لأن السورية أقل منها قيمة . كما طلب أن يكون الدفع نقدا . فاتصل الجميل بمدير بنك لبنان — فرنسا ، الذى أصبح وزيرا للمالية بعد ذلك فى حكومة سليم الحص ، وطلب منه سحب المبلغ من حساب صهره عضو مجلس إدارة البنك . وتوجهت سيارة فولكس فاجن إلى مقر البنك ، فحملت المبلغ فى حقائب ، تحميها مجموعة من رجال الكتائب ، إلى مقر شمعون الذى تحرك مع مجموعته البرلمانية فور تسلمه المبلغ .

قصر منصور . المصفحات والمسلحون يحيطون بالمبنى الأثرى ، ذى العمارة التركية . أصوات قصف ورصاص . إثنان من المصورين الأجانب احتميا بهيكل سيارة . نائب متقدم فى السن يعبر الطريق إلى مدخل القصر جريا . خلفه ثلاثة من الحراس المسلحين بالمدافع الرشاشة ، يجرون مطأطئى الرؤوس . أمام مدخل القصر وقف رجل ضخم الجثة أبيض شعر الرأس ، شاهرا مسدسه ليحمى باب سيارة خرج منه نائب محنى القامة .

عنوان :

وقبل إنعقاد الجلسة بلحظات ، فاجأ كامل الأسعد ممثل منظمة الصاعقة بأن المبلغ الذى قبضه هو مقابل عقد الجلسة وحضوره هو شخصيا . ولابد من دفع مبالغ أخرى إلى أعضاء مجموعته البرلمانية من أجل حضورهم ، وإستكمال النصاب القانونى للمجلس وهو ٦٦ عضوا على الأقل .

إلياس سركيس يغادر قصر منصور فى حماية عدد من الضباط والجنود .

عنوان صحيفة : « إنتخاب سركيس رئيسا جديدا للجمهورية . »

عنوان صحيفة أخرى :« جنبلاط يقول : الأنظمة العربية جميعا رجعية حتى التى تدعى

التقدمية . تحقيق العلمنة سيفجر الأنظمة العربية كلها . »

عنوان صحيفة ثالثة : « الامام الصدر يقول : لا فرق بين دعاة العلمنة والاسرائيليين . »

عنوان صحيفة رابعة : « ٣٠٠ قتيل وجريح وإشتباكات بين أنصار العراق وأنصار سوريا . »

عنوان صحيفة خامسة : « قيادة الثورة الفلسطينية تدين حوادث العنف التى إرتكبتها عناصر من جيش التحرير الفلسطينى (التابع لسوريا) والقوات السورية ومنظمة الصاعقة ، وتطلب من القيادة السورية رفع الحواجز التى أقامتها فى مناطق مختلفة . »

عنوان صحيفة إسرائيلية بتاريخ ١٣ مايو (آيار) : « القوات السورية قتلت من المخربين فى الأسبوع الماضى أكثر مما قتلت إسرائيل فى العامين الماضيين . »

مطار بيروت . طائرة سورية قادمة من دمشق . رئيس وزراء ليبيا جلود يهبط درج الطائرة مع ياسر عرفات .

البيت الأبيض فى واشنطون . جيسكار ديستان ، رئيس جمهورية فرنسا ، يتحدث إلى الصحفيين فى أحد الأبهاء : « من المحتمل أن ترسل فرنسا قوة مسلحة إلى لبنان لتوفير الأمن وقد تقاتل هذه القوة فى بعض الأماكن الحساسة . »

مستشفى الجامعة الأمريكية ببيروت . الزعيم المارونى ريمون إدة فى الفراش وفى مقعدين أمامه يجلس كمال جنبلاط ونايف الحواتمة .

عنوان :

فى أعقاب محاولة فاشلة لاغتيال ريمون إدة ، ذهب إلى بيار الجميل فى بكركى وإتهمه بتدبير المحاولة . وفى طريق عودته تعرض لإطلاق النار ومطاردة إنتهت بإصابته برصاصة فى ساقه .

عنوان صحيفة : « إغتيال ليندا جنبلاط . مسلحون ملثمون إقتحموا منزل شقيقة زعيم الحركة الوطنية بشارع سامى الصلح وإغتالوها وأصابوا إبنتها بجراح خطيرة . »

جنازة ليندا جنبلاط . الآلاف يشيعونها .

صحيفة واشنطون بوست : « ثمة شكوك لا يمكن تفاديها بأن كيسينجر طرف أو شريك صامت فيما يشهده لبنان . »

صحيفة لبنانية : « قوات من جيش لبنان العربى بقيادة المعمارى تهاجم قرى مسيحية فى

الشمال . المقاومة الفلسطينية وجنبلاط يتهمان المعمارى بخطة مشبوهة تهدف إلى تبرير دخول قوات سورية إلى المنطقة . »

صحيفة لبنانية : « المعمارى يصرح : أريد أن أسألهم ليدلونى على فريق واحد فى لبنان لا يتعاون مع إحدى الدول العربية . فلماذا يريدون إذن أن أقاوم سوريا وأتصدى لها وهى كانت وستظل قلب العروبة النابض . »

إذاعة دمشق . برقيات إستغاثة من بيروت إلى حافظ الأسد .

عنوان :
وفى اليوم التالى وهو الأول من يونيو (حزيران) دخل ستة آلاف جندى سورى منطقة زحلة وقاموا بتجريد الفدائيين الفلسطينيين من أسلحتهم .

(١٢)

جففت جسدى وإرتديت ملابسى الداخلية ثم غادرت الحمام بعد أن أطفأت نوره . مررت بوديع جالسا أمام التليفزيون ، وولجت غرفتى . أضأت النور ووقفت أمشط شعرى أمام مرآة الصوان . وعندما تناولت قميصى وجدته مشبعا برائحة العرق ، فألقيت به جانبا . وخرجت إلى الصالة وسألت وديع أن يقرضنى أحد قمصانه .

أعطانى قميصا نظيفا أوشكت ياقته أن تبلى . وكان من النوع الذى لا يحتاج إلى كى ، فلبسته على الفور . وأكملت إرتداء ملابسى ثم فتحت باب الصوان ، وجذبت حقيبة سفرى وتناولت منها الكيس الذى أحتفظ فيه بملابسى المتسخة . وحانت منى نظرة إلى قاع الحقيبة فلمحت طرف مفكرتى أسفل بعض الأوراق .

دفعت بالقميص المتسخ إلى داخل الكيس وإلتقطت المفكرة وقلبت صفحاتها .

نقلت البصر بينها وبين قاع الحقيبة . ثم وضعتها فى جيب سترتى . وحملت الكيس إلى الحمام .

ملأت حوضا من البلاستيك بالمياه ، وأفرغت فيه محتويات الكيس . ثم خرجت إلى الصالة .أشعلت سيجارة وقلت :
ـ أخيرا وجدت المفكرة .

قال وديع دون أن يرفع عينيه عن التليفزيون :
ـ ألم أقل لك أنها لن تضيع . أين وجدتها ؟
قلت :
ـ فى حقيبة السفر . لكنى متأكد أنى تركتها على الكوميدينو فى الصباح . .

قال فى شيء من الحدة :
ـ جل من لا يسهو .

أطفأ التليفزيون وغادرنا المنزل . أخذنا سيارة أجرة إلى أحد الشوارع المتفرعة من كورنيش المزرعة . وتركنا السيارة أمام مبنى محطم ، وولجنا مبنى مجاورا حديث البناء ، ذا شرفات عريضة زينتها النباتات .

قال ونحن نرتقى الدرج :
ـ هل تحب أن تصعد إلى الجبل غدا ؟ سأذهب مبكرا مع صحفية كندية . ويمكن أن أطلب منها إحضار صديقة لها .

فكرت لحظة ثم قلت :
ـ لا أظن أنى أستطيع . فلابد أن أعمل .

قال :
ـ غدا الأحد .
قلت :
ـ أعرف . سأعمل فى البيت .

إستقبلنا نزار بعلبكى بوقار متكلف . وقادنا إلى صالة أنيقة الأثاث ، إحتلت

جانبا منها مائدة طويلة من الخشب الثقيل ، حفلت بزجاجات الشراب وأطباق الشواء والمزات . وأحاط بها عدد من الرجال الذين إنهمكوا فى نقاش صاخب .

جلست إلى جوار قصاص عراق يعمل بإحدى دور النشر البيروتية . وكنت أعرف إثنين آخرين من الجالسين ، أحدهما سينمائى سورى منع البعثيون عرض فيلم له عن تربية الأرانب . والثانى باحث فلسطينى يحضر لدرجة الدكتوراه من جامعة القاهرة .

وضع نزار كأسا صغيرة فارغة أمامى وأخرى أمام وديع ، وصب فيهما ملء إصبع ونصف من العرق ثم أضاف نفس القدر من الماء وقطعة من الثلج . وإبتلعت الكأس مرة واحدة .

تبينت أن النقاش يدور حول موقف الشيوعيين اللبنانيين أثناء الحرب الأهلية . وكان ثمة رجل ضخم الجثة ذو شارب كث ، يدعى مروان ، يتهمهم بالخيانة لأنهم أضاعوا فرصة الاستيلاء على السلطة .

كان يتحدث بحدة وعنف غير عاديين ، ويستخدم كلمات من نوع « الانتهازية اليمينية » ، و« خيانة القضية » . وعارضه بنفس الحدة والعنف ، كاتب لبنانى ، مؤكدا أن أحدا ما كان سيسمح لهم بذلك ، إبتداء من أطراف الجبهة اليسارية اللبنانية ذاتها حتى إسرائيل .

لاحظت أن نزار يصغى فى إهتمام دون أن يشارك فى النقاش . ونقل مروان هجومه إلى ميدان جديد قائلا :

ـــ بماذا تفسر أنهم لا يرفعون إصبعا واحدا للدفاع عن المعتقلين اليساريين فى سوريا ؟

لم يتمكن اللبنانى من الاجابة ، إذ إنضم إلينا فى هذه اللحظة الرسام حامل العريضة ، الذى لقيته عند إنطوانيت ، ومعه شاب ذو سوالف طويلة وشفاه غليظة صافحنى بحرارة ، وأوشك أن يقبلنى فى فمى لولا أنى نحيت وجهى فى اللحظة المناسبة . وسرت فى جسدى قشعريرة وأنا أرقبه يوزع قبلات الفم على الجالسين .

وجهت إهتمامى إلى صحن عريض من جمبرى مشوى فى أحجام كبيرة . ملأت

صحتى منه وأنا أحاول أن أتذكر إن كنت أكلت فى حياتى جمبريا من هذا الحجم .

جرعت كأسا أخرى من العرق ، وأقبلت أستمتع بملء فمى من اللحم الأبيض الطرى . ثم أشعلت سيجارة . ورآنى وديع أبحث عن منفضة ، فوضع كأسه على طاولة صغيرة بجواره ، ريثما إلتقط منفضة من فوقها وناولها لى .

نهض نزار فجأة منفعلا ، فأحضر منشفة وهرع إلى الطاولة الصغيرة ، فرفع الكأس من فوقها وجفف سطحها فى عناية شديدة .

إضطرب وديع ، ومد يده فتناول كأسه من نزار وهو يتمتم معتذرا . ودققت النظر إلى سطح الطاولة الذى خلته من الفورمايكا العادية .

خاطبنى مروان بغتة :

ـ هل سمعت ما قاله السادات أمس لصحيفة جيروزاليم بوست ؟

هززت رأسى نفيا . وأطرق وديع برأسه قائلا :

ـ أنا قرأته . ذكر أنه يقوم بإعداد قرار سياسى هام .

قال مروان :

ـ ووصف القرار بأنه سيكون خطوة تاريخية . ترى ماذا ينوى ؟

قلت :

ـ لم يبق إلا الانضمام إلى حلف الأطلنطى أو عقد اتفاقية دفاع مشترك مع إسرائيل .

ذكر أحد الجالسين إسم زياد الرحبانى فتحول الحديث إلى مسرحيته الجديدة المسماة « فيلم أميركى طويل » . وإستفسرت من نزار عن مغزى الاسم فقال إنه مشتق من برامج التليفزيون التى يوصف فيها فيلم السهرة عادة بهذه العبارة .

عقب مروان بطريقته الحادة القاطعة :

ـ زياد إنتهى تماما . لقد فقد كل رصيده من أيام الحرب .

قال لى وديع موضحا :

ـ كان وقتها مع اليسار .

سألته :

ـ والآن ؟

أجاب :
ـ لا أحد يعرف أين يقف .

ملأت كأسى وأنا أنقل البصر بين الجالسين حول المائدة . وتساءلت بينى وبين نفسى عن مدى إنطباق عبارة وديع على كل واحد منهم .

(١٣)

لم تكفل لى كمية الشراب التى إحتسيتها نوما عميقا متصلا . فقد شعرت بوديع عندما غادر المسكن فى الصباح الباكر . ولم أتمكن من النوم بعد ذلك .

تركت الفراش أخيرا فى تثاقل . فاغتسلت وأفطرت . وأعددت كوبا كبيرا من القهوة . ثم جلست أراجع المشاهد التى سجلتها من الفيلم . وقبل الظهر بقليل دق جرس التليفون .

رفعت السماعة فجاءنى صوت لميا :
ـ كيفك ؟ هل أيقظتك من النوم ؟
قلت :
ـ أبدا .
قالت :
ـ ماذا تفعل اليوم ؟ هل ستتولى أمرك إحدى نساء بيروت ؟
قلت :
ـ لا أعرف منهن غيرك .
ضحِكَتْ .
سألتها :
ـ هل قرأت الكتاب ؟

قالت :
ــ قرأت جزءا كبيرا منه . لكن نتكلم فيما بعد . ما رأيك فى أن أدعوك للغذاء ؟
قلت :
ــ هذا شرف كبير لى .
قالت :
ــ سأمر عليك بعد ساعة بالتمام .
قلت :
ــ لكن من غير مرافق .
ضحكت وقالت :
ــ سأحاول . على أى حال اليوم عطلة عند الجميع .

وصفت لها موقع المنزل وأعدت السماعة إلى مكانها . أشعلت سيجارة وبحثت عن زجاجة من الكونياك الفرنسى كان وديع قد إبتاعها منذ يومين ، فأفرغت منها كأسا تشممتها فى إستمتاع . وأخذت رشفة احتفظت بها فى فمى لحظة قبل أن أبتلعها .

مضيت إلى الحمام فتأملت وجهى فى المرآة وتحسست ذقنى . حلقت ، لكن الصورة التى طالعتنى لم تتحسن كثيرا . أخذت حماما سريعا أحسست بعده بالانتعاش . كانت السماء ملبدة بالغيوم ، وثمة لسعة برد فى الجو ، فارتديت بزتى الكاملة وجلست أحتسى كأسى فى الصالة .

فرغ كأسى فملأت واحدة جديدة . وما أن أتيت عليها حتى جاءنى من الشارع صوت « زمور » سيارة ، كما يسميه اللبنانيون . وتكرر الصوت فأسرعت إلى الشرفة . رأيت رأسها بارزا من نافذة السائق فى سيارة بيضاء من مقعدين . لوحت لها بيدى وأسرعت إلى الداخل بعد أن أغلقت باب الشرفة . وتناولت رشفة من زجاجة الكونياك مباشرة ، ثم هبطت إلى الطريق .

فتحت لى باب السيارة ، فلفحنى عطرها وأحاط بى وأنا أستقر إلى جوارها . كانت ترتدى بنطلونا أبيض وبلوزة حريرية من نفس اللون ، وتضع على كتفيها صديرية وردية اللون من الصوف . وكان شعرها مضموما فى خصلة واحدة ،

إستقرت على صدرها . وإحاطت بعنقها قلادة عريضة من اللؤلؤ .

إتجهت السيارة إلى الروشة . وأتانى الهواء باردا من النافذة ، فمددت يدى بحثا عن المقبض الذى يرفع زجاجها ، لكنها إستوقفتنى قائلة :

ــ لا تتعب نفسك .

ومدت إصبعا ذا طرف قرمزى ، فضغطت زرا أمامها . وبدأ الزجاج « الفيميه » يرتفع من تلقاء نفسه .

ضَغَطَتْ زرا آخر ، فإنسابت موسيقى فيلم « الأب الروحى » . وإسترخيت فى مقعدى أتأمل الشوارع الخالية والمتاجر المغلقة والهدوء السائد .

قالت :

ــ لو بقيت معنا حتى الكريسماس ستستمتع بالثلج .

قلت :

ــ لا أحبه كثيرا .

قالت :

ــ أما أنا فأعشقه . أمنيتى أن أذهب إلى موسكو .

إلتفتت نحوى وتطلعت إلى كأنما تسألنى رأيي .

قلت :

ــ موسكو مدينة تستحق أن تُرى .

قالت :

ــ هل تحصل لى على دعوة ؟

نظرت إليها مدهوشا :

ــ من تظنيننى ؟ مندوب الكومينترن فى الشرق الأوسط ؟

ضحكت وقالت :

ــ ألا تقبض منهم ؟

قلت :

ــ طبعا .

إخترقنا عدة شوارع قبل أن يتجلى لنا البحر . وتوقفنا أسفل لافتة بارزة تعلن عن مطعم .

سألتها إن كان لديها زر يفتح الباب ، فضحكت قائلة :
ــ ليس بعد .

غادرنا السيارة ، وتقدمتنى بخطوات رشيقة مغناجة إلى مدخل المطعم . وتبعتها وأنا أتأمل حركة ردفيها فى البنطلون الضيق .

إجتزنا المدخل إلى حديقة واسعة ، قسمت إلى خمائل مستقلة ، تضم كل منها عدة مقاعد مريحة وطاولة عريضة من القش .

كنا الزبائن الوحيدين تقريبا ، فاحتفى بنا عدد من النوادل فى تهذيب بالغ . طلبنا عرقا وشواء . وسرعان ما إمتلأت المائدة بأطباق التبولة والكبة والحمص والطحينة والفجل الأحمر والنعناع الأخضر واللبن .

جرعت كأسا من العرق ، وإكتفت هى برشفة واحدة ثم قالت :
ــ مشكلة كتابك أن توزيعه يكاد يكون مستحيلا .
ــ لماذا ؟
ــ أنت لم تترك نظاما واحدا من الأنظمة العربية دون تعريض . ثم إن هناك قدرا كبيرا من الجنس .

أشعلت سيجارة وقلت :
ــ لقد ذكرت كل هذا لعدنان فى مراسلاتنا . لكنه لم يعترض على شىء .
ــ لا أظن أنه تصور أنك ستمادى إلى هذا الحد .
ــ والنتيجة ؟

مدت يدا حفلت بالخواتم الفضية ، فوضعتها فوق يدى قائلة :
ــ لا تنزعج . أنا لم أقرأه كله بعد . ثم أن عدنان له الرأى الأخير . وأعتقد أنه مهم بأن ينشر لك .
ــ إذن دعينا من هذا الموضوع وحدثينى عن نفسك .

رفعت حاجبيها :
ــ ليس هناك ما يحكى .
ــ حاولى .
ــ أنا أكذب كثيرا .
ــ لا بأس .

قالت وهى تدير كأس العرق بين أصابعها :
ــ كنت دائما أتمنى أن أكون كاتبة . تزوجت عن حب . وزوجى تحسدنى عليه الأخريات . عندى بنت فى السادسة . عملى مع عدنان يملأ حياتى . وقد حصلت عليه بعد صراع طويل مع عائلته التى كانت تريدنى فى دور ربة المنزل ... هذا هو كل شىء .

لم أرفع عينى عن بشرتها الموردة وشفتيها الناعمتين .

سألتنى :
ــ وأنت .. متزوج ؟

أجبت :
ــ كنت .
ــ والآن لديك طبعا صديقة ؟
ــ زوجتى كانت صديقتى الوحيدة .
ــ معقول ؟

أشعلت سيجارة وقلت :
ــ بودى لو تجمعى شعرك إلى الخلف .

رفعت يديها إلى شعرها وضمته إلى الخلف ، ثم عقدته على هيئة ذيل حصان .

إستأذنت منى كى تغادر المائدة ، وغابت بضع دقائق . وقالت بمجرد عودتها :
ــ ما رأيك فى أن ننصرف .

قلت :

ـــ لكن القنينة لم تفرغ بعد .

قالت :

ـــ لابد أن أمر على المنزل من أجل إبنتى .

غادرنا المطعم وإنطلقنا إلى وسط المدينة . وأدارت الراديو فجاءتنا موسيقى غربية خفيفة ، لكنها حركت المؤشر ، وإنتقلت به من موسيقى كلاسيكية إلى نشرة الأخبار وبرنامج للأطفال . وإستقرت به أخيرا عند أغنية لفريد الأطرش .

ظل نحيب فريد الأطرش يتردد فى أذنى حتى وصلنا إلى قرب مبنى التليفزيون . أوقفت السيارة أمام مبنى فخم ذى مدخل عريض ، يتألف من عدة طبقات من الدرجات الرخامية .

كان ثمة عدد من الحراس فى ملابس مدنية ، إصطحبنا أحدهم إلى أحد المصاعد . وأخرجت لميا مفتاحا من حقيبة يدها ، ففتحت باب المصعد . ولجته خلفها ووقفت أتأمل لوحة الأزرار التى توسطها زر واحد لا غير .

خطوت خلفها عندما توقف المصعد ، فغاصت قدماى فى طبقات من السجاد الوثير . وألفيتنى فى ردهة فاخرة الأثاث . وتبعتها إلى غرفة واسعة تغطى الأخشاب المزخرفة جدرانها .

قالت :

ـــ لحظة .

وتركتنى .

كان ثمة كنبة عريضة ، ذات رياش سميك أبيض اللون تمتد بطول أحد الجدران ، تحمل عددا لا حصر له من الوسائد الصغيرة فى ألوان من درجات الأبيض والبنى . وأمامها مقاعد من نفس الطراز . وطاولة خشبية واطئة ، ذات سطح مصقول وحافة سميكة .

وحل محل الجدار الثانى ، مصراعان كبيران منزلقان من الزجاج ، ظهرت خلفهما قاعة أخرى ، تدور بجدرانها مقاعد ذات ظهور عالية مذهبة ، ومزينة بالنقوش العربية ، وطاولات صغيرة تعلوها صوانى من النحاس ، إستقرت بينها مرآة كبيرة ،

أوشكت أن تلمس السقف .

أما الجدار المواجه للكنبة ، فشغلته ثلاث لوحات زيتية ذات أسلوب حديث ، ومكتبة خشبية .

إقتربت من المكتبة ، وقلبت بين كتبها . كانت هناك نسخة فاخرة من القرآن ، وعدة روايات لاحسان عبد القدوس . وطبعة جيب من كتاب الدكتور سبوك عن رعاية الطفل ، وترجمة إنجليزية لرواية فرنسية تدعى « انجيليك والسلطان » ، بالاضافة إلى عدة مجلات أمريكية ، وأخرى نسائية فرنسية . وتبينت فيما خلته للوهلة الأولى صفا من كتب الجيب الأمريكية ، علبا من أفلام الفيديو ، تضم أحدث الميلودرامات المصرية . وكان الجهاز نفسه فوق رف مستقل . وإنفردت صورة فوتوغرافية متوسطة الحجم لعدنان الصباغ ، فى إطار مذهب ، برف آخر .

تأملت وجهه الباسم ثم إتجهت إلى مقعد بمسندين إلى جوار الكنبة ، فغصت فيه . ورحت أتأمل واحدة من اللوحات الزيتية تتألف من صفوف طولية متوازية من مربعات بيضاء صغيرة تحيط بها مربعات حمراء أكبر منها حجما . وفى نقطة من منتصف اللوحة ، لا تتضح لأول وهلة ، كان الحال ينقلب ، فتصبح المربعات الحمراء هى الأصغر داخل المربعات البيضاء .

أحضرت فتاة عادية الملامح ، فى ملابس نظيفة وحذاء ، صينية الشاى . وكان الابريق الخزفى على شكل عصرى ذى خيوط إنسيابية ، ويد عريضة مطلية بماء الذهب . وتألف إناء السكر من كتلة واحدة يعترضها فى المنتصف خط رفيع لا يكاد يبين ، يفصل بين الإناء وغطائه المذهب .

صببت لنفسى فنجانا ، وقلبت محتوياته بملعقة مذهبة . وكنت أهم باشعال سيجارة عندما عادت لميا ، فجلست على الكنبة ، وسألتنى أن أعطيها واحدة .

قالت :

ـــ هل أعجبك منزلى . ؟

قلت :

ـــ جدا . رغم أنى لم أر غير جانب صغير منه .

قالت ضاحكة :

ـــ سترى الباقى فيما بعد .

صببت لها الشاى وسألتها عن إبنتها فقالت :

ـــ ذهبت إلى عمتها .

أخذت من فنجانها رشفة ثم وضعته على المائدة ونهضت واقفة وهى تقول :

ـــ هيا بنا .

تبعتها إلى المصعد . وقالت ونحن نهبط :

ـــ تحب أن نذهب إلى المسبح ؟

قلت :

ـــ فى هذا البرد ؟

لم تعلق . وركبنا السيارة . وجعلت تقود وهى ساهمة .

سألتها بعد قليل :

ـــ إلى أين ؟

قالت :

ـــ لا أعرف . أين تريد أنت أن تذهب ؟

قلت :

ـــ ليس إلى مكان محدد .

مررنا بملصق يحمل إعلانا عن فيلم لروجيه فاديم تقوم ببطولته « سيلفيا كريستيل » . وكنت قد رأيتها فى فيلم « إيمانويل » الذى قامت فيه بدور إمرأة تستمتع بكافة أشكال الجنس .

قالت لميا :

ـــ لقد رأيتها شخصيا .

قلت :

ـــ وجهها يعجبنى جدا . تعالى نتفرج عليها .

قالت :

ـــ لو رآنى أحد معك فى السينما تصير قصة . سأوصلك إلى منزلك .

لزمت الصمت حتى بلغنا المنزل فقلت :

ــ ما رأيك فى فنجان من القهوة عندى ؟

قالت :

ــ تقصد عند وديع ؟

قلت :

ــ وديع فى الجبل ولن يعود قبل المساء .

قالت بلهجة الأفلام المصرية :

ــ أوكى يا بيه .

كان هناك مكان فارغ أمام المنزل مباشرة ، يتسع للسيارة . لكنها قامت بعدة مناورات ، لتقف فى زقاق جانبى بمنأى عن الطريق العام .

شعرت بقذارة المسكن والفوضى المتفشية فى أرجائه بمجرد دخولنا . أجلستها فى الصالة ثم فتحت باب الشرفة ، ورحت أجمع الكتب والمجلات والملابس المتناثرة على المقاعد . ثم أحضرت زجاجة الكونياك وكأسين . وضعت كأسا أمامها ، فألقت بيدها فوقها وأتلعت رأسها ناحيتى قائلة :

ــ القهوة .

صببت لنفسى كأسا جرعتها مرة واحدة ومضيت إلى المطبخ فأعددت القهوة . وتركتها تغلى بعض الوقت لتكتسب المرارة التى يحبها أهل الشام ، ثم حملتها فى فنجانين فوق صينية مستديرة من البلاستيك الملون .

سألتنى وأنا أصب لها :

ــ ما هى أخبار الفيلم ؟

قلت :

ــ كيف عرفت ؟

قالت :

ــ بيروت مدينة صغيرة لا يخفى فيها شىء .

قلت :

ــ سننتهى بعد اسبوع تقريبا .

ابتسمت فى خبث وقالت :
ــ أنطوانيت مخرجة جيدة .

قلت وأنا أجلس فى مواجهتها :
ــ فعلا .
ــ أرجو ألا يكون الفيلم عن بطولات الفلسطينيين وتضحياتهم .
ــ وماذا لو كان ؟

هزت كتفها وقالت :
ــ لا شىء . سوى أننا مللنا هذا النوع من الأفلام . ثم أنهم سبب البلاء الذى نعيش فيه .

لم أعلق . وسألتها بعد لحظة :
ــ هل كنت فى بيروت أثناء الحرب الأهلية ؟
قالت :
ــ لا . كنت فى لندن طول الوقت .

بدأت أشعر بالصداع فقمت أبحث عن قرص من الاسبرين . ووجدت واحدا فى حقيبتى ، فإبتلعته برشفة من الكونياك وعدت إلى مقعدى .

تأملت شفتيها ثم قلت لها فجأة :
ــ نفسى أبوسك .

خرجت الكلمات من فمى ثقيلة بفعل الخمر . وتململت هى فى مكانها بخجل مفتعل . فانتقلت إلى جوارها على الكنبة ، وأحطتها بذراعى .
قالت :
ــ الشرفة .
قمت إلى الشرفة فبسطت الستارة فوق بابها . وعدت إلى مكانى بجوارها ثم استدرت بكل جسدى نحوها .

رفعت إلىّ فمها ، فوضعت شفتى عليه ، وإستمتعت بلمس شفتيها الناعم .

حركت فخذها وألصقته بى . ثم لمستنى بركبتها بين فخذى . وأمكنها أن تتبين أنى لم أكن مشدودا .

تخلصت منى برفق دون أن تبعد ركبتها . وأردت أن أقول شيئا ، ففتحت فمى . وبدا لى أن لسانى يتحرك بصعوبة بالغة .

كان اليوم مليئا بالأخطاء . فقد بدأت الشراب فى ساعة مبكرة . ثم خلطت بين أنواعه . والآن أردت أن أقول لها شيئا فخاطبتها بإسم زوجتى السابقة .

إبتعدت عني وقد إتسعت حدقتاها وشحب وجهها . وحاولت أن أشرح لها كيف أن الحرف الأول من إسمها هو نفس الحرف الأول من إسم زوجتى ، وأن الخمر أثقلت لسانى . وأجهدتنى المحاولة فركنت إلى الصمت .

قالت بعد لحظة :

ــ الوقت تأخر ولابد أن أنصرف .

قلت :

ــ إبقى قليلا .

قالت :

ــ معليش . ربما جاء وديع . يجب أن أذهب .

رحبت فى أعماق بذهابها ، فقمت واقفا . تناولت حقيبة يدها وسألتنى عن مكان الحمام ، فأرشدتها إليه .

وقفت أنتظرها فى الصالة حتى عادت بعد أن سوت شعرها وهيئتها . وصحبتها إلى الباب فقالت :

ــ لا داعى .

وضعت يدى على ذراعها ، فإقتربت منى . قبلتها فى شفتيها ، وقلت بصوت حاولت أن أضفى عليه رنة الصدق :

ــ لا أريد أن تذهبى .

إلتصقت بى ، وقوست فخذيها حتى أمكنها أن تلمسنى . لكن شيئا هناك لم

يكن قد تغير ، فابتعدت عنى قائلة :
ـــ يجب أن أذهب .

رفعت يدها إلى وجهى ولمست خدى بأصابعها ، ثم أضافت :
ـــ شربت كثيرا اليوم . كلمنى غدا .
قلت :
ـــ سأفعل .

فتحت الباب ، وهممت بإستدعاء المصعد ، فإستوقفتنى قائلة إنها تفضل الدرج . ولوحت بيدها هامسة :
ـــ باى باى .

إنتظرت حتى إختفت فى منحنى الدرج ، ثم دخلت وأغلقت الباب خلفى .

(١٤)

ردت على أنطوانيت تحية الصباح دون أن ترفع عينيها عن الأوراق المتناثرة فوق مكتبها . وعندما جلست على مقعد أمامها ، إكتشفت أن جفونها متورمة ، وأنها وضعت كمية كبيرة من الكحل لتخفى التورم . وشعرت أنها متوترة للغاية .

قامت إلى المطبخ الصغير المجاور وهى تقول :
ـــ نشرب القهوة ثم نبدأ .

تناولت الصحف من فوق مكتبها ، وألقيت نظرة سريعة على عناوينها . كانت المحاولات مازالت مستمرة لانقاذ مؤتمر القمة العربية المقرر عقده بعد أسبوع فى عمان . وفى مسقط أعلن السلطان قابوس أن الاتحاد السوفييتى هو المسئول عن عدم الاستقرار فى منطقة الخليج ، وطالب دول العرب بالتصدى لسياسة السوفييت

التوسعية . وفى الخرطوم بحث مسئول أمريكى متطلبات الدفاع السودانية . وفى واشنطون أعلن بيجين أن حكومته لن تتخلى عن مرتفعات الجولان السورية المحتلة . وفى باريس قالت الفيجارو أن سوريا أصبحت إثيوبيا أخرى فى قلب الشرق الأوسط بعد إبرام معاهدة الصداقة والتعاون بينها وبين الاتحاد السوفييتى .

عادت أنطوانيت بالقهوة ، فلمحتنى أتثاءب . قالت :

ــ يبدو أنك سهرت أمس .

قلت :

ــ أبدا . دخلت الفراش مبكرا . لكن نومى كان متقطعا . ربما بسبب جو الأحداث المتلاحقة .

قالت وهى ترتشف من فنجانها :

ــ عندما كانت المعارك على أشدها كنت أنام بعمق . المسألة مسألة تعود . وصوت الرصاص يمكن التعود عليه بسهولة . بعكس أشياء أخرى .

ــ مثل ؟

تطلعت داخل فنجانها وأجابت :

ــ أن تجلس لتأكل بعد ان تشهد عددا من الجثث المتعفنة . أن تندلع الحرائق وتنطلق القذائف بينما الراديو يذيع موسيقى البوب . أن يعترضك عدد من المسلحين ويطلبوا منك هويتك ليعرفوا مذهبك الدينى ، دون أن تعرف أنت مذهبهم هم . أو أن تقضى يوم الأحد بمفردك بين أربعة جدران .

قلت :

ــ أنا جربت حكاية الأحد هذه كثيرا .

أعادت فنجانها إلى طبقه ، وتناولت حقيبة يدها وتقدمتنى إلى غرفة المونتاج دون تعليق . عاونتها فى حمل علب الفيلم من خزانتها ، وفى تثبيت البكرة التى سنشهدها . ثم أعددت أوراق وقلمى ، وإتخذت مكانى أمام شاشة المافيولا .

الفصل الثالث من الفيلم

عنوان :

فى نفس يوم التدخل السورى فى لبنان ، وهو أول يونيو (حزيران) ١٩٧٦ ، وفيما صورته وكالات الأنباء الغربية على أنه دعم للتحرك السورى ، وصل رئيس الوزراء السوفييتى كسيجين إلى دمشق ، على رأس وفد رسمى كبير .

مطار دمشق الدولى . أعلام الاتحاد السوفييتى فى كل مكان . موكب المسئوول السوفييتى الكبير يتحرك من أمام المطار .

العنوان الرئيسى لصحيفة البعث السورية : « كسيجين بعد أول جولة مباحثات مع الرئيس القائد حافظ الأسد : نؤيد إستئناف مؤتمر جنيف فى أقرب وقت ممكن ، مع إشتراك جميع الأطراف المعنية مباشرة بأزمة الشرق الأوسط ، ونؤيد القوى اللبنانية التى تناضل من أجل الوحدة الوطنية ووحدة الأراضى وتسوية الأزمة بالطرق السلمية . »

عناوين متفرقة فى الصحف اللبنانية : « المجلس الاسلامى برئاسة شفيق الوزان يرحب بالتدخل السورى » . « كمال شاتيلا ، أمين إتحاد قوى الشعب العامل (الناصرى) ، يرحب بالخطوة السورية ، ويهاجم الرجعيين والانعزاليين والاقليميين الذين يلتقون على العلمانية والحرية الجنسية والعداء للعروبة . » « الشيعة وحراس الأرز والكتائب يرحبون بالتدخل السورى ويباركون الرئيس السورى الشجاع » . « العراق يقدم ثلاثة ملايين دولار للجبهة العربية المشاركة فى الثورة الفلسطينية . »

بيروت . مكتب لمنظمة الصاعقة فى الشياح . قوات فتح تحاصر المبنى . قوات أخرى من فتح تحاصر مكتباً لتنظيم كمال شاتيلا فى حى كراكاس .

عنوان :

وردا على ذلك تحركت القوات السورية صوب بيروت . فاستنجدت المقاومة بالليبيين والجزائريين طالبة وقف القوات المتقدمة مقابل إعادة كل شيء إلى ما كان عليه . وتم إخلاء مكاتب الصاعقة وشاتيلا .

عنوان صحيفة لبنانية : « القوات السورية تحتل الشمال اللبنانى كله . »

فقرة من صحيفة « برافدا » السوفييتية : « الصراع المسلح بين الأطراف المتنازعة فى لبنان أوشك على الانتهاء بفضل التدخل السورى . »

زهير محسن ، زعيم الصاعقة ، من راديو دمشق : « فتح تحولت من أداة للثورة إلى خنجر موجه ضد شعب فلسطين . »

عنوان فى صحيفة لبنانية : « القوات السورية والصاعقة تمطر بيروت والمخيمات بالصواريخ . ٧٠٠ قتيل وجريح . تصدع نحو ٤ آلاف منزل . الصواريخ تتساقط بمعدل قذيفة كل ست دقائق . »

موسكو . مقر وزارة الخارجية السوفييتية . مسئول سوفييتي يقرأ بيانا عاجلا على الصحفيين : « بالنسبة لسوريا التى أعلنت أن مهمة قواتها المساعدة على وقف النزيف فى لبنان ، الملاحظ أن الدم مازال يسيل فى مزيد من الغزارة . »

دمشق . مدخل القصر الجمهورى . رئيس الوزراء الأردنى وزيد بن شاكر القائد العام للجيش الأردنى برفقة مصطفى طلاس وزير الدفاع السورى .

دائرة حول فقرة من صحيفة اسرائيلية : « القسم الأكبر من القوات السورية التى رابطت فى الأشهر الأخيرة بين دمشق والخطوط الاسرائيلية سحب وأرسل إلى لبنان والحدود السورية العراقية . »

عنوان فى صحيفة لبنانية : « القوات السورية تجرد المواطنين من الأموال والممتلكات والمواد التموينية . » صورة برقية مرسلة من الزعيم المارونى ريمون إدة إلى الرئيس حافظ الأسد : « الجيش السورى سرق منزلى فى صوفر ... ويعزينى أنه لم يستثن منزل رشيد كرامى . »

صوفر . جندى سورى يتحدث إلى فريق التليفزيون الفرنسى : « نحن ننتظر دورنا بفارغ الصبر . المجىء إلى لبنان كان دائما حلما .. الحوانيت المليئة ، والسلع المستوردة والأفلام والنساء . يختاروننا من كل تشكيل فى الجيش كى لا نكون عصبة . وليشعر الجميع فى الوقت نفسه أن فرصة الذهاب إلى لبنان متاحة للجميع على قدم المساواة . »

الرئيس حافظ الأسد يخطب فى حشد جماهيرى : « ... هَاجَموا الجنود السوريين الذين دخلوا لمساعدتهم .. إخترنا هؤلاء الجنود من مختلف قطاعات الجيش ، وتعمدنا أن نختار هذا الاختيار ، تعمدنا أن يذهب جنود كل تشكيل من تشكيلات الجيش السورى لأسباب قومية ، ليدافعوا عن المخيمات ، ولتقوى روح الدفاع عن القضية الفلسطينية وعن المخيمات فى كل تشكيل من تشكيلاتنا فى سوريا . »

القاهرة . مذيع التليفزيون يقرأ موجز نشرة الأخبار : « وزراء الخارجية العرب يقررون إحلال قوات أمن عربية محل القوات السورية فى لبنان . »

بيروت . حى الأشرفية فى المنطقة الشرقية . عبد السلام جلود ، رئيس وزراء ليبيا ، فى سيارة

أبو الحسن ، مسئول أمن فتح . السيارة تتوقف أمام منزل بيار الجميل .

عنوان :

وبينما كان الحل اللبنانى يشق طريقه الى الوجود تحت مظلة عربية ، قام أعضاء منظمة يسارية صغيرة تسمى نفسها حزب العمل الاشتراكى العربى ، على صلة بالجبهة الشعبية لتحرير فلسطين التى يرأسها جورج حبش ، بإختطاف السفير الأمريكى ومستشار السفارة ، وسائقهما اللبنانى . ووقع الاختطاف فى المنطقة الغربية ، قبل أن تصل سيارة السفير إلى الحد الفاصل بين المنطقتين ، فى طريقها إلى مقر سركيس . وبعد ثلاث ساعات أكتشفت جثث الثلاثة فى محلة الجناح .

عنوان فى صحيفة لبنانية : « الحكومة السوفييتية تقدم مساعدة فورية من المواد التموينية والطبية إلى الحركة الوطنية والمقاومة الفلسطينية عن طريق مطار بيروت والموانىء الأخرى . »

عنوان فى صحيفة البعث السورية : « وزير الاعلام السورى ينفى أن هناك قتالا بين القوات السورية ومايسمى بالقوات المشتركة (اللبنانية والفلسطينية) ويقول : ما يجرى فى لبنان هو قتال بين المنظمات الفلسطينية . »

دائرة حول فقرة من صحيفة سوفيستكايا روسيا السوفييتية : « بالرغم من التصريحات السورية المتكررة حول مساعدة لبنان على وقف النزيف الدموى ، فان الدماء لاتزال تسيل فى الواقع بصورة أكبر منذ دخول القوات السورية هذا البلد ، وهى التى تقصف فى كثافة المناطق التى تسيطر عليها القوات الوطنية وتقع بها مخيمات الفلسطينيين .

عنوان فى صحيفة لبنانية : « الرئيس فرنجية ـــ قبل أيام من مغادرته لمنصب الرئاسة ـــ يعين كميل شمعون نائبا لرئيس الوزراء ووزيرا للداخلية والبريد والبرق والهاتف والموارد المائية والكهربائية والشئون الخارجية والمختربين والتربية الوطنية والفنون الجميلة والتصميم العام »

فتاة ممشوقة القوام فى ملابس عسكرية ، وقد إنسدل شعرها على كتفيها ، تستعرض عددا من المسلحين والمسلحات ، يحملون جميعا شارة « نمور الأحرار » ، ميليشيا شمعون .

مسلحون يحملون نفس الشارة ، يقفزون فى الهواء وهم يصرخون صرخة الهجوم .

أزقة ضيقة تمتد مصارف المياه غير المغطاة فى منتصفها . أمام كوخ من الصفيح وقف شاب يصب الماء من علبة بلاستيكية لشاب آخر أقعى أمامه على الأرض يغتسل .

ساعة الغروب فى نفس المكان عشرات الرجال من مختلف الأعمار فى ملابس متواضعة

بخطوات منهكة ، يظهرون فى الطرقات قادمين من الخارج ، ويدخلون الأكواخ والمنازل الواطئة .

عنوان :
يقع مخيم « تل الزعتر » فى بيروت الشرقية ، قرب المنطقة الصناعية . وأغلب سكانه من الفلسطينيين واللبنانيين ، وفقراء الأكراد والمصريين والسوريين ، مسلمين ومسيحيين ، بالاضافة إلى عدد من المنفيين السياسيين من مختلف البلدان العربية .

وتحظى الرهبانيات المارونية بملكية النصيب الأكبر من الأرض التى يشغلها المخيم . وكانت تسعى دائما إلى إزالة المخيم من أجل إسترداد الأرض التى إرتفع ثمنها فى السنوات الأخيرة . ومن ناحية أخرى ، فان موقع المخيم يحول دون أن تصبح المنطقة الشرقية بكاملها ، تحت السيطرة المارونية الكاملة .

منظر عام لمخيم « تل الزعتر » . مصفحات تحمل علامة « النمور » تطوق المخيم من كل ناحية . القذائف والصواريخ تتطاير فوق منازله . مدفع هاون فوق عربة مدرعة فى القلعة يصب نيرانه على المخيم .

شمعون ، بشعره الفضى المصفف فى عناية ، ونظارته السوداء بين أصابعه ، يستمع جالسا إلى تقارير قادة « النمور » وهو يبتسم .

عنوان فى صحيفة لبنانية : « جنبلاط يقول : الهجوم على تل الزعتر سباق على الزعامة المارونية بين شمعون و الجميل . »

عناوين صحف لبنانية : « بيروت بلا ماء ولا كهرباء ولا بنزين » . « الكاز ١٨ ليرة » . « حصار تموينى من القوات السورية » . « الدولار يرتفع إلى ٣٣٠ قرشا لبنانيا والمصارف الأمريكية والكندية تحقق أرباحا بالمليارات .»

عربة خشبية يجرها حمار وقد إمتلأ صندوقها الخلفى بالمواطنين ، وحمل أحدهم لافتة عريضة فوقها هذه العبارة : « هكذا كان أجدادنا . لسنا بحاجة للبنزين . »

شارع فى بيروت . مسلح فلسطينى يحمل شارة « فتح » يوزع الدقيق من فوق شاحنة عسكرية . مئات الأيدى تمتد إليه .

مبنى شركة الكهرباء فى بيروت الشرقية .

عنوان :
بعد أن قطع المتحاربون الخطوط الثلاثة عشر التى تغذى شطرى المدينة بالكهرباء ، نجح

فؤاد بزرى ، رئيس الشركة الذى أصبح يدعى « أبو النور » ، فى اتمام اتفاق بين ياسر عرفات والكتائب ، يرسل الزعيم الفلسطينى بموجبه ناقلتين بحريتين صغيرتين محملتين بالوقود الثقيل ، إلى محطة الكهرباء فى المنطقة المسيحية ، على مبعدة كيلومترات معدودة من بيروت ، كى تتمكن من تزويد قسمى المدينة بالتيار .

عنوان صحيفة : « القوات الوطنية والفلسطينية تتقدم فى إتجاه عين الرمانة ، بهدف تخفيف الضغط على تل الزعتر » .

عنوان :
وفى ٢٧/٦ أعلنت الكتائب دخولها معركة تل الزعتر .

مؤتمر صحفى للنائب أمين الجميل : « الكتائب إشتركت فى الهجوم على تل الزعتر لأن الذين خططوا وبدأوا الهجوم عجزوا عن الاستيلاء عليه . »

ملصق يحمل توقيع « النمور » ، ويحمل صورة فتاة حسناء . أسفل الصورة بالفرنسية : « سعدة خياط ، أول إمرأة لبنانية تسقط فى ساحة الشرف أثناء الهجوم على تل الزعتر . »

مؤتمر صحفى لجلود ، رئيس وزراء ليبيا : « المؤامرة كبيرة ودولية .. لقد أستجلب الجيش السورى إلى المؤامرة ليضبط العناصر الأساسية كلها فى الساحة اللبنانية .. إن القوى الوطنية والناس المؤمنين بعروبتهم ، مسيحيين ومسلمين ، والمؤمنين بإنتمائهم القومى والفلسطينيين .. رأى أن يمشوا إلى تل الزعتر صفوفا حتى يفقد الانعزاليون ذخيرتهم كلها . نصف مليون فلسطينى ، يبقى منهم مائة ألف ، لا يهم . هذه نظرتنا حتى إلى إسرائيل . لو كان العرب يريدون أن يموتوا لما كانت إسرائيل موجودة . »

عنوان صحيفة : « المقاومة تأسر بشير الجميل بعد أن قتل عددا من الفلسطينيين بيديه . الافراج عنه بعد ٨ ساعات فى أعقاب تدخل الرئيس سركيس والمكتب الثانى . »

عنوان فى صحيفة : « تل الزعتر يصد الهجوم رقم ٤٩ . »

عنوان فى صحيفة : « العمل » الكتائبية : « قادة الكتائب والنمور يتابعون سير المعارك فى أرض المعركة مباشرة . »

عنوان :
وفى اليوم العشرين لصمود تل الزعتر ...

عنوان فى صحيفة لبنانية : « قيادة منظمة التحرير لمقاتلى تل الزعتر : الساعات المقبلة

مصرية ، وصمودكم هو الأساس . »

عنوان فى صحيفة لبنانية : « إتصالات بين عرفات والقذافى ومحمود رياض ، وبين جنبلاط والملك خالد والسادات وبومدين والبكر ، وبين الأسد وحسين . »

عنوان فى صحيفة لبنانية : « تل الزعتر يصد الهجوم رقم ٥١ . »

عنوان فى صحيفة لبنانية : « احباط هجوم جديد على تل الزعتر إستمر ٧ ساعات . »

عنوان فى صحيفة لبنانية : « مذكرة سوفييتية فى عشر صفحات تحذر سوريا من المضى فى ضرب المقاومة والحركة الوطنية اللبنانية . »

عنوان فى صحيفة الأنباء اللبنانية : « جنبلاط لمؤتمر وزراء الخارجية العرب : خدعكم تجار الفئة الانعزالية ، وهم الأقرب إلى ملوككم ورؤسائكم . »

عنوان فى صحيفة فرنسية : « مقتل وليم حاوى رئيس المجلس العسكرى الكتائبى خلال معارك تل الزعتر . أوساط المراسلين الأجانب فى بيروت تؤكد أن قتله تم بتدبير من بشير الجُمَيِّل الذى حل محله فى رئاسة المجلس العسكرى للكتائب . »

أمام مبنى المجلس العسكرى للكتائب . بشير الجميل فى ملابسه العسكرية يحيط به أنصاره .

عنوان :

تخرج بشير الجميل من مدارس الجزويت وجامعتهم ، حيث درس القانون . لكن السلطة كانت أكثر إغراء له من المهنة المنتظرة .

تميز منذ صباه بالإندفاع والميل إلى العنف . وكان يلتجىء بسهولة إلى قبضتيه عندما تواجهه مشكلة من المشاكل . وتعددت هذه المشاكل عندما بلغ مرحلة المراهقة . فقد إمتلأ وجهه بالبثور . وإكتشف أن قامته قصيرة ، وجسمه غير متناسق . ثم تبين بعد قليل أن الزعامة العائلية محصورة بين أبيه القوى ، وأخيه الأكبر أمين ، الذى تميز بالرشاقة والوسامة والمواهب الذهنية . لكنه لم ييأس . والتجأ إلى الشارع . وطوال خمس عشرة ساعة فى اليوم ، لا يكف خلالها عن إلتهام قطع الشكولاتة ، كان يحضر حفلات الزواج والتعميد والجنازات والقداسات ، متقربا إلى صغار الحرفيين ، وأشباه العمال ، والموظفين الصغار ، وبقية المحبطين ، فى إنتظار الفرصة الملائمة .

مدرج جامعة دمشق . حافظ الأسد يخطب : « ... يجب أن يفهم أولئك الذين يطرحون من بعيد ، أنى لست من هواة السلطة ، ولست إلا فردا من أفراد هذا الشعب ، ولن يحدنى شىء عن

التحسس بأحاسيس هذا الشعب وإتخاذ القرار الذى أشعر أنه يعبر عن أحاسيس المواطنين فى هذا البلد ورغباتهم .

« ... عندما بدأت أحداث لبنان منذ أشهر طويلة كان لنا تفسير لهذه الأحداث ... وقلنا إن المؤامرة لا تستطيع أن تحقق أهدافها إلا من خلال القتال . إذن لكى نحبط المؤامرة علينا أن نوقف القتال . وإنطلقنا نعمل من أجل ذلك ...

« ... لكن هناك من يريد أن تبقى المشاكل هى إياها لأنه يريد أن يعمل . فبعض المسلحين الآن فى لبنان ضد الأمن . فلو تحقق لفقدوا العمل . وهذه مشكلة .

« ... وإستقبلنا كال جنبلاط . وقلت له إننا نريد أن تعلمونا حقيقة ما تريدون .. تحدث عن العلمنة . دولة علمانية فى لبنان . قلت له إن الكتائب متحمسة للعلمنة . لقد قال لى الشيخ بيار الجميل انه لا يقبل للعلمنة بديلا . أنا مصر ومتمسك بدولة علمانية فى لبنان . لكن مفتى المسلمين وإمام الشيعة وبعض رؤساء الوزراء ورؤساء مجلس النواب رفضوا العلمنة .

« قال جنبلاط : خلونا نؤدبهم . لابد من الحسم العسكرى . من ١٤٠ سنة عم بيحكمونا ، بدنا نخلص منهم . هنا رأيت أن كل قناع قد سقط . المسألة هى مسألة ثأر وإنتقام .

« الحسم العسكرى فى بلد كلبنان ، بين فئتين فى وطن واحد ، أمر غير ممكن . الحسم العسكرى بالنسبة لأى مشكلة يعنى تصفية هذه المشكلة تصفية نهائية . وهذا المعنى فى لبنان غير ممكن لأن عنصر القوة ليس الشرط الوحيد الذى يجب أن يوفر ، وإنما هناك عناصر أخرى يجب أن تتوافر وهى غير متوافرة الآن . أما إذا كان الحسم العسكرى المقصود هو أن يخلق حالا من القهر على الساحة اللبنانية ، فهذا سينتج عنه بروز مشكلة جديدة فى لبنان وفى هذه المنطقة . مشكلة شعب ما ، دين ما ، مشكلة لبنان أو جزء من لبنان . مشكلة مقهورين سيتعاطف معها العالم .

« كلنا نستطيع أن نتصور أن هذا الحل لن يكون إطلاقا إلا بتقسيم لبنان . ستنشأ دولة يملؤها الحقد . دولة أكثر خطرا وأشد عداء من إسرائيل .

« شىء ثالث : الحسم العسكرى بهذه الطريقة تقدرون جميعا أنه سيفتح الأبواب على مصراعيها لكل تدخل أجنبى وخصوصا التدخل الاسرائيلى .

« وفى اليوم نفسه إستدعيت ياسر عرفات وقلت له هذا الكلام : قلت له وأقول الآن : لا أستطيع أن أتصور ما هى العلاقة بين أن يقاتل الفلسطينيون فى أعلى جبال لبنان وتحرير فلسطين .... تذكروا أيها الاخوان ما كان يتردد فى العام ١٩٧٠ فى الأردن ؟ رفعوا آنذاك الشعارات . السلطة كل السلطة للمقاومة . فلسطين نحررها من خلال عمان . الأمر من حيث

الجوهر يتكرر الآن فى لبنان . وعدنى ياسر عرفات فى ذلك اللقاء أن ينسحب من القتال .

« ... سوريا هى بلد الصمود . فمن كان مع الصمود يجب أن يكون مع سوريا . سوريا هى بلد التحرير ، من كان مع التحرير يجب أن يكون مع سوريا . سوريا هى بلد الوطنية والتقدم ، من كان مع الوطنية يجب أن يكون مع سوريا . سوريا هى بلد النضال الفلسطينى ، من كان مع النضال الفلسطينى يجب أن يكون مع سوريا . كل كلام عن تحرير فلسطين من دون سوريا إنما هو جهل وتضليل للجماهير . »

عنوان :

وفى نفس اليوم الذى ألقى فيه الرئيس السورى بهذا الخطاب ، وجه إليه مفتى لبنان النداء التالى :

« إننا اليوم بعد أن إشتد ضغط أزمة الجوع والعطش والخوف والمرض وباتت الأوبئة السارية تهدد حياة كل مواطنى بيروت وضواحيها ، فضلا عن خطر إنتشار عدواها فى كل لبنان .... بسبب إستمرار حرب الخمسمائة يوم القذرة ، وإشتداد الحصار علينا من كل مكان ، من البر والبحر والجو .

« ....نتوجه إليكم ، مطالبين بإسم الأخوة الإسلامية والعربية ، أن تلبوا نداء الواجب الوطنى والقومى الإنسانى وذلك :

« أولا — بأن تتركوا طريق دمشق بيروت الدولية مفتوحة أمام كل القوافل التى تحمل مواد الغذاء والدواء والوقود من الدول العربية الشقيقة عبر سوريا .

« ثانيا — أن تحولوا دون أى تهديد يمنع وصول السفن إلى ميناءى صيدا وطرابلس .... »

عنوان مستقل :

وبعد يومين ...

مقر الحزب التقدمى الاشتراكى فى بيروت . حشد من الصحفيين والسياسيين . كمال جنبلاط ، رئيس الحزب ، يعقد مؤتمرا صحفيا . الزعيم اللبنانى يعلن إنشاء مجلس سياسى مركزى برئاسته يقوم بمهام القيادة السياسية للأحزاب والقوى الوطنية والتقدمية فى لبنان .

أمام مخيم تل الزعتر . حشود عسكرية . رتل من سيارات الصليب الأحمر يقترب فى بطء .

عنوان صحيفة : « القوات الانعزالية تطلق النار على بعثة الصليب الأحمر التى حاولت إجلاء الجرحى من مخيم تل الزعتر . »

عنوان صحيفة : « تاس تتهم السعودية بأحداث لبنان . »

عنوان صحيفة : « سيسكو يعلن إحتمال تسوية الشرق الأوسط بعد إضعاف المقاومة الفلسطينية فى لبنان . »

عنوان صحيفة : « القوات السورية تعجز لمدة ثلاثة أيام عن إختراق قوات المقاومة فى بحمدون . »

عنوان :

وفى ٢٩ يوليو (تموز) ....

عنوان صحيفة : « إتفاق فى دمشق بين المقاومة وسوريا لإنهاء القتال . »

دائرة حول فقرة من نفس الصحيفة : « ... وأكد الجانب السورى موقفه الثابت والمستمر الداعم لمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلة للشعب الفلسطينى فى نضاله ضد العدو الاسرائيلى ومن أجل التحرر ، وأن سوريا كانت وستبقى قاعدة النضال لشعب فلسطين .... كما أشاد الجانب الفلسطينى بموقف القطر العربى السورى من نضال الشعب العربى الفلسطينى ومن القضية الفلسطينية ومن دعم القطر السورى ومساندته للمقاومة الفلسطينية .. »

عنوان :

وبعد يومين ...

عنوان صحيفة بتاريخ ٧/٣١ : « إجلاء جرحى تل الزعتر . طبيب سويدى يعلن أن عدد القتلى بالمخيم بلغ ألف وأربعمائة قتيل والجرحى أربعة آلاف . »

حى النبعة قرب بيروت . ميليشيا الكتائب تطلق الرصاص فى كل إتجاه . تقوم بإجلاء السكان من منازلهم .

نقطة العبور بين المنطقتين الشرقية والغربية عند المتحف . مئات من سكان حى النبعة المطرودين من المنطقة الشرقية يتوافدون . شارع ضيق ينتهى بباص مقلوب . براميل مليئة بالرمال . أنابيب مياه مكسورة . نساء يحملن كل ما يملكنه فوق رؤوسهن ويجرجرن أطفالا خلفهن . طفلة تحمل دمية وأخرى تحمل موقد كاز . الجميع يتقدمون من نهاية الشارع حيث يوجد حاجز المنطقة الغربية .

عنوان :

وفى اليوم الخمسين لحصار تل الزعتر ، بعث ياسر عرفات برسائل إلى الزعماء العرب يضعهم أمام مسئوليتهم بشأن مصير المخيم . وفى نفس اليوم جرى الاتفاق عن طريق

الصليب الأحمر وقوات الأمن العربية على أن يتم إجلاء ١٢ ألف مدنى من المخيم ، ينقلون إلى البقاع وبيروت الغربية .
وبعد يومين .. فى ١٩٧٦/٨/١٢ ...

سيارات الصليب الأحمر أمام تل الزعتر . شاحنة تحمل شارة قوات الأمن العربية ، يصعد إليها عدد من النساء والأطفال ليس بينهم أثر لرجل . أرض الشارع مغطاة بأعداد لا حصر لها من مختلف أنواع الأحذية : شباشب ، صنادل ، أحذية نسائية بكعوب وبدونها . شاحنة أخرى ذات جوانب من قضبان متشابكة مثل شاحنات نقل الحيوانات .

أمام دار المعلمين فى المنطقة الغربية . زحام . شاحنة صغيرة تهبط منها سيدة باكية وأخرى ممزقة الثياب ، وأطفال . سيدة أخرى باكية تحتضن طفلين .

مستشفى الجامعة العربية . جريح بلا ساقين تنحنى عليه سيدة متقدمة فى السن وتحتضنه .

عنوان :
وأثناء إجلاء المدنيين إقتحم الكتائبيون والنمور المخيم فى أعداد كثيفة . وجرى القتال بينهم وبين ثلاثمائة شاب فلسطينى ولبنانى رفضوا الاستسلام وواصلوا المقاومة حتى النهاية .
وفى نهاية اليوم أعلن سقوط تل الزعتر .

(١٥)

كانت المرأة ساحرة حقا ، وقد إلتفت بغلالة شفافة أبرزت مفاتن جسدها . وأسفل الصورة قرأت هذه الكلمات : « الغرب المدهوش بالشرق وغرابته ، يجعل من مادته الخصبة ، عصا سحرية ، تحيلك إلى امرأة الألف وجه . »

حولت عينى عن الاعلان ، وعدت أقرأ خبر الفيلسوف الفرنسى العجوز ألتوسير ، الذى خنق زوجته . ثم وضعت الصحيفة جانبا وتناولت سماعة التليفون .

أدرت رقم دار الثقافة ، ووجدت الخط مشغولا ، فاتصلت بوديع فى مكتبه .

قلت حالما سمعت صوته :
ـــ لم تأت الشغالة بعد وأنا أريد الخروج .
قال :
ـــ لن تأت اليوم ما دامت تأخرت إلى الآن . هل أنتظرك على الغذاء ؟
قلت :
ـــ لا أظن . فأنا وأنطوانيت مدعوين لدى أحد المعارف الفرنسيين فى المساء . وربما ذهبنا إليه مباشرة من الفكهانى .

كانت الشمس ساطعة توحى بيوم دافىء ، فإكتفيت ببلوفر من الصوف فوق قميصى ، وعلقت حقيبة يدى فى كتفى . ثم أدرت رقم دار الثقافة مرة أخرى ، وعندما ألفيته مازال مشغولا ، غادرت المسكن .

وقفت أنتظر سيارة تقلنى إلى مكتب أنطوانيت . وتوقفت أمامى واحدة خالية . فطلبت من سائقها أن يذهب بى إلى عين المريسة .

كان المرافق الفحل يجلس فى مدخل المبنى ، إلى جوار أحد الحارسين المسلحين . وصحبنى على مضض إلى أعلى ، فأسلمنى إلى السكرتيرة التى خابرت لميا بالتليفون . وطلبت منى أن أنتظر .

جلست على مقعد فى مواجهتها . وأصبحت أشرف على الممر الذى تقع غرفة لميا فى نهايته . وكان بابها مغلقا .

إنفرج الباب بعد لحظات وبرزت منه . كانت ترتدى بلوزة مزركشة بألوان زاهية ذات أكمام طويلة واسعة ، وبنطلونا من القطيفة رمادى اللون . وكان شعرها مجدولا فى ضفيرتين كبيرتين فبدت كفتاة مراهقة .

إقتربت مُنى فى خطوات بطيئة وفى عينيها نظرة ساهمة كالمأخوذة . ومدت يدها إلى وهى تغتصب إبتسامة .

خاطبتنى قائلة :
ـــ شرّف .

إستدارت نحو غرفتها ، فخطوت فى أعقابها . وعندئذ رأيت طرف بلوزتها يتدلى خارج البنطلون .

طالعنى وجه الصديقة التى رأيتها معها من قبل فى المقهى . وكانت تجلس فوق الكنبة ، واضعة ساقا على ساق ، وهى تحتسى القهوة .

إتجهت لميا إلى مكتبها ودارت حوله ثم جلست إليه وهى تقول :
ــ صديقتى جميلة . لقد سبق لك أن رأيتها .

أحنيت رأسى لها ، ومضيت إلى مكتب لميا فجلست على مقعد أمامه ، ووضعت حقيبة يدى على الأرض .

تطلعت إلى جميلة وسألتها :
ــ تعملين فى النشر أنت أيضا ؟

إبتسمت وهزت رأسها نفيا .

قالت لميا :
ــ قريب من النشر . إنها مديرة بنك .

تحولت إلى لميا قائلا :
ــ إتصلت بك أمس .

بدرت منها نظرة سريعة إلى صديقتها ثم قالت :
ــ لم أكن بالمنزل .

خاطبتنى جميلة قائلة :
ــ أخذت مخطوطة كتابك من لميا وسأقرأه اليوم .

عقبت لميا بسرعة :
ــ لا تقلق . فلم يتبق لى سوى الفصل الأخير .

قلت : لست قلقا . كل ما أريده هو أن أنتهى من هذا الموضوع قبل سفرى .

سألتنى جميلة :
ــ متى تسافر ؟
أجبت :
ــ خلال أسبوع .

أحضرت السكرتيرة القهوة ، فإرتشفتها فى صمت ، بينما تشاغلت لميا بأوراق على مكتبها ، وتناولت صديقتها مفكرة من حقيبة يدها ، فجعلت تقلب بين صفحاتها . كان اللون الأحمر الساطع الذى طلت به شفتيها متناسقا مع تكوين وجهها العريض ، ولون بشرتها القمحى . وبدت لى أكبر من لميا بعشر سنوات على الأقل .

إنتهيت من قهوتى ، فتناولت حقيبتى ونهضت واقفا وأنا أقول مخاطبا لميا :
ــ لابد أن أنصرف الآن . سأتصل بك فيما بعد .

لم تبدر منها محاولة لاستبقائى ، ولم تودعنى حتى الباب . وإكتفت بمصافحتى وهى جالسة . وغادرت الغرفة بعد أن أومأت برأسى لصديقتها .

غالبت رغبة ملحة فى الشراب ، وأخذت سيارة أجرة إلى الفكهانى .

وجدت أنطوانيت فى غرفة المونتاج . ولاحظت انها صففت شعرها فى عناية ، وصبغت أظافر يديها بلون شفاف . وكانت ترتدى بلوزة صوفية ضيقة أبرزت صدرها الصغير .

أعددت أوراقى وقلمى ، وأطفأت النور ، ثم إتخذت مكانى إلى جوارها أمام المافيولا . لَمسَتْ طارة الآلة بيدها ، فتتابعت أمامنا اللقطات الخاصة بسقوط تل الزعتر .
أوقفت الآلة فجأة وقالت :
ــ هل من الضرورى أن تسجل الفصل التالى ؟ إنه مجرد شهادات لمجموعة من النساء اللاتى أفلتن من المذبحة . وهى تغنى عن كل تعليق .

فكرت لحظة ثم قلت :
ــ ربما . لكن لابد لى من دراسة مضمون الشهادات وإيقاعها وحجمها وإرتباطها بما

سبقها ويتلوها من لقطات . وهذه الدراسة ستقرر مصير التعليق السابق عليها : هل يدمج فيها أم ينتهى قبلها بذروة أو بدون ذروة . سأسجل كل شىء لأتمكن من العمل على راحتى .

قالت :

ــ كما تريد .

الفصل الرابع من الفيلم

نساء فى مقتبل العمر أو أواسطه . الملابس بسيطة . الرؤوس تحيط بها أوشحة معقودة أسفل الذقون . أصواتهن جافة لا أثر فيها لحياة . الكاميرا تستقر على كل واحدة منهن دون حركة حتى تنتهى من شهادتها .

عنوان :
أم على سالم ، خمسون عاما

« عندما هجرونا من فلسطين ذهبنا إلى الشام . ثم جئنا إلى تل الزعتر . وكنا دائما مطاردين . فالرقيب أبو عبود من المكتب الثانى اللبنانى كان يتصنت علينا من تحت الشباك . وبعدها حبسوا زوجى بسبب المنشورات . وكل أولادى إنضموا للمقاومة وهم صغار ، وراحوا دورات تدريب ثم حملوا السلاح . ولم يبق عندى أحد منهم . وأنا كنت أشارك فى وحدات محى الأمية اللى كانت تتعمل بالمخيم . وكثيرا ما أخذ رجال المكتب الثانى زوجى وعذبوه ليدلهم على مكان الأولاد . وصاروا يحضروا كل يوم يفتشوا البيت ويسألوا عن الاولاد . لكن كل هذا تغير بعد أن تولت المقاومة الاشراف على المخيمات .

« وأثناء الحصار ، إستشهد لى خمسة أولاد فى المخيم . ولما خرجنا من الزعتر أخذت معى قمصان أولادى الشهدا علشان أشم ريحتهم الغالية ... وعرفت أنهم شحطوا زوجى بعد أن ربطوا كل رجل من رجليه بحبل وكل حبل بسيارة ومشوا بالسيارات . »

عنوان :
زينب أم على ، أربعون سنة ، أم لعشرة أطفال

« كان أبو عبود يلاحقنى أنا شخصيا . فى يوم من الأيام فى الساعة الحادية عشرة ليلا طرق

الباب . فتحت بعجلة فإذا هو أبو عبود ومعه جورج حزينى . أول كف والثانى صرخت . قلت له يا جبان . عندها خرج أولادى : شو بدك بأمى . أخذنى عند أبو أحمد العازورى . ضربنى أبو أحمد بالكرباج خمس ضربات . بقيت إحدى عشرة ساعة . نمت على الأرض مغمضة عيونى ... بقيت ثلاثة أيام عندهم فى السجن ...

« ثم جاءت المقاومة وقضى على العملاء وبدأت أعمل فى معسكر الأشبال .. وعندما بدأ حصار المخيم جاءت قذيفة إستشهد بها زوجى المريض كما إستشهدت إبنتى بينما كانت ذاهبة لترى أباها ... وفجأة أتى صبحى عراق وحسن شحرور إلى الملجأ وقالوا بدنا شباب لنجلب الشهيد نمر ، فلم يتحرك أحد . ذهبت أنا وإبنى البالغ من العمر ستة عشر عاما ورفعنا الشهيد نمر ، وفى العودة إستشهد ولدى الوحيد الذى لا يوجد أغلى منه سوى فلسطين لأنه وحيد بين تسع بنات . »

عنوان :

نزهة حسن اللدوق ، ٦٥ سنة ، أم لخمسة أبناء وجدة لعشرة

« .. فى بداية الأحداث حضر إبنى أحمد وعمره ٣٨ سنة من السفر وحمل هدية من صديق له إلى زوجته وأولاده فى الجديدة ولم يعد . وبعد ثلاثة أشهر وجدنا جثته فى حشحاشة هناك .

« وأثناء الأحداث إستشهد إبنى جلال بقذيفة . وفى أحد الأيام ذهبت إبنتى فطوم تملأ الماء ولم تعد إذ أصابتها قذيفة وإستشهدت على الفور .

« وعند سقوط الملجأ كان ولدى على يعمل فى رفع الأنقاض ، فاستهدفه الانعزاليون بقذيفة فسقط شهيدا .

« وعند سقوط المخيم خرج زوجى وأبناؤه الثلاثة وأحفادى ، فإعترضهم الانعزاليون عند الكنيسة ، وأوقفوا أولادى الثلاثة على الحائط وأخذوا يضربوهم بمدقات الكبة على ظهورهم بكل قواهم حتى سقطوا . كما قتلوا أحد أحفادى . بكيت وصرخت لكن أحفادى رجونى أن أسكت لئلا يأخذهم المسلحون .. وعند وصولنا إلى الفندقية صاروا يتسلون علينا ، فتارة يطلبون منا الصعود إلى الطابق الثالث وزخات الرصاص تلاحقنا . وكنا نركض ونتدافع ونختبىء ببعضنا البعض .. وأخيرا أخرجونا إلى الطريق العام وصعدنا إلى سيارات الشحن ووقفت إلى جوار زوجى الذى أمسك بحديد الشاحنة .. وأحضر المسلحون شبابا وقتلوهم مجموعات أمامنا . وبكى زوجى فلمحه أحد المسلحين وأنزله من الشاحنة . وأخذوا بتعذيب الشباب أمامه ثم قتلوه فسقط على الأرض فصرخ أحفادى من الخوف ، فأطلقوا علينا الرصاص فنزلنا بسرعة من السيارة دون وعى . وضاع أحفادى جميعهم وها أنا أعيش وحدى فقط ولم يبق لى أحد . »

عنوان :

سعاد صالح ، ٤٢ سنة ، أم لخمسة أولاد

« عندما بدأ الحصار كان فى بيتى ١٠ كيلو جرام دقيق فعجنتهم وخبزتهم وبعثت بهم إلى المقاتلين . كما كنت أهيىء لهم الشاى والقهوة ليلا . ثم قطعت الكهرباء فكنا نصنع الشمع للمستشفى ، وحصلنا على الشمع من مستودع قريب . فكان إبنى يحضره ونسخنه على النار لإذابته ثم نصبه فى علب اللحم والسردين ونضع خيطا فيه ، وبعد جفافه نقص العلبة ونخرج الشمع منها . وأخيرا تقدمت صناعتنا فصرنا نحضر صور الأشعة نلفها ونربطها ثم نصب الشمع بها . وبعد فكها نحصل على شمعة رشيقة جميلة ... »

عنوان :

فاطمة عوض ، ٢٢ سنة ، ممرضة

« منذ بداية الحصار وأنا أعمل ليل نهار لتأمين الطعام والمياه للجرحى . وكان الكثيرون منهم يموتون لقلة الأدوية . ولم يكن متوافرا لتعقيم الجروح سوى الماء والملح . وقبل سقوط المخيم بعشرة أيام تواترت أيام عن وصول الصليب الأحمر لنقل الجرحى ، لكنه لم يصل إلا بعد ثلاثة أيام بعد أن وصلت عزلة المخيم عن العالم ٤٢ يوما .. فنقل حوالى ٨٠ جريحا وفى اليوم التالى ١٥٠ جريحا وفى الثالث ٧٥٠ جريحا مع عدد من الأطفال الرضع الذين أصيبوا بالجفاف .

« وليلة سقوط المخيم قيل لنا أن هناك ضمانات من الصليب الأحمر وقوات الأمن العربية ، بنقل سكان المخيم دون التعرض لمن يستسلم . وفى الصباح التالى إنتظرنا من الساعة التاسعة والنصف حيث كان متفقا أن يحضر الصليب الأحمر فى التاسعة . لكن فى ذلك الوقت إشتد القصف بشكل جنونى ودخل الانعزاليون المخيم . وقيل لنا أن سيارات الصليب الأحمر موجودة فى الدكوانة لنقل الجرحى والأهالى ، فإنطلقنا مجموعة من الممرضين مع العديد من السكان إلى هناك فإعترضنا حاجز من رجال الكتائب فتشونا وهم يشتموننا . وفى الحاجز الثانى أخذ الانعزاليون الممرضين الرجال وعذبوهم ثم قتلوهم أمامنا ... »

عنوان :

فاتن بدران ، ٢٣ عاما

« إشتركت مع متطوعات أخريات فى إنشاء مركز طبى بحى القلعة برعاية أطباء الزعتر . وليلة سقوط القلعة فى يد الانعزاليين كنت مع جدتى فى الملجأ . وكانت جميع العائلات فى الملجأ تحمل الجنسية اللبنانية إلا أنا وجدتى ، فإزداد خوفنا .

« ودخل الانعزاليون المنطقة فأخذوا يطلقون الرصاص من الشبابيك والأبواب على الملاجىء

المكتظة بالنساء والأطفال والشيوخ ، لأن الشباب إلتحقوا بمقاتلي تل الزعتر . ثم نقلونا إلى مدخل بناية أخرى دون أن يعرفوا أننا فلسطينيون . وبعد قليل أتى الانعزاليون بأشخاص تعرفوا على أصدقائهم بيننا فأخذوهم ومضوا . ولم يبق سوى أنا وجارتي وجارة أخرى تدعى وداد قصور . وهنا إشتد خوفي فأخذت تطمئني وتقول لي أن لها أصدقاء سوف يحضرون ويأخذونها وسوف تأخذنا معها . لكن القذائف إنهالت علينا ففرقتنا . وسرنا حتى إلتقينا بعائلة فلسطينية تحمل الهوية اللبنانية فذهبنا معهم في سيارة . وسألنا السائق إذا كنا إسلام أو مسيحية وهو يقول : إذا كنتم إسلام فسوف تنزلون في حي سن الفيل المسيحي . لكنني أقنعته بأن يأخذنا إلى حي فرن الشباك الاسلامي . »

عنوان :

حياة فريحة ، ٢٠ سنة

« في أوقات فراغنا كنا نعد المخازن لأسلحة المقاتلين ، وإشتركت في عملية إقتحام مع الشهيدة سميرة بدران في موقع متقدم بالحازمية . وعدنا سالمين بعد أن دمرنا مصفحة وأصيب أحد شبابنا . أبدينا رغبتنا في التواجد عند الأسلحة الثقيلة (المضادات) على تلة المير فوافقوا وعندما أبديت رغبتي في التدرب عليها ضحك المقاتلون وأكدوا أن المرأة لا تستطيع القيام بمثل هذه الأعمال ، فقط تحكي . لكني صممت لأثبت لهم جدارتي . وفعلا تدربت وقمت باطلاق خمس عشرة قذيفة على مركز مضاد وإزداد ايماني بثورتي . وأبدوا إستعدادهم لتدريب كتيبة مناضلات .

« وعند سقوط المخيم دافعنا حتى آخر محور وأخيرا أتلفت سلاحي بناء على التعليمات وذهبت مع أهلي إلى الدكوانة ... »

عنوان :

آمنة فريحة ، ٣٥ سنة

« عندما قطعت المياه عن المخيم كنا نروح البئر حوالي خمس عشرة امرأة ونرجع ست . أي أن كوب الماء كان يعادل كوبا من الدماء ... »

عنوان :

شيخة أحمد شحرور ، ٣٢ سنة ، أم لطفلين

« كنا نختبىء من بيت إلى آخر حتى نصل إلى الماء وهناك كان رجال الكتائب يحتلون الأماكن المرتفعة التي تشرف على المياه من مسافة قريبة ، فيصيحون علينا : واحد واحد بالصف . وعندها يبدأ القنص . وفي بعض الأوقات نسهر طول الليل ونرجع دون ماء فيبدأ الأطفال بالبكاء والصراخ لحاجتهم إلى نقطة ماء بدلا من الحليب .

ومرض إبنى الصغير وعمره سنة واحدة ، فأخذته إلى طبيب الهلال الأحمر ، فقال لا يوجد عندنا دواء . وإرتفعت حرارة إبنى إلى ٤٠ درجة ، فأصبح عنده شلل فى رجله ، وكان زوجى مصابا فى بطنه ورجليه . وكنت فى السابق أقول له سافر وأمن لنا مستقبلنا فيقول لى : لن أخرج من تل الزعتر وبه حجر واحد . وقد وفى بوعده وبقى هناك حتى آخر لحظة . وحتى الآن لا أعرف إذا كان حيا أو ميتا . »

عنوان :

عفاف محمد ، ٣٢ عاما ، أم لسبعة أطفال بقى منهم ٣

« ذهبت إلى مستشفى الهلال الأحمر فى الشارع الرئيسى للمخيم لأرى الجرحى . وقبل أن أصل وقعت قذيفة على باب الملجأ وأولادى به وبينهم إبنتى الكبرى آمال وعمرها ١١ سنة . فإستشهدت مع ستة أطفال فى سنها . وبعدها تدهورت صحتى وكنت حاملا فى الشهر السادس . وجاع الأطفال ومات البعض من العطش . وأرضعت الأمهات أطفالهن من ماء العدس المسلوق وإنتشرت الحمى بين الأطفال ومات بعضهم بها وآخرون أصابهم الجفاف . ولما حان موعد ولادتى كان القصف قد إشتد فولدت طفلتى على الدرج . ولم أستطع أن أنام لحظة واحدة . »

عنوان :

خزنة محمد صالح ، ٢٩ سنة

« .. فى يوم سقوط المخيم أعطيت السلاح الذى أحمله بعد أن أكدوا لنا وجود ضمانات من الصليب الأحمر وقوات الأمن العربية . وتوجهت إلى الدكوانة مع عدد من النساء . وفى حاجز قرب ستديو فوزى حاول أحد المسلحين تمزيق ثيابى ، فأعطيته كل ما أملك من فلوس . وعند مدرسة الفندقية رأيت إمرأة من الانعزاليين ترتدى السواد وهى تضرب فتى عمره حوالى خمسة عشر عاما بالمسدس على رأسه ووجهه . ثم أخذته إلى مكان ملىء بالقاذورات وقتلته وهى تشتم الفلسطينيين . ووجدت أمى وإخوتى فى المدرسة . وحاولت أمى نقلنا فى سيارة ، وكان إخوتى يرتجفون خوفا وجزعا . فدفعت مبلغا من المال للسائق وصعدنا السيارة . ورأيت الانعزاليين يربطون حبلا حول عنق أحد الشباب وشنقوه ثم مشوا على جثته بالسيارة فإلتصق لحمه بالأرض . كل ذلك أمام زوجته الجريحة وأطفاله الصغار الذين لم يستطيعوا النطق بكلمة .

« سارت بنا السيارة قليلا ثم توقفت . وهنا رأيتهم يحضرون شابا إسمه محمد كروم وبعد أن أشبعوه ضربا ربطوا رجليه بسيارتين فإنقسم جسمه شطرين . أما زوجى الذى خرج عن طريق الجبل فلم نعرف عنه شيئا حتى الآن . »

عنوان :

فريال شحرور ، ١٨ سنة

« لم نكن نأكل سوى العدس والتمر . وكانوا يغلون الشاى مع التمر لقلة السكر فيصبح الشاى بلا مذاق . وكان الرجال يقاتلون طوال النهار بالقليل من الأكل والشرب ويدخنون لفافات من غذاء العصافير والعيزقان ... »

عنوان :

حورية مصطفى ، ٢٠ عاما

« فى يوم إشتد فيه القتال نزلت والدتى لتجلب الماء فإذا بها تفاجأ بقتيل على الأرض . إقتربت منه وسط القذائف والصواريخ فوجدته ولدها . نعم كان أخى .

« وفى يوم سقوط المخيم نزلنا عن طريق الدكوانة . وإقترب أحدهم منى وأخذ واحدا من إخوتى فضربه بالسلاح الذى فى يده حتى نزفت الدماء من وجهه . ثم أفرغ رصاص الكلاشن فى رأسه فتلفت علينا كأنه يودعنا وسقط على الأرض جثة هامدة . وأخذوا أخى الثالث فتدخلت أمى لتنقذه وتقول لهم كفى إثنان دعوه لى إنه الصغير ، لكنهم لم يكترثوا ، وأطلقوا النار عليه .

« وحاولوا أن يأخذونى معهم لكنى رفضت . وظللت واقفة فى مكانى لأنى فضلت الموت . وتدخلت والدتى مستغيثة باكية . لكنهم ساقوها وأطلقوا النار عليها فأردوها قتيلة . وإنتهزت الفرصة فحملت أخوتى الصغار وجريت هاربة .. »

عنوان :

فاطمة الموسى ، ٤٥ سنة ، أم لثمانية أطفال

« فقدت ثلاثة من أبنائى ، مع العلم بأن زوجى هجرنى ، ولم يساعدنى بشىء . »

عنوان :

فاطمة بدران ، ٣٦ سنة ، أم لتسعة أبناء

« جرحت أثناء نقل المياه وبعد يومين إستشهد زوجى وإبنى وعمره ١٦ سنة . وإعتنت بى إبنتى سميرة . وكانت تشترك فى نقل الجرحى تحت القصف الشديد ، فأصيبت فى رقبتها وإستشهدت على الفور .

« وعند سقوط المخيم خرجت مع أبى وأمى وبقية أطفالى . فأخذوا أبى وقتلوه . وإلتفت لأراه فرأيته والدم يفور من جسده وفمه وهو ينتفض على الأرض . وكذلك الشباب الثمانية الذين كانوا

رافقوننا ، قتلوهم جميعا . ورأيت شابا صغيرا برفقة أمه ، فأخذه المسلحون وكان يقف على الحائط حيث درزه المسلح من رأسه حتى قدمه فصرخ ، وصرخت المسكينة أمه ، فضربوها بأعقاب البنادق ودفعونا فى إتجاه الفندقية .

« بحثنا عن سيارة تأخذنا إلى المتحف . فطلب منا السائق ٣٠٠ ليرة للراكب . وكنا نرتجف من الخوف ولم يكن معنا المبلغ فإنتظرنا سيارة أخرى طلب سائقها ١٠٠ ليرة للراكب فصعدنا وسار بنا حتى المتحف . وهناك أوقفونا على الحائط ، وأمرونا أن نهتف لبيار الجميل ، وأخذوا أربع فتيات وكانوا يمسكون الفتاة من يدها ورجلها ويرمون بها فى السيارة ثم أخذوا إبنة عمى إلى غرفة مجاورة وكانت حاملا فأجبروها على خلع ثيابها وحاولوا شق بطنها ... »

عنوان :

فوزية شحرور ، ٣٠ سنة

« ..رأيتهم يبقرون بطن حامل فى شهرها الأخير ، فخرج الطفل أمامنا من بطنها ، وماتت المرأة على الفور ، وذعر الجميع ولم يستطع أحد النظر إلى الخلف .. »

عنوان :

زينب أم على ، ٤٠ سنة ، أم لعشرة أطفال (بقية)

« .. أخذ منى بناتى الأثنتين بعد أن هددنى ، وذلك ليعتدى عليهما . فعرضت عليه كل ما عندى من مال وجريت للمسئول عنهم قبلت رجله وقلت له كل شىء إلا الكرامة بعد أن كان عرى بناتى أمام عينى تماما . قلت له لماذا تفعل هذا ، يكون ما عندك ضمير إذا ما بترشنا نحن العشرة . أتى أحدهم وقال له إتركها . ثم جلبوا سيارات الشحن . صعدنا فى الشاحنة أنا وأولادى . ونحن مارين كانوا يلقون علينا الماء الوسخة ويضربوننا بالأحذية . وكنا نمشى على جثث الشباب والبنات . رشوا ١٨ شابا عند المتحف ولم يتركوا غير الأطفال والنساء . كانوا يسألون المرأة : كيف تريدين أن يموت زوجك ، رشا أم ذبحا ؟ وكانت إمرأة اللدوق تجر أولادها فأوقفوها وقالوا لها ضمى إبنك فلم تقبل وأخذت تبكى ، فضربها أحدهم بكعب الكلاشن وقتل ولدها . وجروا أبو ياسين وقتلوه وسط الناس وحركوا السيارة عليه وفلخوه . وجلبوا سليمان المسئول العسكرى للجبهة وربطوا رجليه بالكميون وشمطوه .. »

عنوان :

واحدة خافت من ذكر إسمها

« كنت أنا وزوجى وأهلى جالسين فى المنزل فسمعنا صوت طيران فهرعنا نحن ومن حولنا من الجيران إلى الملجأ وبعد قليل رأيت زوجى ومعه ثلاثة شبان يقولون لا تخافوا هذا ليس طيران إسرائيلى

إنه طيران سورى . لا تخافوا ، إخرجوا إلى منازلكم . وخرجنا من الملجأ فكان الطيران يحلق فوقنا فلم نخف لأننا عرفنا أنه طيران سورى . وأخذنا ننظر إليه ويا لهول ما كان ينتظرنا . فقد أخذ يقصف تلة المير ، وعندها بدأت المجزرة . »

عنوان :
عفاف محمد ، ٣٢ سنة ، أم لسبعة أطفال بقى منهم ٣ (بقية)

« .. حملت طفلتى الصغيرة التى لم يكن عمرها أكثر من إسبوعين ، وإبنتى سونيا وعبير التى عمرها سنتين فقط . والباقون أمسكوا بذيل فستانى . وعلى الطريق أصبح أولادى بغير أحذية . مروا فوق الردم والزجاج وسال الدم من أرجلهم إلى أن وصلنا مدرسة الفندقية . وهناك بقينا من الرابعة صباحا حتى الثانية بعد الظهر . وجاع أولادى ولن أنسى ما حييت صوت عبير وهى تقول لى : ماما بدى زعتر بالصحن ... »

عنوان :
فاطمة محمود ، ٤٥ سنة

« .. أخذوا الشباب وصفوهم صفا واحدا ووجوههم إلى الحائط وبدأوا يضربوهم بمدقات الكبة على ظهورهم حتى وقعوا على الأرض مغشيا عليهم . وأمروا البعض أن يركع ، والبعض الآخر أن يقف وظهره إلى الحائط ، ورشوا النيران على الراكعين أمام الواقفين ، ثم أشعلوا النيران ووضعوا فيها قضبانا من الحديد حتى إحمر لونها ثم وضعوها بشكل صليب على بطون الواقفين . وبعدها ربطوهم فى حبال وربطوهم بالسيارات وأخذوا يطوفون بهم الشوارع ، ونساء تلك المنطقة تزغرد لهم وتغنى ... »

عنوان :
جميلة قاعور ، ٣٣ سنة ، أم لأربع بنات

« ... وصلنا إلى المدرسة الحديثة وقاموا بتفتيشينا وكان معهم ضابط سورى . وجدوا معى ٧٥ ليرة فأخذوها . ثم حضر الكميون وطلع أولادى ثم والدتى ووالدى . وأخيرا أنا . فسألتهم عن بناتى فقالوا إن إثنتين منهما فقدتا بين حشود النساء والأطفال . أخذت أبحث عنهما داخل الكميون بشكل جنونى وأنا أصرخ فزعا . وبعد لحظات وجدتهما تحت الأرجل . الأولى كانت فارقت الحياة وازرق جسدها ، والثانية على وشك ذلك . فأخذت أسعفها حتى إستطعت إنقاذها .

« أنزلونا عند السيار . وأردت أن أحضر جثة إبنتى من الكميون فرفض المسلحون وهددونى بالقتل . ووضعوها فى رأس الأرزة وهم يقولون تعالى خدى بنتك وإعطيها لأبو عمار . ثم أخذوا

يطلقون الرصاص علينا رغم أننا كنا قريبين من السوريين والليبيين فى قوات الأمن العربية التى لم تحرك ساكنا . بل طلبنا من هذه القوات قليلا من الماء للأطفال ، فرفضوا وقالوا : الآن تعرضونا للمشاكل ، إشربوا من مكان آخر . فإبتعدنا حتى حضرت سيارات تابعة للمقاومة ، فركبناها ونحن نصرخ ونبكى وننادى : خسارة على شباب تل الزعتر . »

عنوان :

فوزية مصطفى حسين ، ١٦ سنة

« كان طفل يصرخ ويبكى من الجوع فطلبوا من والدته أن تسكته لكنه لم يسكت . فقال لها الكتائبى : أنا سأسكته . إعطنى إياه . وأخذه منها ورماه بعيدا ليسقط جثة هامدة . ثم قال لها : الآن سكت . »

عنوان :

عفاف محمد ، ٣٢ سنة ، أم لسبعة أطفال بقى منهم ٣ (بقية)

« ... أحضروا شاحنات كبيرة عالية لنقل الأهالى فهرعت النساء مع أولادهن ومن كثرة الأهالى الذين هرعوا إلى السيارة وقف الكبار فوق الصغار . وعندما إنتهيت من رفع أولادى إلى الشاحنة حاولت أن أطلع أنا لكن السائق سار فرجوته لكنه رفض وقال لى أن أطلع بشاحنة أخرى . وفعلا تم ذلك . ووصلت المتحف قبل الأولاد . وإنتظرت هناك حتى جاءت الشاحنة ونزل الجميع ماعدا أولادى . وفى النهاية نزل أخى وعمره ١٢ سنة وإبنى فيصل وعمره خمس سنوات وإبنتى نورما وعمرها أربع سنوات . وسألت عن الباقى فقال أخى أن الركاب داسوا عليهم مما أدى إلى إستشهاد سهام وعمرها ٣ سنوات وعبير وعمرها سنتين . أما سونيا وعمرها تسع سنوات فقد فقدت ولا أدرى لغاية الآنة أين هى ، حية أم ميتة . وبالمثل فقد زوجى . »

عنوان :

مريم يعقوب ، ٤٥ سنة

« .. يوم الخروج كان أولادى الاثنان معى قلت لهم إمشوا أمامنا . ورأيت فتاة مقتولة ، وبعدها رأيت إبنى مقتولا هو وعدة شباب . فبكيت وقال لى زوجى العجوز الآن تبكين ولدنا وبعد هذا تبكيننى أنا .

« وفى الفندقية فتشونا بحثا عن المال والذهب . ثم جاءت الشاحنات لتقلنا وصعد الانعزاليون مؤخرة الشاحنة ليروا إذا كان هناك رجل بين النساء والأطفال . فأنزلوا زوجى وأخذوا ما معه من مال ثم قتلوه . وعلى حاجز آخر أنزلوا الأطفال وبينهم ولدى محمد . وعندما رأيت الانعزالى نزل من الجانب الآخر خبأته تحتى . وجلست فوقه حتى

مشت الشاحنة ... »

عنوان :

رندة إبراهيم الدوق ، ١٤ سنة

« .. كانت القطط فى تل الزعتر سمينة جدا لأنها كانت تأكل الجثث . وكانت خطرة لأنها كان يمكن أن تهاجم الناس بعد أن تعودت على أن تأكلهم . وكان مقاتلونا يطلقون عليها النار .. »

عنوان :

أم نبيل ، ٤٥ سنة ، أم لعشرة أبناء

« .. كنت أقوم بعجين الخبز للمقاتلين مع مجموعة من نساء المخيم عندما علمت بإستشهاد إبنى كايد وعمره ٢٢ سنة ، فأكملت عجينى وذهبت إلى مكان جثته وقبلته وتركته ورجعت ولم أخبر إخوته حتى لا تنهار عزائمهم .

« وبعد أسبوع علمت باستشهاد إبنى فارس وعمره ٢٥ سنة وتحملت . لكن قلب الأم لم يتحمل أكثر ، فصبرت نفسى بنفسى لأنى كنت قدوة لأمهات الشهداء . وخرج إبنى نبيل عن طريق الجبل ولغاية اليوم لم أعرف عنه شيئا . وإقتحموا المخيم وأنا به وإبنى خالد وعمره ١٤ سنة ، فصفوا الرجال وأخذوا البنات وفتشوا النساء تفتيشا مخجلا . و جاء دورى فسألونى من أين لى مثل هذا الولد لأنه أشقر وعيونه خضر وأنا سمرة وقالوا : حرام يكون عند الفلسطينيين مثله . فأجبتهم بصوت كله تحدى : هذا فلسطينى ، إبنى أنا ، إبن فلسطين . وما أن إنتهيت من كلامى حتى أطلقوا الرصاص عليه . ولم أهتز بل تسمرت فى مكانى . وأمرونى أن أدوسه فرفضت وقلت لهم أعرف هذه النهاية وهذا قدرنا ولن نركع أبدا ومازال لنا طفل يرضع . »

عنوان :

مريم يعقوب ، ٤٥ سنة (بقية)

« ... ووقفنا عند حاجز آخر وأنزلونا للتفتيش . وكان معى قليل من السكر والملح داخل إبريق الشاى وكثير من الصور لأولادى وأوراق أرضنا فى فلسطين داخل علبة ... »

عنوان :

ثريا قاسم ، ٤٨ سنة ، أم لخمسة أولاد

« .. كان عندى ولد الله يرحمه . إسمو محمد وكان عمره يقبرنى شى ١٨ سنة . وكان متحمس كتير . وما كان يشيل السلاح من إيدو . و الله كتبلوا يستشهد فى ٧٦/٧/٢ بساحة الشرف والبطولة . وبعدها شى إسبوع إستشهد إبنى التانى إبراهيم . وكان بعد ما خلص الـ ١٤ سنة . حزنت

كتير . حزنت عليهم حزن أى أم وكان لأن ما عاد عندى شباب أقدمهم ليقاتلوا ويدافعوا عن كرامتنا . زوجى رجال كبير وحالته على قدو .

« أما بناتى الله يستر عليهم مطرح ما هن . كان عندى تلات بنات : ليا (٢٠ سنة) وعايدة (٢٢ سنة) ودية (١٧ سنة) كانوا يساعدوا بنقط الاسعاف وبعدين طلعوا الجبل . ولحد الآن ما سمعت أى خبر بالعاطل أو بالمنيح عنهن . مش عارفة إذا إستشهدوا أو بعدهن طيبين .. »

عنوان :

رندة ابراهيم الدوق ، ١٤ سنة (بقية)

« ... فى الليلة الأخيرة تمكنا من الاتصال بياسر عرفات باللاسلكى وسألناه عما نفعل فقال : لا تستسلموا .. »

عنوان :

واحدة لم تذكر إسمها

« .. الزعتر كان آخر معقل فى المنطقة المسيحية . وكان واضح أن النصر للانعزاليين بسبب تأييد سوريا وإسرائيل لهم ، وعزلة التل عن مناطقنا . وكان من الممكن التفاوض على إستسلام مبكر . وبدلا من ذلك إستشهد أكثر من ألفى فلسطينى ولبنانى دون ضرورة . »

عنوان :

وطفة شحادة ضاهر ، ٣٥ سنة ، أم لسبعة أولاد

« كان واضحا للجميع أن المخيم سيسقط ، لأن الجرحى والشهداء كانوا أكثر من المقاتلين . ولم يبعث لنا إخواننا فى الغربية ولا مقاتل واحد أو ذخيرة للمدفعية والأسلحة الأخرى بدلا من الذى فقدناه فى الهجمات الانعزالية التى زادت على ٥٨ هجوما . »

عنوان :

نزهة حسن الدوق ، ٦٥ سنة ، أم لخمسة أبناء وجدة لعشرة (بقية)

« .. شو عملنا عاطل يا خالتى ما بعرف ، حتى إنه نموت عشان نرجع بلدنا ممنوع ؟ ، شو بدهم منا ... يفنونا ؟ »

(١٦)

رحب بنا جاك ليروك وزوجته بحرارة . وجعل يردد بالعربية وهو يضحك :
ــ أهلين .. أهلين .

كان متوسط القامة مثل أغلب الفرنسيين ، فى حوالى الخامسة والثلاثين ، تطل من عينيه الباسمتين نظرة ساخرة ، ويضحك دائما بلا سبب ظاهر . وكانت زوجته سوداء الشعر مليئة ، تبدو أكبر منه فى العمر .

تقدمانا إلى غرفة متسعة ، تضيؤها المصابيح الجانبية . وصافحت مروان ، ذا الشارب الكث ، وزميله السينمائى ، وشاب آخر ذا لحية ثقيلة غطت كل وجهه .

جلست فى مقعد وثير ذى مسندين من الخشب المصقول . و خاطبنى جاك ضاحكا فى عربية سليمة ليس بها أثر للكنة أجنبية :
ــ نحن نلتقى دائما بالصدفة .
قلت :
ــ آخر مرة كنت تدرس مآذن القاهرة .

ضحك بصوت عال وقال :
ــ أنا أدرس الآن اللهجة اللبنانية .
وتحول إلى أنطوانيت متسائلا :
ــ كيف حال الفيلم ؟
أجابت :
ــ منيح . ماشى الحال .

قال غامزا بعينه فى إتجاهى ، وهو ينحنى على طاولة صغيرة صفت فوقها زجاجات الشراب :
ــ أكيد ؟

ملأ لكل منا كأسا من الجين ثم تقدم من ستريو كبير يعلوه غطاء من البلاستيك

الشفاف وقال :

ـ فيروز أم أم كلثوم ؟

قلت :

ـ باخ .

ضحك وهو يقلب فى مجموعة من الاسطوانات :

ـ هذا هو سر فشل اليسار العربى . الجرى وراء الثقافة الأوروبية والانفصال عن الشعب .

قلت محتجا :

ـ باخ ملك للجميع .

التقط احدى الاسطوانات قائلا :

ـ ما رأيك فى شيء معاصر قريب من باخ ومن الموسيقى العربية أيضا ؟ هل سمعت چاريت ؟

هززت رأسى نفيا . فوضع الأسطوانة فوق الجهاز ، وثبت إبرته على حافتها ، ثم عاد إلى مقعده .

إشتبكت إنطوانيت فى حديث بالفرنسية مع زوجة جاك . ووجه الأخير حديثه إلى مروان وهو يشير بإصبعه إلى ورقة استقرت فوق طاولة أمامه :

ـ العريضة بهذه الصورة لن تنشرها صحيفة واحدة فى فرنسا .

تعلقت به عينا مروان فى تركيز ، بينما سأله الشاب الملتحى فى تحد :

ـ لماذا ؟

ضحك وأجاب :

ـ لأنها تتحدث عن إعتقال بضع عشرات من اليساريين بينما هناك آلاف من المعتقلين الآخرين فى سوريا ، من الأخوان المسلمين وغيرهم . ثم أنها لا تحدد المسئولية بوضوح . كلنا نعرف أنه لولا الاتحاد السوفييتى لتهاوى النظام السورى . والعريضة لا تشير إلى ذلك بحرف .

أطرق مروان برأسه قائلا :

ـــ أنا معك . لابد من تغيير صيغة العريضة .

قال الشاب الملتحى بحدة :

ـــ هذا مستحيل .

تدخلت أنطوانيت فى الحديث قائلة :

ـــ إذا تغيرت صيغة العريضة سأسحب توقيعى من عليها .

ضحك جاك وقال :

ـــ ليس من الضرورى تغييرها . يمكن إعداد صيغة مختلفة للنص الفرنسى .

تابعت النقاش وأنا أنصت للموسيقى . كانت قريبة الشبه بمعزوفات آلة القانون العربية . لكن بناءها كان مركبا ، يتصاعد بين الحين والآخر حتى ليوشك أن يبلغ الذروة ، وعندئذ يتراجع إلى نقطة البداية ، ليبدأ محاولة جديدة لبلوغ القمة .

دعتنا زوجة جاك إلى مائدة صفت فوقها مجموعة كاملة من الصحاف والأوانى الخزفية ذات الحواف المذهبة . وبدأنا بالحساء ثم تتابعت بقية الأصناف وفقا للترتيب الكلاسيكى . وإنتهينا بالقهوة والكونياك فى الغرفة الأولى .

قال جاك وهو يلتقط لفافة صغيرة فى حجم علبة الثقاب ، من صندوق للسيجار ، ويضعها على الطاولة :

ـــ هل تعرفون أن الذكرى الثالثة لزيارة السادات للقدس تحل غدا ؟

تناول مروان اللفافة وفض غلافها الشفاف ثم قربها من أنفه وقال :

ـــ هذا نوع جيد .

عقب جاك :

ـــ جاءنى أمس من بعلبك .

إلتقط من صندوق السيجار مسمارا خشبيا قدمه إلى المخرج السينمائى . وبحركة مدربة أولجه الأخير فى طرف سيجارة ، وجعل يحركه إلى الداخل والخارج . ثم إقتطع من لفافة الحشيش حمصة ، دعكها جيدا بين أصابعه ، وفتلها بين راحتيه ثم دفعها داخل السيجارة فى الفراغ الذى صنعه المسمار . وقدم السيجارة إلى زوجة جاك وأشعلها لها .

أخذت الفرنسية نفسا عميقا من السيجارة ، جعل طرفها يتوهج مسافة تربو على السنتيمتر ، ثم أعطتها لأنطوانيت وقالت :

ــ كنت فى القاهرة هذا الربيع عندما وصلها السفير الإسرائيلى . كان مشهد سيارته وهى تجتاز وسط المدينة رافعة العلم الإسرائيلى مشهدا مذهلا بحق .

سألها مروان بالفرنسية :

ــ وماذا كان موقف الناس ؟

قلبت شفتها وقالت :

ــ لم يكن هناك جمهور كثير . وكانت السيارة تسير بسرعة . وكان رجال الشرطة يقفون على جانبى الطريق فى أعداد غفيرة .

قال السينمائى وهو يحرك المسمار فى سيجارة جديدة :

ــ لو جاء إلى دمشق لخرجت الجماهير مرحبة .

ضحك جاك وقال :

ــ كل هذا لأنهم منعوا لك الفيلم .

قال السينمائى :

ــ أى شىء أهون لدينا الآن من الأسد وأعوانه .

أخذت نصيبى من السيجارة المحشوة وقدمتها إلى جاك فسألنى :

ــ هل وجدت ناشرا لكتابك . ؟

قلت :

ــ ليس بعد .

قال وهو يرمقنى بنظرة فاحصة :

ــ هذه هى الأنظمة العربية .

كانت دقات البيان مازالت تجاهد للوصول إلى الذروة . ويبدو أنها أشرفت عليها ، فقد صاحبتها فجأة آهة بشرية ناطقة بالألم أو اللذة أو كليهما معا .

سألت جاك :

ــ هل ستبقى طويلا فى بيروت ؟

أجاب :

ــ ربما . لا أعرف . سأعود إلى فرنسا بعد شهرين لأشترك فى الحملة الانتخابية .

تطلعت إليه متسائلا فقال :
ـــ أنا عضو فى الحزب الاشتراكى . وهناك فرصة كبيرة أمامه هذه المرة . ولو نجحنا فى الانتخابات لأصبح ميتران رئيسا .
ضحك ثم أضاف :
ـــ ماذا .. ألا يعجبك ميتران ؟
قلت :
ـــ أليس هو الذى أعلن أن العدوان الاسرائيلى عام ١٩٦٧ هو حرب وقائية شنتها إسرائيل دفاعا عن النفس ؟
ـــ لا تريد أن تنسى أبدا ؟ أليس كذلك ؟
ـــ ولماذا يجب أن ننسى ؟

تشاغل بتناول السيجارة من مروان ، فجذب منها عدة أنفاس وقدمها إلى . أخذت نفسين ومددت بها يدى إلى أنطوانيت .

إستقرت أناملها فوق أصابعى لحظة ، ثم أحاطت بالسيجارة وجذبتها فى بطء فى إتجاه أظافرى ، دون أن تتخلى عن ملامستى .

تكررت الآهة البشرية المصاحبة لنغمات البيان . وكان الخدر قد سرى فى ساقى ، وازداد إحساسى بالموسيقى إرهافا .

أعلنت أنطوانيت فجأة أنها مضطرة للانصراف كى تعود إلى منزلها فى المنطقة الشرقية . وعرضت عليها زوجة جاك أن تقضى الليلة عندهما ، فرفضت بإصرار قائلة إن أمها ستنزعج إذا تغيبت عن المنزل . وتطلعت نحوى بعينين لامعتين ، فنهضت واقفا وأنا أقول :
ـــ طريقنا واحد .

أطرقت برأسها وقالت :
ـــ سأوصلك .

رافقنا جاك وزوجته إلى الباب الخارجى . وما أن خطونا إلى الشارع حتى لفح

الهواء البارد وجهينا . ترنحت أنطوانيت فأمسكت بذراعى وأسندت رأسها إلى كتفى .

سألتنى :

ــ هل يمكنك أن تقود السيارة ؟

أجبت :

ــ لا . لماذا ؟

قالت :

ــ أشعر بالدنيا تدور بى .

ــ نترك السيارة ونأخذ تاكسى .

ــ لن نجد واحدا فى هذه الساعة . لا . سأقود أنا .

أخرجت سلسلة مفاتيح من حقيبة يدها وركبنا السيارة . بحثت طويلا عن مفتاح المحرك إلى أن وجدته . فأدارته وإنطلقت بالسيارة فى حركة مفاجئة دفعت بى إلى الخلف فى عنف .

قلت :

ــ على مهلك .

ــ لا أظن أنى سأتمكن من السير حتى الشرقية .

ــ باتى عندنا .

وجهت إهتمامى إلى الطريق متوقعا كارثة فى أى لحظة . لكن الشوارع كانت خالية ، ولم نلبث أن عبرنا الحمرا ، وإتجهنا إلى مسكن وديع .

أوقفت السيارة أمام المنزل ، ومالت برأسها على المقود وهى تقول :

ــ نفسى أنام .

قلت :

ــ إصعدى معى ونامى عندنا .

قالت :

ــ الظاهر أن هذا هو ما سيحدث .

خطوت إلى الخارج وإنتظرتها حتى غادرت السيارة ، وأغلقت بابها بالمفتاح .

ثم تقدمت من الباب وناديت على أبو شاكر . ففتح لنا بعد لحظات .

كان المصعد فى الطابق الأرضى فولجناه . وأمسكت بساعدها عندما أوشكت أن تتعثر فى العتبة . ثم أغلقت الباب وضغطت الزر .

أمالت رأسها على كتفى ، فأحطتها بذراعى . ورفعت إلى وجهها فتطلعت فى عينيها .

قالت :

ــ متأكد انى لا أسبب إزعاجا لك أو لوديع ؟

قلت :

ــ متأكد .

كانت عيناها عاجزتين عن التركيز كعيون السكارى . وكان فمها قريبا من فمى . وشفتاها منفرجتين ، مندتين .

قالت :

ــ ألا تريد أن تقبلنى ؟

توقف المصعد فى هذه اللحظة ، فجذبت مصراعه الزجاجى ثم دفعت الباب الحديدى . وغادرنا المصعد وأنا أخرج مفتاح المسكن من جيبى .

طرقت الجرس أولا . ثم وضعت المفتاح فى قفل الباب وأدرته . وشعرت بالباب يجذب من الناحية الأخرى ، ثم إنفرج كاشفا عن وديع .

تهلل وجهه لرؤية أنطوانيت ، وأفسح لها وهو يقول :

ــ أهلين .

خطت إلى الداخل قائلة :

ــ عليكم أن تتحملونى الليلة .

أحاطها وديع بذراعه وطبع قبلة على عنقها ثم قال :

ــ الليلة فقط ؟

وجه إلى الحديث وهو مازال يضمها إليه :

ــ أيام الحرب كان الواحد إذا هبط الليل ، يبيت أينما يكون .

تخلّصت منه فى رفق ، واتجهت إلى الحمام دون أن تستفسر عن مكانه . وتبعت وديع إلى الصالة بعد أن أغلقت باب المسكن . وشعرت من حركاته أنه ثمل .

أمسك بزجاجة فودكا على الطاولة وسألنى :
ــ أصب لك ؟

هززت رأسى نفيا وأنا أرتمى على الكنبة . فصب لنفسه كأسا وأضاف إليها شيئا من عصير البرتقال . وقال بعد أن أخذ منها رشفة :
ــ الليلة مفترجة .

عادت أنطوانيت من الحمام بعد أن غسلت وجهها ، فعرض عليها الفودكا لكنها اعتذرت .

قال :
ــ عندى حشيش لو أحببتما .

قالت :
ــ افضل فنجان قهوة .

قمت واقفا وأنا أقول :
ــ وأنا أيضا . سأعملها .

مضيت إلى المطبخ فأشعلت الموقد . ووضعت كنكة القهوة على النار . وانتظرت حتى غلت فصببتها . وحملت الفناجين فى صينية إلى الصالة .

وجدت وديع منهمكا فى إعداد سيجارة محشوة ، بينما أسندت أنطوانيت رأسها إلى راحتها وشردت . وضعت فنجانا أمامها . وجلست على الكنبة أحتسى فنجانى .

إنتهى وديع من حشو السيجارة فأشعلها وقدمها إلى . أخذت منها نفسين وأعطيتها لأنطوانيت التى أخذت نفسا ثم أعادتها إليه .

جذب عدة أنفاس فى إستمتاع ثم قدم السيجارة إلى ، فاعتذرت قائلا :
ــ لقد دخنت بما فيه الكفاية . وأريد أن أدخل لأنام .

قالت أنطوانيت :
ــ أنا أيضا لابد أن أنام الآن لأتمكن من العمل فى الصباح .

أتى وديع على السيجارة ثم قام إلى غرفته وعاد بجلباب واسع قدمه إلى أنطوانيت .

قلت :

ــ سأترك غرفتى لأنطوانيت وأنام فى الصالة .

قالت :

ــ لا يمكن أن أحرمك من غرفتك .

قال وديع :

ــ سأنام أنا فى الصالة وتنام أنطوانيت فى غرفتى .

قالت :

ــ المشكلة أنى لا أستطيع النوم وحدى . لن يغمض لى جفن طول الليل .

قال وديع وهو يحيط كتفها بذراعه :

ــ اذن تنامى معى فى غرفتى ، فبها سريران .

كان فى غرفتى أيضا سريران ، لكننى لم أفه بكلمة . وتركتهما إلى الحمام فاغتسلت . ثم مضيت إلى غرفتى فخلعت ملابسى ، وإرتديت البيجامة .

إستلقيت على الفراش . وبعد قليل شعرت بالعطش فغادرت الغرفة إلى الصالة ثم المطبخ . كان باب غرفة وديع مفتوحا والنور مضاء . ولمحت أنطوانيت بملابسها الداخلية فى منتصف الحجرة . وعندما كررت عائدا بكوب من الماء ، رأيت باب الغرفة مغلقا .

(١٧)

الفصل الخامس من الفيلم

جنين . نابلس . القدس . أريحا . بيت لحم . الخليل . الأعلام السوداء ترفرف فوق مدن الضفة الغربية المحتلة لنهر الأردن . لافتات تنعى شهداء تل الزعتر . عربات الجيش الاسرائيلى تجوب الشوارع والميادين . سيارات اللاسلكى فى الساحات وعند مفارق الطرق . (ملحوظة لى : أصبحت سيارات الجيب العسكرية الاسرائيلية ، ذات القاعدة المنخفضة ، مميزة تماما بمثل ما كانت موتوسيكلات الجستابو ذات المقاعد الجانبية) .

الطريق المؤدى إلى جبل لبنان . مدرعات سورية تتقدم وهى تطلق مدافعها .

دائرة حول فقرة من بيان لكمال جنبلاط فى جريدة « الأنباء » : « معركة الجبل تقترب فإحملوا السلاح وإصمدوا ، فإن الصمود يعنى ألا نهتز كثيرا لسقوط هذا الموقع أو ذاك . »

إلى جوار الفقرة السابقة عنوانان : « جنبلاط يستعجل عقد مؤتمر القمة العربية » . « أبو إياد ينتقد الصمت العربى إزاء العمل العسكرى السورى فى صف الكتائب . »

واشنطون . دين براون يتحدث إلى الصحفيين : « نحن نسعى لمنع تحول لبنان إلى اليسار . » و« اسرائيل عامل أساسى فى الموقف ، وهى تزود الموارنة بالسلاح . »

دائرة حول فقرة من مجلة تايم الأمريكية الصادرة فى ٣ سبتمبر (أيلول) ١٩٧٦ « فى شهر مايو (آيار) الماضى نزل الكوماندوز الاسرائيلى فى ميناء جونية .. فانتشرت قوات الطرفين على حد سواء ، وعملت على تأمين مساحة للهبوط . وإرتفعت طائرة هليكوبتر على سطح سفينة شحن تقف قرب الشاطىء فى حراسة أسطول صغير ، وكانت تحمل المسئولين الإسرائيليين : وزير الدفاع بريز ورئيس الوزراء رابين . وتم اللقاء مع زعماء الموارنة فى نقطة تحول حقيقية فى علاقات إسرائيل . »

بيروت . جنبلاط للصحفيين : « وضعنا رأسنا فى كفة الميزان . »

عنوان فى صحيفة لبنانية : « أول بيان سوفيتى يدعو القوات السورية إلى الإنسحاب من لبنان . »

تصريح لإيجال آلون فى صحيفة دافار الاسرائيلية : « لقد أحرق لهيب الحرب الأهلية فى لبنان ، الفكرة الخيالية لمنظمة التحرير بشأن تصفية إسرائيل عن طريق إقامة الدولة العلمانية الديموقراطية ،

العربية اليهودية ، التى ستحل محل إسرائيل . »

دائرة حول فقرة من مجلة أمريكية : « إن نساء القاهرة اللاتى يتغطين من قمة الرأس إلى أخمص القدم مازلن أقلية ، وبالمثل تلك الجماعات التى تدعو إلى معاملة الاقباط بإعتبارهم « أهل ذمة » كما كان الأمر فى الامبراطورية الاسلامية منذ عشرة قرون . وهؤلاء كانوا محرومين من المواطنة الكاملة ، أى كانوا مواطنين من الدرجة الثانية ، يدفعون الجزية أو يدخلون فى الإسلام . »

عنوان فى صحيفة « صوت النمور » الناطقة باسم شمعون : « نظرية التعايش فى فلسطين سقطت فى لبنان . »

مبنى قوات النمور . شمعون يستعرض ثلاثة آلاف مقاتل كتائبى بالملابس السوداء فى حفل تخرجهم . يخطب قائلا : « الحرب طويلة ولازلنا فى بداية الطريق . »

مسلح لبنانى يحمل مدفعا ويحيط ساعده بشارة الأرز . يقول بالفرنسية فى مقابلة سينمائية تجريها الممثلة الانجليزية فانيسيا ريدجريف : « على كل لبنانى أن يقتل فلسطينيا . »

بيار الجميل وكميل شمعون وسليمان فرنجية يمرقون من بوابة قصر قديم . ينضم إليهم شربل قسيس فى بهو فاخر الرياش .

عنوان فى صحيفة الكتائب : « تشكيل قيادة عسكرية موحدة برئاسة بشير الجميل .»

عنوان فى « السفير » : « جنبلاط يدعو الفلسطينيين إلى الانتظام وتشكيل حكومة مؤقتة . »

عنوان فى صحيفة : « جورج حبش ، زعيم منظمة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، ينتقد تردد الحركة الوطنية فى إقامة سلطة شعبية . »

عنوان فى صحيفة : « موسكو تنتقد اليمين المتطرف واليسار المتطرف فى لبنان .»

عنوان فى صحيفة : « نايف الحواتمة ، زعيم الجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين ، يقول : الحسم العسكرى مستحيل . »

عنوان فى صحيفة : « حبش يقول : لا تسوية وسنقيم هانوى عربية . »

عنوان فى صحيفة : « إغلاق خامس صحيفة فى الكويت بعد حل البرلمان وتعطيل الدستور خوفا من اللبننة . »

قصر الرئاسة اللبنانية فى بعبدا : الرئيس الجديد إلياس سركيس يصعد الدرج .

عنوان :

فى ١٩٧٦/٩/٢١ ، تسلم سركيس الرئاسة من فرنجية . وعلى الفور دعا المقاومة الفلسطينية إلى الانسحاب من الجبل .

ياسر عرفات للصحفيين : « لا نطلب إلا أن يؤمن ظهرنا ولا يساوم بنا أو علينا . »

عنوان فى صحيفة : « نمور شمعون يطلقون النار على سيارة جنبلاط بعد إجتماعه بسركيس . »

عنوان فى صحيفة : « إعتداء اسرائيلى على السفينة التى أقلت جنبلاط إلى قبرص . »

دمشق . حافظ الأسد يخطب فى جنود « سرايا الدفاع » : « جهودكم فى لبنان وتصديكم للمتآمرين حالت دون تقسيم لبنان . »

بيروت الغربية . طرابلس . صور . صيدا . إحتفالات بالذكرى السادسة لرحيل جمال عبد الناصر .

عنوان فى صحيفة : « وكالة نوفوستى السوفييتية للأنباء فى ذكرى رحيل جمال عبد الناصر : غيابه ملموس بقوة . »

عناوين صحف : « القوات السورية تدخل معظم قرى الجبل والقوات الوطنية المشتركة تقاتل وتتراجع » . « حصار بحرى إسرائيلى لصور وصيدا يمنع وصول المؤن والأسلحة للقوات الوطنية » . « المجلس السياسى للحركة الوطنية ينتقد الصمت العربى والقصور الدولى التقدمى » . « بشير الجميل يعلن : سنحرر لبنان حتى لو توقف السوريون » .

عنوان صحيفة : « ياسر عرفات إلى المقاتلين : إلى السلاح ، فالنصر آت . »

دمشق . الرئيس الأسد يوجه كلمة بالتليفزيون فى ذكرى حرب اكتوبر/ تشرين : « مصممون على الاستمرار فى مساعدة لبنان لانقاذه من آلامه والحفاظ على إستقلاله ووحدته ، وإنقاذ المقاومة الفلسطينية . »

دائرة حول سطور من صحيفة سوفييتية : « أحداث لبنان وضعت موضع الشك وطنية الأنظمة العربية تجاه فلسطين . »

مطار الرياض . الملك خالد يستقبل السادات ، الأسد ، سركيس ، ياسر عرفات ، أمير الكويت .

بيروت . جنبلاط للصحفيين : « الموقف الآن فى أيدى دول النفط » .

عناوين ضخمة لصحيفة لبنانية : « مؤتمر الرياض يقرر وقف إطلاق النار فى لبنان إبتداء من ٧٦/١٠/٢١ . المؤتمر يقرر تحويل قوات الأمن العربية إلى قوة ردع بإمرة سركيس . القوة الجديدة تتألف من ٣٠ ألف مقاتل ، عمادها القوات السورية (٢١ ألف مقاتل) بالاضافة الى الكتيبتين السعودية والسودانية . »

صورة فوتوغرافية فى صحيفة لاجتماع بين جنبلاط وأبو جهاد قائد القوات المشتركة فى الجبل وأحد أبرز زعماء « فتح » . أسفل الصورة عنوانان : « أبو جهاد : الكل فى الحرب الأهلية خاسر » ، « جنبلاط : أطالب الفلسطينيين بموقف موحد » .

عنوان :

وأخيرا توقفت الحرب

مجموعات من أهالى بيروت ترحب بمصفحات قوات الردع . ترحيب ونحر خراف فى الشوف وكسروان وجبيل . قوات الردع تعسكر بجوار المؤسسات الرسمية . دباباتها تجوب الشوارع المدمرة .

عناوين الصحف : « عودة الهاتف بين منطقتى بيروت . الكهرباء تعود ٨ ساعات يوميا . »

شارع فى بيروت . جرافة تعمل فى إزالة الأنقاض . فى منتصف الشارع متراس يتألف من سيارتى ركاب محروقتين .

غرفة فى مستشفى . فى الوسط فراش وحيد يرقد عليه الزعيم المارونى المستقل ، ريمون إدة . يدخل جنبلاط زائرا . عند خروجه يصرح لأحد الصحفيين : « أتوقع محاولات إغتيال جديدة » .

عنوان فى صحيفة : « منظمة الصاعقة تهاجم الجبهة الديموقراطية لتسترد مقرها فى مبنى الأستديو » .

عنوان :

أعلن الصليب الأحمر السويدى ، أن ٧٠٠ ألف لبنانى قد تضرروا من الحرب . وأن هناك عشرة آلاف مفقود فى لبنان .

وقدرت خسائر البرق والهاتف بـ ١١٠ مليون ليرة .

وخسائر رأس المال فى عامى ٧٥ و٧٦ بـ ٧٠٠ مليون ليرة .

والخسائر غير المباشرة فى الدخل القومى بقطاع الصناعة مليارات و٢٧٤ مليونا من الليرات .

وخسائر قطاع الأستيراد خمسة مليارات و٣٥٠ مليون ليرة .

وخسائر قطاع الصادرات ملياران و٢٢٥ مليون ليرة .

وأمكن حصر ۹۰۰۰ تأشيرة من إستراليا للبنانيين .
وقدر أن الحرب خلفت ربع مليون يتيم .

كمال جنبلاط للصحفيين : « أمريكا دفعت فى الحرب ٢٥٠ مليون ليرة » .

مقر الأمم المتحدة فى نيويورك . التصويت يجرى على قرار إنسحاب إسرائيل من المناطق العربية المحتلة ، وإنشاء دولة فلسطينية . أجيز القرار بأغلبية تسعين صوتا مقابل ستة عشر صوتا .

دمشق . عبد الحليم خدام ، وزير الخارجية السورى ، للصحفيين : « نزع السلاح يشمل المقاومة . مقياس الوطنية هو العلاقة مع سوريا .»

أمين الجميل للصحفيين : « الموقف السورى وفر علينا مراحل صعبة جدا . »

الشارع الذى يقع فيه منزل كمال جنبلاط فى بيروت . بقايا سيارة متفجرة قرب منزله . قطع لحم فوق فروع الأشجار . الدماء تلوث سيارة بيضاء على مقربة . سيارة إسعاف تنقل ضحايا الانفجار . طبيب يعلن لأحد الصحفيين : حتى الآن قتيلان و٢٤ جريحا .

عنوان فى صحيفة : « عناصر من منظمة الصاعقة تهاجم مكاتب صحف « المحرر » و« بيروت » و« الدستور » . والمخابرات السورية تهاجم مكاتب « السفير » وتعتقل عددا من محرريها وتنقلهم إلى أحد سجون دمشق . »

عنوان فى صحيفة : « جنبلاط يطالب باستقالة العقيد أحمد الحاج ضابط المكتب الثانى الذى عينه سركيس قائدا لقوات الردع العربية . »

عنوان فى صحيفة : « الكتائب ترفض إغلاق إذاعتها . »

زغرتا . قصر فرنجية . الرئيس السابق للصحفيين : « لن نلقى بارودتنا قبل أن ترجع الطمأنينة . »

عنوان فى صحيفة : « الحركة الوطنية تبلغ قيادة الردع بمكانى تجميع أسلحتها . »

أبو مازن للصحفيين : « المقاومة لن تسلم أسلحتها لكنها ستنقلها من المدن إلى الجنوب . »

مجلة نوفل أوبزرفاتور الفرنسية . دائرة حول فقرة من حديث لجنبلاط : « الفلسطينيون مارسوا علينا نوعا من الانتداب : الأدارة العسكرية ووسائل العيش والاتصال كانت بأيديهم . »

عنوان فى صحيفة : « بدأت الرقابة على الصحف اللبنانية . »

عنوان فى صحيفة : « قيادة سياسية موحدة بين مصر وسوريا ، الاتفاق على عقد مؤتمر جنيف قبل أبريل (نيسان) ، على أن يمثل فيه الفلسطينيون بوفد مستقل . »

الاسكندرية . مبنى الكاتدرائية المرقصية الكبرى .

عنوان :

فى ١٧ يناير (كانون الثانى) ١٩٧٧ ، عقد الأقباط المصريون فى الاسكندرية أول مؤتمر من نوعه فى تاريخ مصر الحديث ، حضره البابا شنودة ، الذى اكتسب منذ إنتخابه للكرسى البابوى سنة ١٩٧١ ، شعبية كبيرة بين الأقباط . وقد لعب دورا بارزا فى تنظيم هذا المؤتمر ، الأنبا صموئيل ، المسئول عن العلاقات الخارجية للكنيسة القبطية .
وبحث المؤتمر « حرية العقيدة » ، و« حرية ممارسة الشعائر الدينية » ، « حماية الأسرة والزواج المسيحى » ، « المساواة وتكافؤ الفرص وتمثيل المسيحيين فى الهيئات النيابية » ، « خطر الاتجاهات الدينية المتطرفة » .
وقدم المؤتمر إلى السلطات عدة مطالب منها : « إلغاء مشروع قانون الردة » ، « العدول عن التفكير فى تطبيق قوانين مستمدة من الشريعة الاسلامية على غير المسلمين » ، « إلغاء القوانين العثمانية التى تقيد حق بناء الكنائس » ، « إستبعاد الطائفية فى تولى وظائف الدولة على كل المستويات »

وفى نفس اليوم ...

الصحف المصرية تحمل عناوين ضخمة : « إلغاء الدعم عن بعض السلع إستجابة لمطالب صندوق النقد الدولى . قائمة بخمس وعشرين سلعة « تحركت » أسعارها . »

عنوان :

وفى الصباح الباكر لليوم التالى ، ١٩٧٧/١/١٨ ، خرجت مظاهرات الاحتجاج على الزيادات الجديدة فى الأسعار فى مدينة الاسكندرية ثم انفجرت بعد ساعات فى القاهرة .
ولم يكد النهار ينتصف حتى كانت المظاهرات تجتاح مصر من أقصاها إلى أدناها .
وفى اليوم التالى ، إنضمت إلى المظاهرات بعض العناصر التى إندفعت إلى النهب والتدمير . وزحفت الجماهير الغاضبة فى أسوان على الاستراحة التى يوجد بها أنور السادات ، وهى مقره المفضل فى الشتاء ، فاضطر إلى الفرار وعاد إلى القاهرة فى حماية قوات الأمن المركزى .
وسقط بضع عشرات من القتلى برصاص قوات الأمن .

الشوف فى لبنان . المعزون يتوافدون على مأتم لأحد الأهالى . كمال جنبلاط ينضم إلى المعزين .

يتحلق البعض حوله . يحدثهم عن فلسفته بالنسبة للموت . يقول : الانسان يشم رائحة الموت قبله بثلاثة أيام .

عنوان :

وبعد يومين ، فى ١٦ مارس (آذار) ١٩٧٧ .. إستقل كمال جنبلاط (٦٠ سنة) سيارته المرسيدس السوداء من قصر المختارة إلى منزله الريفى فى الشاوية ، حيث درج على الانزواء كل يوم جمعة ، غارقا بين الكتب والطبيعة ، على إرتفاع ١٥٠٠ متر عن سطح البحر .

لكنه فى هذه المرة إرتدى ملابس كاكية ، وإشترك مع عدد من العمال فى نقل الحجارة وتسوية قطعة أرض إختارها لحارسه الخاص . وفيما بعد أحضر مرافقاه طعاما مكونا من البيض والجبن البلدى والتفاح ، إلى مائدة من حجرين كبيرين . وعندما إنتهى الغداء ، قام جنبلاط قائلا : « يللا . بدنا نمشى . » وإرتدى ثيابه ، ثم إستقل السيارة مع مرافقيه : سائقه وحارسه الخاص ، فى الطريق إلى بيروت .

وعند تقاطع دير دوريت ....

دماء تملأ الأرض . سيارة جنبلاط وقد إخترقها الرصاص من كل جانب .

أمام قصر المختارة القديم . أسفل مظلة من القماش : جنبلاط مسجى على فراش عريض من الحرير الأبيض ، بين مرافقيه فى الحياة والموت . نساء باكيات فى ملابس سوداء ، وأوشحة بيضاء ، يحطن بالفراش . طوابير طويلة من البشر فى ملابس سوداء ، يمرون أمام الفراش تحت المطر . طلقات المدافع الرشاشة فى الهواء تختلط بأصوات الرعد وأضواء البرق .

بيروت . موكب مهيب من عشرات الألوف يشيعون جنازة جنبلاط .

مكان الجريمة مرة أخرى . سيارة تحمل هذه الأرقام : بغداد ٧٢٧١٩

عنوان :

السيارة التى إستخدمها الجناة . لكن الشكوك تتجه إلى عاصمة عربية أخرى .

صورة فوتوغرافية ثابتة لآخر لقاء ثنائى بين كمال جنبلاط والرئيس السورى حافظ الأسد فى دمشق .

(١٨)

قالت أنطوانيت وهى تسحب الشريط من الآلة :
ـــ بقى الجزء الأخير من الفيلم وهو الخاص بعملية الليطانى . هل تظن أننا نستطيع الانتهاء منه غدا ؟

تساءلت :
ـــ ولماذا لا نحاول اليوم ؟

ألقت بنظرة على ساعتها وقالت :
ـــ الساعة الآن الثالثة . ولابد أن نأكل شيئا . ثم أنى أريد أن آخذك إلى مكان .

تطلعت إليها متسائلا ، فقالت :
ـــ أريدك أن تقابل شخصا أعرفه .
ـــ من هو ؟
ـــ لن أخبرك الآن .

تأملتها فى إستغراب ، فسألتنى :
ـــ هل تثق بى ؟

قلت :
ـــ طبعا .
ـــ إذن لا تسأل .

غادرنا المكتب إلى الشارع المزدحم . وولجنا مطعما شعبيا صغيرا . أكلنا كوسة بالطماطم واللحم وأرزا ، مع حساء العدس . وأصرت انطوانيت على أن تدفع الحساب الذى بلغ عشرين ليرة .

عدنا إلى حيث تركت سيارتها الفولكس ، فركبناها . وبعد قليل كنا ننطلق فى الطريق المؤدى إلى المطار .

بلغنا مخيم صابرا ، فإنحرفت بالسيارة نحوه . وإعترضنا عدد من المسلحين عند

حاجز من البراميل . كانوا يحملون شارات الكفاح المسلح الفلسطينى . وتعرف أحدهم على أنطوانيت فحياها فى ود وتركونا نمر .

أوقفت أنطوانيت السيارة بعد عدة أمتار ، إلى جوار بائع فلافل صنع من عدة مقاعد وموائد خشبية ، مطعما فى الهواء الطلق . تناولت حقيبة يدها ورفعت زجاج النافذة ، ففعلت مثلها بالنافذة المجاورة لى . ثم غادرت السيارة ووقفت أتأمل برطمانات « الكبيس » الملون ، الموزعة فوق موائد المطعم الصغير .

جذبتنى من ذراعى ، وإنطلقنا فى شارع مزدحم بالبوتيكات والحوانيت ، بينها واحد للملابس المستعملة ، التى تدلت من علاقات مثبتة فى السقف . وكانت الجدران مغطاة بالشعارات والملصقات السياسية وصور الشهداء .

إنتقلنا إلى شبكة من الأزقة ، قامت على جوانبها منازل متواضعة لا يتجاوز أغلبها الطابقين إرتفاعا . وتسللت إلى أنفى رائحة البصل المقلى والكزبرة مع التوم . وأوشكت أن أصطدم بعدد من الأطفال يلعبون الكرة . وإضطررنا أن نتوقف ونلتصق بالجدران ، لنفسح الطريق لثلاث سيدات فى معاطف سوداء ، أحطن رؤوسهن بمناديل بيضاء ، يسرن متجاورات .

جاءنا صوت شجار حاد من نافذة فوق رأسينا . وسمعت إمرأة تصرخ بلهجة مصرية صميمة ، طالبة جواز سفرها كى تعود إلى مصر . ومرت السيدات الثلاث ، فواصلنا السير بضع دقائق ، ثم ولجنا منزلا وطرقنا باب أحد المسكنين اللذين يتألف منهما الطابق الأول .

فتح لنا شاب طويل القامة فى بنطلون وبلوفر ، أضاءت وجهه إبتسامة مشرقة لرؤيتنا . ودلفنا إلى صالة نظيفة بها مائدة معدنية وعدة مقاعد، وفى نهايتها مكتب تعلوه أرفف من الكتب .

أشار لنا أن نجلس ، ثم خطا ببطء وهو يحرك إحدى ساقيه بصعوبة ، وإحتل مقعدا فى مواجهتنا . تأملنى صامتا دون أن تختفى البشاشة من وجهه . كان وجها وسيما ، حاد التقاطيع ، تملؤه التجاعيد التى تتناقض مع شعر أسود فاحم ، تدلت منه خصلة فوق جبهته . وكان ثمة تعبير غريب فى عينيه لم أتبين مغزاه .

ساد بيننا الصمت فأشعلت سيجارة . وفعلت أنطوانيت المثل . وأخيرا إغتصبت ضحكة وقلت لها .

ــ ألن تعرفيني بصديقك ؟

قالت :

ــ وليد فلسطيني من مواليد يافا . وهو معلم رسم فى مدرسة المخيم . كما أنه يعمل فى الترجمة بمؤسسة الأعلام .

وأضافت بعد لحظة :

ــ لقد حدثته عنك . وهو سعيد بلقائك .

نقلت البصر بينهما فى حيرة . ولاحظت أن عينيه لا تفارقان شفتيها .

قالت بصوت مرتعش :

ــ انه لا يسمع ولا يتكلم .

تطلعت إليه ، فبادلنى النظرات . وأحسست أنه فهم ما قالته .

سألتنى :

ــ ماذا تريد أن تشرب ؟ لا أظن أننا سنجد خمرا هنا .

قلت بسرعة :

ــ لا أريد أن أشرب شيئا .

قالت :

ــ نفسى فى قهوة . أعمل لك معى ؟

قلت :

ــ لا بأس .

مضت إلى باب فى جانب الصالة ، تبدو منه إسطوانة غاز . ورفعت عينى إلى الجدران ، وجعلت أتأمل الملصقات التى إنتشرت فوقها . وكان بينها جريدة حائط مطبوعة ، موجهة إلى الأطفال . و حانت منى نظرة إلى وليد ، فألفيته يتأملنى فى ابتسامة ودودة . وأدركت أن التعبير الغريب الذى تعكسه عيناه ، هو نفسه الذى نراه دائما عند ذوى العاهات المتصلة بالسمع والبصر ، ويجعلهم يبدون كأنهم يرونك ويفكرون فى شيء آخر فى الوقت نفسه .

أقبلت علينا أنطوانيت بصينية القهوة . مددت يدى إلى أحد الفناجين ، فقالت :

ــ لا . هذا لوليد . فهو يشربها بسكر زيادة .

قلت وأنا آخذ فنجانا آخر :

ــ لماذا المفاجأة ؟ لماذا لم تقولى لى من البداية ؟

ترددت ثم أجابت :

ــ لا أعرف .

أخذ وليد رشفتين من فنجانه ثم أعاده إلى الصينية . وإستدار نحو المكتب ، فإلتقط ورقة وقلما ، وكتب بضعة أسطر ثم ناول الورقة إلى أنطوانيت .

قالت بعد أن قرأت السطر الأول :

ــ إنه يرحب بك .

أكملت قراءة الورقة فى صمت ، ثم طوتها ووضعتها فى جيبها . وأرسلت بصرها نحوه .

فرغت من قهوتى ، فتململت فى مجلسى ، وقلت لأنطوانيت أن لدى موعدا فى المنزل بعد نصف ساعة . فقامت واقفة وهى تقول :

ــ يمكننا أن ننصرف .

تغيرت ملامح وليد ، وبدا شىء من اللهفة فى عينيه . رمقته أنطوانيت متسائلة ، فغادر مقعده ، وتقدم وهو يعرج إلى مكتبه فجلس إليه . وتناول قلما سميكا من أقلام الفلوماستر ، وورقة بيضاء .

تقدمت أنطوانيت منه حتى أصبحت خلفه وهى تقول لى :

ــ دقيقة .

عكف وليد على الورقة بضع ثوان ثم نحاها جانبا وجذب ورقة أخرى . وإلتقطت أنطوانيت الورقة ثم ناولتها لى .

طالعنى رسم لم أتبين فحواه . كان يتألف من عدة خطوط وبقعة سوداء . قلبت الورقة فى يدى . ولم ألبث أن تعرفت على خريطة فلسطين كما كانت تبدو سنة ١٩٤٨ ، عندما إقتطع منها الصهاينة جزءا صغيرا أعلنوا فيه دولتهم .

إنتهى وليد من ورقة ثانية ، وعكف على أخرى . وناولتنى أنطوانيت الورقة ، فوجدتها تمثل نفس الخريطة ، لكن البقعة السوداء التى تمثل إسرائيل كبرت وتضخمت ، فاحتوت الضفة الغربية لنهر الأردن ، وشبه جزيرة سينا ، وهضبة الجولان السورية ، ومدينتى غزة ورفح .

وفى الورقة الثالثة ، إمتدت أسهم من البقعة السوداء إلى جنوب لبنان . وفى الرابعة إمتدت الأسهم إلى بيروت وعمان ودمشق . وفى الورقة الخامسة إمتدت إلى بغداد والكويت والظهران وبنى غازى .

شعرت بالضيق . فقد بدا لى أنه يعاملنى كما لو كنت تلميذا فى مدرسته . فما أراد أن يلمح إليه يعرفه الكافة من المحيط إلى الخليج . ولم يلبث ضيقى أن تبدد ، عندما رأيت أن ظواهر الحال تنطق بعكس ذلك .

طويت الأوراق الخمس ودسستها فى جيبى ثم صافحته . غادرت المسكن وخطوت إلى الخارج . ووقفت أنتظر أنطوانيت فى مدخل المنزل . ورأيت على الجدار المقابل إحدى ملصقات الشهداء . وكانت تحمل صورة فوتوغرافية رديئة لوجه باسم يفيض بالفتوة . وأسفل الصورة كان إسمه ، وإشارة إلى أنه تلقى دراسة عسكرية أكاديمية ، وأنه قتل أثناء فك شحنة متفجرة .

لحقت بى أنطوانيت بعد فترة ، فعدنا أدراجنا فى صمت إلى حيث تركنا السيارة . وسرعان ما إجتزنا حاجز المسلحين ، وإنطلقنا فى الطريق إلى مركز المنطقة الغربية .

قالت :

ـــ أصيبت ساق وليد أثناء المذبحة التى دبرها الملك حسين للفلسطينيين فى الأردن سنة ٧٠ . وتعرفت أنا عليه فى نهاية الـ ٧٥ . وكان طبيعيا تماما . يتكلم ويغنى وكل شىء . وبعد الزعتر لزم الصمت .

سألتها :
ــ ألم يذهب إلى طبيب أو مستشفى ؟
ــ كل الذين فحصوه أجمعوا على أن أجهزته السمعية والصوتية سليمة .

أبطأت السرعة لتتفادى الاصطدام بسيارة تحمل أرقاما سورية ، كانت تسير فى منتصف الطريق . ودقت آلة التنبيه عدة مرات دون فائدة . وإضطرت فى النهاية أن تبقى خلف السيارة الأخرى .

إستطردت :
ــ إنه يترك لى الحرية ان أفعل ما أشاء . وأن أتركه إذا أردت .
رمقتها متسائلا ، فأضافت فى عجلة وقد تضرج وجهها :
ــ إنه لا يلمسنى . لكنى لن أتركه . فأنا أحبه .

قطعنا بقية الطريق فى صمت . وأردت أن أترك السيارة فى الحمرا ، لكنها أصرت على توصيلى حتى باب المنزل . ووقفت فى الطريق حتى إنصرفت ، فعبرته إلى بقالة على الرصيف المقابل . وإشتريت كيلو من العنب ، وعدة قطع من الجبن ، وبعض العلب المحفوظة ، وعدة علب من البيرة .

كان المصعد فى الطابق الأخير ، ففضلت أن أصعد الدرج . ولم أجد وديع فى الداخل ، فوضعت مشترواتى على طاولة المطبخ . وأخرجت علبة بيرة من الثلاجة . أولجت إصبعى فى حلقة غطائها وجذبتها فى عجلة فإلتوى . وإنطلق من العلبة رشاش من البيرة سقط فوق وجهى وملابسى .

أفرغت العلبة فى كوب زجاجى ، وجففت وجهى وملابسى . ثم حملت الكوب إلى الصالة ، وجلست بجوار التليفون . جرعت نصف الكوب مرة واحدة ، وتناولت سماعة التليفون ثم أدرت الرقم .

دق الجرس طويلا قبل أن يأتينى صوتها باردا متحفظا .
قلت :
ــ مر يومان دون أن أراك .
قالت :
ــ

ـــ لقد رأيتنى بالأمس .
ـــ لكنك لم تكونى وحدك .

لم تعقب فقلت :
ـــ أريد أن أراك .
ـــ متى ؟
ـــ الآن .
ـــ هذا مستحيل .
ـــ لماذا ؟
ـــ أهل عدنان جاءوا من الضيعة ولا أستطيع تركهم .
ـــ والعمل ؟

ضحكت وقالت :
ـــ إنتظر للغد .
قلت :
ـــ لكنى أريدك الآن بشدة .
ـــ إنت شربان ؟
ـــ لم أشرب اليوم غير نصف علبة بيرة . قررت الامتناع عن الشراب .
ضحكت ساخرة .
قلت :
ـــ أريد أن أقبلك . كلك . حتى قدميك .
تساءلت فى دلع :
ـــ صحيح ؟
ـــ أجل .
ـــ لابد أن أتركك الآن . كلمنى فى الصباح .
ـــ كلمينى أنت أحسن .

أعدت السماعة مكانها . وأفرغت بقية علبة البيرة فى الكوب وجرعتها مرة واحدة . أشعلت سيجارة ، وأدرت جهاز التليفزيون .

تابعت اللقطات الأخيرة من حلقة أمريكية ، حيث تجمعت كالعادة سيارات الشرطة من كل حدب وصوب ، وسيريناتها تعوى . وجاءت بعد ذلك نشرة الأخبار . كان بها نبأ عن مؤتمر قمة عربى فى عمان خلال أيام . وتصريحات للمسئولين المصريين بمناسبة الذكرى الثالثة لمبادرة السلام التاريخية . وظهر وزير الخارجية المصرى على الشاشة ، وهو يعلن أن معاهدة السلام جعلت حرب ٧٣ آخر الحروب . وتبعه رئيس الأركان أبو غزالة ، معلنا إستعداد القوات المسلحة المصرية للدفاع عن دول الخليج .

سمعت صوت فتح الباب الخارجى . ودلف وديع حاملا كيسا من التفاح . تناولت منه الكيس ووضعته على الطاولة . وخلع سترته وألقى بها على الكنبة .

أومأ إلى التليفزيون وسأل :

ــ هل رأيت النشرة من أولها ؟

أومأت برأسى قائلا :

ــ لم تتحدد بعد الدول التى ستشترك فى القمة .

قال :

ــ سأذهب إلى عمان فى الصباح . أرى أنك إنتهيت اليوم مبكرا . هل تمت عملية التفريغ ؟

ــ ستنتهى خلال يومين . وبعد ذلك يومان أو ثلاثة لكتابة التعليق ، ثم أسافر على الفور .

ــ والكتاب ؟

ــ صاحب « الناشر المعاصر » كلمنى معتذرا . أما لميا فلم تفرغ بعد من قراءة المخطوطة .

ــ ألم تقل أن هناك إتفاقا بينك وبين عدنان ؟ لا أفهم موقفها . أخشى أن يكون فى الأمر شىء .

ــ تقصد محاولة للتنصل من الاتفاق ؟

ــ شىء من هذا القبيل .

هززت كتفى وقلت :

ــ فى هذه الحالة لا يبقى أمامى غير صفوان .
ــ لكن صفوان لن يدفع لك شيئا . الآن على الأقل .
ــ إذن يتبقى لى أجر الفيلم .
ــ كم سيدفعون لك ؟
ــ لا أعرف . لم نتكلم فى هذا حتى الآن .
ــ يجب أن تفاتح أنطوانيت . ليس فى الأمر ما يعيب . الجميع هنا يقبضون . هل تحب أن أكلمها لك ؟
ــ لا داعى . سأتكلم معها .

مد يده إلى جيب سترته وأخرج مفكرته ثم إتجه إلى جهاز التليفون . قال وهو يدير رقما :
ــ ألا تحتاج إلى نقود ؟
قلت :
ــ ليس بعد .

قال وهو يدير الرقم من جديد :
ــ لماذا لا تكتب مقالا أو قصة قصيرة لإحدى الصحف ؟ يمكنك أن تجمع مبلغا معقولا لو أردت .
ــ أعرف .

ألصق السماعة باذنه وهو يقول :

ــ اكتب أى كلام . الجميع يفعلون ذلك . وأنت تعرف المصطلحات الرائجة فكلها من القاموس الثورى .
ــ أنا مرهق جدا . ولا أنام جيدا . وأمسك القلم بصعوبة . حتى التعليق لا أعرف كيف سأكتبه .

أعاد السماعة إلى الجهاز وقلب صفحات مفكرته قائلا :
ــ ما رأيك فى مقابلة مع شخصية لامعة ؟
سألته بلورى :

ــ كم تساوى مقابلة صحفية مع كارلوس ؟
ــ الأرهابى الدولى ؟ هناك إشاعة عن وجوده فى بيروت .

اطرقت برأسى وقلت :

ــ لو إلتقيت به سأجرى معه حوارا . أعتقد أن ذلك فى إمكانى .

تطلع إلى مبهوتا :

ــ تقصد أنك تعرف مكانه ؟

قلت :

ــ لا . لكننى قد أقابله .

خطا نحوى فى انفعال :

ــ حوار كهذا لا يقدر بمال . كل صحف العالم ووكالاته ستتنافس على شرائه . هل تتكلم جادا ؟
ــ بالطبع .
ــ ستكون أول من يقابله فى العالم .
ــ ولهذا سألتك عن الثمن .
ــ أنت الذى تحدده . إسمع . دعنى أذهب معك . سنعد حوارا لم يحدث من قبل .
ــ لست واثقا بعد أنى سأنجح فى لقائه .

تطلع إلى ساعته ثم خطا نحو التليفون . وتوقف فجأة وجعل يذرع الصالة جيئة وذهابا وهو يفكر . ثم تناول سترته وأعاد المفكرة إلى جيبها وإرتداها قائلا :

ــ أنصحك أن تهتم بهذا الأمر . إنها ضربة العمر بالنسبة لأى صحفى . إذا خفت أو غيرت رأيك لأى سبب فأنا مستعد لأن أحل محلك . سأذهب الآن إلى الوكالة . كلمنى هناك اذا إحتجت إلى شىء .

اطرقت برأسى ، وشيعته بنظرى إلى الباب .

(١٩)

تناولت إفطارى بسرعة ثم كنست المسكن ورتبت الصالة ، ودعكت حوضى الحمام ، ومقعد التواليت وغطائه . وتمكنت بصعوبة من إزالة قطع الصابون التى إلتصقت بالحوض . وغسلت الأوانى المتراكمة فى المطبخ ، وأدخلت شيئا من النظام على فوضاه . ثم حلقت ذقنى وإستحممت . وإستبدلت ملابسى الداخلية . ثم علقت المنشفة المبتلة فى الشرفة ، ووضعت واحدة نظيفة مكانها .

وحوالى العاشرة تلفنت لميا .

سألتنى :

ــ هل أنت ذاهب إلى الفاكهانى اليوم ؟

أجبت :

ــ أجل . لماذا ؟

قالت :

ــ يمكننى أن أوصلك . فلن أذهب إلى الدار .

قلت :

ــ عظيم . سأنتظرك . ما رأيك فى أن تصعدى الأول لتحتسى القهوة ؟

ترددت لحظة ثم سألتنى :

ــ وديع عندك ؟

ــ وديع فى عمان . ولن يعود قبل الغد .

ــ أوكى .

ــ والمرافق ؟ هل سيأتى معك ؟

ضحكت وقالت :

ــ سأتخلص منه قبل أن آتى . باى باى .

ملأت كأسا من الكونياك وجلست أرتشفها فى الصالة وأنا أتأمل ، خلال باب الشرفة ، السماء التى غطتها الغيوم . وبعد ربع ساعة دق جرس الباب .

إحتضنتها بذراعى وأنا أغلق الباب بالذراع الأخرى . تخلصت منى فى رفق وهى تقول :

ــ هربت من أبو خليل ويجب أن أعود بسرعة وإلا إعتقد أنى إختطفت .

خطت نحو الأريكة وهى تفك أزرار معطفها الواق من المطر . ثم خلعته وألقت به على مقعد ، وأتبعته بحقيبة يدها . وأخيرا جلست .

كانت ترتدى بنطلونا ضيقا من الشمواه ، بنى اللون ، وبلوزة صفراء . وكان ثمة جورب أصفر من الصوف السميك فى قدميها ، داخل حذاء مفتوح من الخلف ، ذى قاعدة مرتفعة من الخشب .

قالت :

ــ أين القهوة المزعومة ؟

قلت :

ــ حالا .

هرعت إلى المطبخ ، فأعددت القهوة ، وحملتها إلى الصالة . وضعتها على الطاولة ، وجلست إلى جوار لميا وأحطتها بذراعى ثم قبلت شفتيها .

قالت فجأة وهى تتخلص منى :

ــ ما هذا ؟

كانت تقصد صندوقا أسود صغيرا ، مثبتا فوق باب المسكن .

قلت فى دهشة :

ــ جرس الباب .

قالت :

ــ أكيد ؟

قلت :

ــ وماذا يمكن أن يكون ؟

ــ جهاز تسجيل أو كاميرا سرية .

ضَحِكْتُ فأخذت رشفة من فنجان القهوة وأعادته إلى الصينية قائلة :

ــ أريد أن أدخل الحمام .

نهضت واقفا لأفسح لها الطريق ، فقالت :
ــ يجب أن تخرج من المسكن .
قلت مبهوتا :
ــ لماذا ؟
ــ لن أستطيع إذا أنت بقيت هنا . أخجل .
ــ لكن أين أذهب ؟
ــ إشتر لى شيئا . هل توجد لديك مياه معدنية ؟
ــ أظن ذلك . توجد زجاجة أو إثنتان من « صحة » .
ــ أنا لا أشرب المياه اللبنانية . إشتر لى زجاجة « بربيه » .

إرتديت سترتى وصحبتنى إلى الباب ، فأغلقته خلفى بالمفتاح . ولم أكد أخرج إلى الطريق حتى أخذ المطر يتساقط بقوة . ألفيت البقالة المواجهة مغلقة ، فجريت حتى الناصية ، وولجت بقالة أخرى .

إشتريت زجاجة البربيه ، وتلكأت قليلا داخل الحانوت على أمل أن يتوقف المطر . وعندما رأيته يشتد ، إبتعت صحيفة وضعتها فوق رأسى ، وعدت جريا إلى المنزل .

فتحت لى ، فسألتها :
ــ كله تمام ؟
ضحكت وأجابت :
ــ تمام يا بيه .

أفرغت لها كوبا من المياه المعدنية ، وعرضت عليها كأسا من الكونياك فرفضت . ملأت واحدة لى . ومضيت إلى الحمام فأغلقت بابه خلفى ، ووقفت أتأمل محتوياته . لم يكن هناك ما يدل على أنها كانت به . ثم إكتشفت أن المنشفة فى غير المكان الذى وضعتها فيه . ووقعت عيناى على زجاجة « سبراى » على حافة الحوض ، لم تكن هناك من قبل . تناولت الزجاجة فوجدتها فرنسية وعليها إشارة إلى أنها أفضل ما

يمكن استخدامه « لتطهير الأجزاء الحميمة من الجسد وإكسابها رائحة وطعما منعشين . »

أعدت الزجاجة إلى مكانها ، ووقفت أفكر : هل نستها صدفة ؟ أم تعمدت أن تتركها لأراها ؟ النتيجة واحدة فى الحالتين .

رجعت إلى الصالة فوجدتها قد أغلقت باب الشرفة ، وأشعلت المدفأة الكهربائية ، وخلعت صندلها وجوربها ، ومدت ساقيها أمامها على الطاولة .

جلست إلى جوارها ، وأنا أتأمل قدميها الأبيضين المتناسقين ، وأصابعهما الرشيقة التى يلتمع الطلاء الأحمر القانى فوق أظافرها الطويلة . ورأيتها تنظر إلى قدميها نظرة ذات مغزى .

ركعت على ركبتى فوق الأرض ، وأمسكت بقدميها وتحسستهما بيدى .

قلت :
ـــ لا كالو أو أى زوائد جليدية .
قالت :
ـــ ولماذا يكون لدى ؟
ـــ كل الناس عندهم .
ـــ بسبب الأحذية . أنا أدفع مصارى للحصول على أحذية مريحة .

سألتها :
ـــ من بيروت ؟
أجابت :
ـــ لا . من إكزافييه .

لم أكن سمعت الاسم من قبل فلزمت الصمت . وإنحنيت برأسى فوق قدميها . قربت فمى من أصابعها ، وتناولت أحدها بين شفتى ، وإمتصصته فى بطء .

رفعت عينى إليها ، فألفيتها تتأملنى فى إستغراق ، وقد خلا وجهها من أى

تعبير . لعقت بين الأصابع ، ثم مررت بشفتى فوق ظهر قدميها وجانبيهما حتى الكاحلين .

إصطدمت بعد لحظة بطرف البنطلون ، فإعتدلت على ركبتى ومددت يدى إلى وسطها . تمنعت قليلا ثم ساعدتنى . وسرعان ما تكوم البنطلون عند قدميها .

تجلى فخذاها البيضاوان لناظرى . تحسست بشرتهما الناعمة براحة يدى . ثم أحنيت رأسى فوقهما .

تسلل عطرها الغامض إلى حواسى ، خفيفا آسرا . قبلت أسفل ركبتيها وباطن فخذيها . وكان طعمها رطبا منعشا ، مثل طعم الجسم بعد الحمام مباشرة .

إعترضنى قماش شفاف مطرز بالدانتللا ، فلعقت خشونته التى إمتزجت بطراوتها . وجذبته إلى أسفل ، فتكشف شعرها ، خفيفا ، مقصوصا فى عناية .

مالت بجسدها حتى إستلقت على الأريكة ووجهها ناحيتى . قربت وجهى ، فأحاطت بشرتها الحريرية بوجنتى ، وإلتحمت شفتاى بلحمها الرطب . وتسلل إلى لسانى طعم البحر المالح ، فإمتصصته بإستمتاع .

بدأ فكى يؤلمنى ، فرفعت بصرى إليها . ورأيتها قد أغمضت عينيها . وبعد لحظة لم أعد قادرا على تحريك فكى ، فإبتعدت عنها . وإرتميت على مقعد خائرا مرهقا .

فتحت عينيها بعد برهة . وإعتدلت جالسة فى إعياء وأخذت تصلح من شأن ملابسها ، ثم تنهدت . وطلبت منى سيجارة .

أشعلت سيجارة وأعطيتها لها ، ثم أشعلت واحدة لى . ولحظت أن عينيها إغرورقتا بالدموع .

قالت بصوت هامس :
ـــ اليوم ذكرى وفاة أمى .

إنتقلت إلى جوارها وأحطتها بذراعى . وأراحت رأسها على كتفى . ثم تطلعت

إلى فخذى . ومدت يدها إلى بطنى فى تردد ، ثم نظرت فى عينى وسألت :
ــ هل ؟
ــ لم يحدث لى شيء . ليست هذه عادتى .
ــ أنا كان ما باغازل هيك .

نظرت إلى ساعتى من فوق رأسها وقلت :
ــ الساعة الآن الثانية عشرة . ويجب أن أخرج . أنت أيضا وإلا سألوا عنك .
ــ أوف . هذه المدينة تضغط على أعصابى . صغيرة صغيرة . لا يستطيع الواحد أن يتحرك فيها بحرية دون أن يراه أحد . نفسى أن نكون معا فى باريس . وحدنا . نتشاجر ونتصايح . وننام معا .
ــ العرب هناك فى كل خطوة .
ــ صحيح . إذن جنيف .
ــ تعرفينها جيدا . ؟
ــ طبعا . زرتها عدة مرات .
ــ وكنت تنزلين فى فندق نوجا هيلتون ؟

تساءلت بدهشة :
ــ كيف عرفت ؟
ــ لأن كل العرب أمثالك ينزلون هناك .
ــ وماذا فى هذا ؟
ــ لا شيء سوى أن صاحب الفندق إسرائيلى يتبرع لاسرائيل بمليونى دولار سنويا . وكان فى رفقة بيجين عندما زار القاهرة أول مرة . وكان معه فى إستقبال السادات فى بئر سبع العام الماضى .

رفعت حاجبيها فى إستنكار :
ــ وما شأنى أنا بكل هذا ؟
ــ صحيح . ما شأنك أنت بكل هذا .
أضفت بعد لحظة :
ــ ثم أنى لا أملك نقودا للسفر .

قالت بحماس :
ــ أدفعلك .

هززت رأسى :
ــ وما أدراك أنى أريد أصلا أن أسافر معك ؟
دفعتنى بيدها فى صدرى قائلة :
ــ ما أتقلك .

نهضت واقفة فسوت شعرها وتناولت حقيبتها وأسرعت إلى الباب .

هرعت خلفها ، وأمسكت بها ثم ضممتها إلى وقبلتها . ثنت فخذيها وألصقتهما بجسمى ، وجعلت تتحرك ببطء . ثم إبتعدت قائلة :
ــ يجب أن أذهب .
قلت :
ــ أنسيت أنك وعدت بتوصيلى ؟
قالت :
ــ الأفضل ألا أفعل حتى لا يرانا أحد معا .

تركتها تذهب . وساويت الأريكة ، وأصلحت من شأن ملابسى وشعرى . ثم إرتديت سترتى وإنطلقت إلى الخارج .

(٢٠)

الفصل السادس والأخير من الفيلم

عنوان :

فى شهر مايو (آيار) ١٩٧٧ ، تولى مناحم بيجين رئاسة وزراء إسرائيل . وبعد شهرين كان يزور واشنطون حاملا مشروعا لاستئناف مفاوضات التسوية لأزمة الشرق الأوسط . وقبل سفره أعلن أن إسرائيل مستعدة للاشتراك فى مؤتمر جنيف ، بشرط إستبعاد منظمة التحرير الفلسطينية .

لكن الزيارة أسفرت عن اتفاقه مع الرئيس كارتر على الالتفاف حول مؤتمر جنيف ، وإخراج الاتحاد السوفييتى ومنظمة التحرير الفلسطينية من المفاوضات .

كانت المؤشرات واضحة عن أهداف السادات ، ومفاتيح شخصيته . ووجد بيجين الفرصة ملائمة لاخراج مصر نهائيا من التجمع العربى .

وبدأ بيجين بان ألمح للسادات من خلال القصر الملكى فى المغرب ، أن لديه معلومات عن مؤامرة ليبية ضد السادات . وأوضح أنه على إستعداد لاعطاء التفاصيل مباشرة لمندوب مصرى مفوض .

وسارع السادات بإرسال مدير المخابرات العسكرية المصرى إلى الرباط حيث إلتقى هناك برئيس الموساد ، الذى أعطاه تفاصيل المؤامرة . وأمر السادات على الفور بشن حرب تأديبية على ليبيا . فقصفت الطائرات المصرية لمدة أسبوع كامل مواقع ليبية على الحدود ووراء الحدود . وأمل السادات أن يثبت بهذه الغارة قدرته على التصدى للنظم المناوئة للولايات المتحدة .

وخلال الشهور التالية ، جرت حمى من الاتصالات السرية توجت بلقاء سرى بين موشيه دايان ، وزير خارجية اسرائيل ، والملك حسين ملك الأردن فى ٢٤ أغسطس (آب) ، وبينه وبين ملك المغرب فى الشهر التالى .

وبعد شهرين ، فى ١٩ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٧٧ ...

مطار القدس . الرئيس السادات يهبط سلم طائرته الخاصة (وثمنها ١٢ مليون دولار دفعتها السعودية) وإلى جواره إسحق نافون ، رئيس دولة إسرائيل .

عنوان :

بأول زيارة من نوعها لرئيس عربى ، وتحت شعار السلام الدائم بأى ثمن ، وفى ظل الهيمنة الأمريكية ، إعترف السادات بحق اليهود التاريخى فى فلسطين ، وفى المدينة المقدسة ، فضلا عن حق المستوطنين الصهاينة فى الوجود .

وقلب هذا الاعتراف المعايير . فأصبح بيجين يتحدث عن إعترافه بحق الوجود لمن تبقى من الفلسطينيين تحت الاحتلال الصهيونى فى شكل مشروع الادارة الذاتية لسكان الضفة الغربية لنهر الأردن وقطاع غزة . أما من لا يوجد تحت الاحتلال الصهيونى ، فليس له حق فى فلسطين ، ويجب تذويبه فى الدولة التى يعيش فيها .

الكنيست الإسرائيلى . السادات يخطب معلنا : « لن تكون هناك حروب أخرى .. بين مصر وإسرائيل .. »

عنوان :

وقبل أيام قليلة ...

قامت إسرائيل بتجربة طائرات الكفير التى إنتجت فى مصانعها ، فى هجوم مفاجىء على قرية العزية جنوبى لبنان .

عنوان صحيفة « يديعوت أحرونوت » الاسرائيلية : « قائد سرب الكفير يعلن أن التنفيذ كان منقطع النظير ، والأجهزة المتطورة عملت بامتياز . »

مطار القدس . السادات يستعد لركوب طائرته متوجها إلى بلاده . يصافح قائد سرب الكفير الاسرائيلى الذى هاجم قرية العزية ، وهو نفسه الذى تولى مرافقة طائرة السادات فى سماء القدس .

دائرة حول فقرة من مقال بتوقيع الصحفى « جيم هوجلان » فى صحيفة « واشنطون بوست » : « أثبتت التحقيقات التى أجراها الكونجرس ، عن طريق لجنة برئاسة السناتور فرانك تشيرش ، مع بعض قيادات وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ، أن الملك حسين كان يتلقى أموالا من المخابرات الأمريكية . وبينما كان جمال عبد الناصر يحاول إسقاط النظام السعودى المحافظ فى الستينات ، إستطاع كمال أدهم ، مدير المخابرات السعودية ، وضابط الاتصال بينها وبين المخابرات الأمريكية ، أن يجند بحرص السيد السادات ، الذى كان نائبا لرئيس مصر فى ذلك الوقت . وفى إحدى المراحل ، كان السيد أدهم يزود السادات بدخل شخصى ثابت ، وفقا لما قاله مصدر مطلع رفض الادلاء بتفصيلات . »

مدينة الاسماعيلية . الاستراحة الفخمة للرئيس المصرى . السادات وزوجته يستقبلان مناحم بيجين وزوجته يوم عيد الميلاد لعام ١٩٧٧ . مؤتمر صحفى على الهواء . السادات يقرأ من ورقة :

« إتفقنا على أن حرب اكتوبر سوف تكون آخر الحروب بين مصر وإسرائيل » . تبدو فى الصورة خلف السادات مباشرة ، العصابة السوداء لعين موشيه دايان .

عنوان :
وبعد ذلك بشهرين ونصف ...

جنوب لبنان ، قرب الحدود مع إسرائيل . شجيرات التبغ الصغيرة الخضراء منتشرة على الوهاد والتلال . عائلات بكاملها عاكفة على الزراعة . جمال ودواب محملة . مزارعون يفترشون الأرض أمام سلال التين والعنب والصبير يبيعونها بالكوز . سعف النخيل وغصون البرتقال . بركة « ميس الجبل » . لبنانيات يغسلن الملابس والأوانى المنزلية فى المياه العكرة . الدواب تشرب من نفس المياه . على أرض الطريق نقشت الشعارات الوطنية والفلسطينية .

لبنانية شابة ترتدى بلوزة مشمرة الأكمام ، لفت رأسها بمنديل كبير معقود فوق الشعر . أمامها مقعد واطىء مستطيل ، فوقه طبق من الدقيق . على يمينها الفرن الذى يتألف من قطعتى حجر ، تحملان صينية من النحاس . المرأة تبسط قطعة العجين على المقعد الواطىء ، ثم تفرشها فوق الصينية بحيث تغطى سطحها كلها .

نفس المكان بعد الغروب . المزارعون يعودون إلى منازلهم . الطرقات تخلو بالتدريج . من أحد المنازل يرتفع صوت فتاة تغنى :

« يمى من تل الزعتر
لبعتلك رسالة
من شادر لونه أخضر
لوصفلك ها الحالة
يمى من تل الزعتر
صواريخ بتحرق البيوت
والجرحى يمى بتموت
بيروت بتشكى وبتبكى
وما عاد فيها بيوت . »

الظلام يلف الطرقات تماما . عواء ذئب يتردد من بعيد .

عنوان :
وفجأة ...

قنابل مضيئة تتساقط فوق الحقول . إنفجارات ضخمة . ألسنة النيران تندلع فى كل مكان .

عنوان :

فى الساعة الواحدة بعد منتصف ليلة ١٥ مارس (آذار) ١٩٧٨ ، بدأ الهجوم الاسرائيلى المكثف للعملية التى أطلق عليها الكمبيوتر فى البداية ، إسم « قمة الذكاء » ، وعرفت بعد ذلك باسم عملية الليطانى ، واشترك بها ثلاثون ألفا من الجنود المعززين بالطائرات والدبابات والأساطيل . أما هدف العملية المعلن فهو « خلق حزام أمن بعمق عشرة كيلومترات » .

وبعد ساعات أصدر بيجين بيانا قال فيه : « تمر أيام يقول فيها جميع مواطنى إسرائيل ، وكذلك ذوو النية الطيبة فى دول مختلفة : كل الاحترام للجيش الاسرائيلى . وهذا اليوم هو أحد هذه الأيام . فخلال ٢٤ ساعة ، وفى أحوال جوية وجغرافية سيئة ، أنجز الجيش الاسرائيلى المهمة التى ألقتها الحكومة على عاتقه ، فوق جبهة طولها مائة كيلومتر . »

دائرة قلمية حول فقرة من كتاب عزرا وايزمان « معركة السلام » الصادر سنة ١٩٨١ : « وبعد دقائق قليلة من إجتياز أول دبابة إسرائيلية لحدود جنوب لبنان ، دق جرس التليفون فى مكتب « اليعازر ريمون » رئيس وفدنا فى القاهرة . وبالرغم من الساعة المتأخرة فى الليل صدرت تعليمات القيادة العامة فى تل أبيب إلى ريمون للاتصال برئيس المخابرات المصرية ـــ الجنرال شوكت ـــ ليوافيه برسالة هامة ..... وأخطر ريمون شوكت : منذ وقت قصير ، بدأت قواتنا عملية محدودة على الحدود اللبنانية لإزالة قواعد الإرهابيين من المنطقة ، وآمل أن هذه العملية المحدودة لن تعطل المحادثات بين بلدينا . »

مدرعات إسرائيلية ذات لون أصفر مغبر تتقدم فى طريق زراعى . على الجانبين أطفال فلسطينيون ، قيدت أيديهم وعصبت عيونهم . النيران تلتهم قرى بكاملها . ناس تجرى مذعورة . بيوت تنهار . دماء على الوجوه . جثث فى الطريق . طفلة فى الثالثة من عمرها تنفجر الدماء من فخذها المبتور . مسلح يحمل شارة فلسطينية يطلق النار من فوق ربوة . قذيفة تصيب الربوة فتفجرها .

دائرة قلمية حول فقرة من مذكرات محمد إبراهيم كامل ، وزير الخارجية المصرى : « فى صباح اليوم التالى للغزو الإسرائيلى .. إتصلت تليفونيا بالرئيس السادات فى إستراحة القناطر الخيرية لأعرض عليه البيان الذى أعددته ... حول العدوان ... إلا أنى لم أتمكن من محادثته لأنه كان لا يزال نائما . وعاودت الاتصال به بعد ذلك عدة مرات فى فترات متباعدة دون جدوى.. فبادرت بإصدار البيان دون إنتظار رأى السادات فيه إذ كان الموقف محرجا بالنسبة لمصر خاصة أمام العالم العربى ...

« وفى الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر ، إتصل بى السادات تليفونيا فى الوزارة وسألنى فى صوت ملؤه تثاؤب عن السبب الذى طلبته تليفونيا من أجله عدة مرات فى الصباح ، فأجبته بأن

الأمر يتعلق بالهجوم الإسرائيلى على لبنان . »

« فقال السادات ضاحكا : « هل أعطوهم العلقة والا لسه ؟ » ولم يخطر ببالى ما يقصده ، تقلت متسائلا : « أفندم ؟ » فقال : « يعنى أدبوّهم والا لسه ؟ »وفهمت أخيراً أنه يقصد إن كان قد تم للأسرائيليين تلقين الفلسطينيين درسا ... »

بلدة مرجعيون . فتاتان جميلتان فى زى ميليشيا الكتائب اللبنانية ، تحملان السلاح فوق كتفيهما ، وتقومان بإرشاد الدبابات الاسرائيلية فى شوارع البلدة الضيقة . تتبادلان كلمات بالعبرية مع الجنود الاسرائيليين .

سيارة ركاب تقل عددا من الصحفيين الأوروبيين ، تتقدم على طريق ترابية محفوفة بالأشجار والصخور . على جانب الطريق مدرعة سوفيتية معطوبة . من بعيد تتردد أصوات قذائف الطائرات الإسرائيلية . أحد اللبنانيين المسلحين يتولى توجيه السيارة . يقول فى مكبر صوت : « نحن المسيحيين عقدنا حلفا مع الشعب اليهودى » . شبان بالملابس العسكرية لميليشيا الكتائب وقوات سعد حداد ، يلوحون لركاب السيارة بأيديهم . السيارة تقترب من قرية « القليعة » . الأهالى يخرجون إلى الطرقات . بعضهم يهتف : « شالوم . مرحبا » بضع فتيات يجرين وراء السيارة ويلقين الأرز عليها .

قرية تبنين . الرايات البيضاء فوق سطوح وشرفات بعض المنازل التى ينطق منظرها بيسر أصحابها . بائع لبنانى يتكىء فى رضا على سيارة مرسيدس وقد فرش على الأرض صناديق السجاير وزجاجات الويسكى وأوراق اللعب وموانع الحمل .

بلدة الخيام . الرياح تصفر بين النوافذ المحطمة . علبة فارغة من الصفيح تتدحرج فى دوى مرعب . البلدة مدمرة تماما ولا أثر بها لمخلوق .

عنوان :

ضمت بلدة الخيام قبل العدوان الإسرائيلى ، ١٤ ألف لبنانى من المسلمين الشيعة .

جامع البلدة .

عنوان :

تحت إشراف القوات الإسرائيلية جمعت قوات الرائد اللبنانى المنشق سعد حداد ، أكثر من مائة شيعى ، من الرجال والنساء والأطفال ، فى هذا المسجد ، وأطلقت عليهم النار .

بلدة مرجعيون . عزرا وايزمان وزير الدفاع الاسرائيلى يتفقد القرية . سعد حداد يتقدم من وايزمان ومرافقيه . يمتثل أمامهم ساكنا ، ثم يؤدى التحية العسكرية . يهوى على عنق وايزمان ويعانقه طويلا والدموع تنهمر من عينيه .

حداد : « كل الاحترام للجيش الإسرائيلى . باسم جميع اللبنانيين أؤدى التحية للجيش الإسرائيلى . »

دائرة حول فقرة من صحيفة « دافار » الاسرائيلية : « الرائد حداد والأستاذ فرنسيس رزق ، مدرس الأدب فى القليعة ، ومستشار حداد السياسى ، شخصان مرحان وطيبا القلب خصوصا عندما يحتميا فى ظل الجيش الإسرائيلى . وتبدو سعادتهما من وقوفهما أمام أضواء الرأى العام الإسرائيلى والعالمى ، وهما مستعدان للرد على أسئلة الصحافة باللغة العبرية ، وبالعربية والإنجليزية والفرنسية . »

موكب من سيارت لاندروفر خضراء . سيارة المقدمة تقل الرائد سعد حداد فى زى الجيش اللبنانى ، يحيط به رجاله المسلحون بمدافع رشاشة أمريكية . السيارات تجتاز قرية مهجورة . يتوقف بعضها فى ساحة القرية .

مسلح من رجال سعد حداد يبرز من أحد بيوت القرية حاملا طاولة خشبية على رأسه . يتجه إلى سيارة اللاندروفر فيضع الطاولة بها ويعود أدراجه . مسلح آخر يعاون زميلا له فى حمل فرن-كبير من أفران الغاز . مسلح ثالث يفتش فى ضيق بين محتويات منزل مهجور . لا يجد غير قضيب طويل من الحديد فيحمله ساخطا .

عنوان :

وفى اليوم الخامس لبدء العملية أصدر مجلس الأمن قراره رقم ٤٢٥ ، ويقضى بإنسحاب الجيش الإسرائيلى من جنوب لبنان .

وبعد يومين ، فى الساعة السادسة من مساء ٢١ مارس (آذار) ١٩٧٧ ، أوقف الجيش الإسرائيلى إطلاق النار بعد أن وصل إلى نهر الليطانى ، وفى أعقاب مشاورات تليفونية بين بيجين وواشنطون . وقبل ذلك بيوم واحد ، إنتهى فى دمشق إجتماع وزراء خارجية دول الرفض العربية (سوريا وليبيا والعراق والجزائر واليمن الجنوبية) ، دون أن يقرر أى عمل ضد إسرائيل .

قلعة بوفور المطلة على الجنوب من أيام الصليبيين . المدرعات الاسرائيلية تحيط بالقلعة . البوابة الرئيسية للقلعة مغلقة من الداخل بأكوام من جثث القتلى والجرحى الذين يحملون شارات فلسطينية .

دائرة حول فقرة من صحيفة عربية بالقدس الشرقية : « ردت هذه الحرب الإعتبار إلى الكرامة الفلسطينية . وكان الإفتخار بأن الفلسطينيين وحدهم يخوضون حربا ضد إسرائيل على مرأى ومسمع من عالم عربى متخاذل . إن الغضب من العالم العربى خلق إحساسا بالمشاركة والاتحاد لم يشهد الفلسطينيون مثله منذ عهد بعيد . »

واشنطون . مبنى وزارة الخارجية الأمريكية . متحدث رسمى للصحفيين : « إن وزارة

الخارجية الأمريكية مازالت تدرس ما إذا كانت إسرائيل قد إنتهكت إتفاقيات شراء الأسلحة الأمريكية التى إستخدمتها فى جنوب لبنان ، وهى الإتفاقيات التى تحظر إستخدام الاعتدة المتطورة (مثل طائرات ف ١٥) لدواعى الهجوم ، لكن تسمح بإستخدامها لدواعى الدفاع . »

دائرة حول فقرة من جريدة « أحرونوت » الإسرائيلية : « عقب قائد الطيران الإسرائيلى عفرى على بيان وزارة الخارجية بشأن الأسلحة بقوله : أقول بشكل واضح وقاطع أننا لم نتجاوز أى بند فى الإتفاق . لقد إستخدمنا الطائرات للدفاع الجوى عن قواتنا . وهذا السلاح شكل مظلة قوية لقواتنا ، مما لا يشكل أى تجاوز لأن موضوع الحديث هو الدفاع فقط . »

وزير الدفاع الإسرائيلى عزرا وايزمان يتحدث إلى مراسل صحيفة « معاريف » الإسرائيلية :
« الصحفى : خلال التخطيط المسبق ، هل أخذتم فى الحسبان النواحى المعقدة لعملية بهذا الحجم : ١٥٠ ألف لاجىء يهربون مذعورين خوفا من الجيش الإسرائيلى ، والمئات وربما أكثر من القتلى والجرحى من بين السكان المدنيين ؟

وايزمان : ... لقد أوجدت الحرب الأهلية اللبنانية لاجئين كثيرين بلا حدود ، وبعدد يفوق ذلك الذى نشأ عن عملية الجيش الإسرائيلى وعملية الأردنيين سنة ١٩٧٠ ، والسوريين لدى دخولهم لبنان ، حيث ذبحوا من المخربين أكثر بكثير مما فعل الجيش الإسرائيلى خلال الأيام العشرة الأخيرة .

الصحفى : أنت جندى قديم ، ألم تشعر بوخز الضمير ، وأنت ترى الجيش الاسرائيلى يستخدم أكثر طائراته ومدافعه تطورا ، وبمثل هذه القوة ، ضد أعداء مزودين برشاشات « كلاشينكوف » فى أحسن الأحوال ، وفى أحوال كثيرة لا يجدون ما يدافعون به عن أنفسهم ؟

وايزمان : فى كل حرب يكون لك قلب وضمير وجميع أنواع الوخزات . والعسكريون اللذين يعرفون عن كثب أهوال الحرب وفظائعها ، هم المحبون للسلام أكثر من غيرهم . لكن ماذا كان يجب أن نفعل ؟ نزود جنودنا ببنادق « جليل » لأن لديهم رشاشات « كلاشينكوف » ؟ لدى مثل آخر يمكن أن نسميه أرق النفس . لقد زرت الجرحى اللبنانيين فى المستشفيات الاسرائيلية ، وإنتابنى شعور غير سار تماما » .

عنوان :
تكلفة عملية الليطانى وفقا للمصادر الاسرائيلية :
٣٠ مليون دولار
١٣٠٠ قتيل لبنانى وفلسطينى
عدة آلاف من الجرحى
١٥٠ ألف من سكان الجنوب فقدوا منازلهم والتجأوا إلى الشمال .

دائرة حول فقرة من مجلة « بما حانيه » الإسرائيلية ، بتوقيع حاييم رافيف : « لقد كان من نصيب منظمات المخربين فى الأسبوع الماضى مفاجأتين : أولاهما الحجم الكبير لعملية الجيش الإسرائيلى فى جنوب لبنان ، وثانيهما رد الفعل المخيب للأمل من جانب الدول العربية .

« فقد أعلنت مصر وسوريا ، دولتا المواجهة الرئيسيتان ، كل واحدة بأسلوبها ، عن عدم إستعدادها للدخول فى مواجهة مع إسرائيل . أعلنت مصر أنها ستواصل التمسك بمبادرة السلام ، وإعترفت سوريا بأنها لن تنجر إلى حرب مع إسرائيل قبل الأوان .

« لكن كان لابد من بعض التظاهرات : ففى دمشق عقد مؤتمر طارىء لدول الرفض . وركب الملك حسين الحصان الفلسطينى داعيا إلى لقاء قمة عربى . وصدرت تصريحات تدين العدوان الإسرائيلى . وقدم المصريون فرقا طبية لمساعدة المصابين من غير المخربين . والجميع سعداء بفرصة إضعاف منظمة التحرير الفلسطينية . »

دائرة حول فقرة من صحيفة « ها آرتس » الإسرائيلية : « لا شك أن الأمريكيين كانوا مطلعين على العملية قبل أن تبدأ . ولا نخطىء إذا قلنا أنهم عرفوا ، بصورة عامة ، النقاط الرئيسية التى ستحتلها إسرائيل فى القطاع المحاذى للحدود . »

دائرة حول فقرة من صحيفة أمريكية : « إن المعلومات التى توفرت لدى أطراف عربية عديدة ، والتى وصلت إليها عن طريق الولايات المتحدة ، كانت تفيد بأن العملية ستكون محدودة زمانا ومكانا . ولهذا السبب إتخذ حكام سوريا فى البداية بروفيلا منخفضا تماما . وخصصت وسائل الاعلام السورية للموضوع فى اليوم الأول بضع عبارات فقط . ولهذا كان توسيع العملية من عشرة كيلومترات إلى أربعين ، مفاجأة . إن أمريكا إما أن تكون متواطئة فى عملية خداع مع إسرائيل ، وإما أن تكون هى نفسها قد وقعت فى خداع إسرائيل . »

بلدة الطيبة فى جنوب لبنان . تبدو كمدينة أشباح .

بلدة القنطرة . معظم البيوت لاتزال قائمة فى مكانها لكن النوافذ بلا زجاج ، والمداخل بلا أبواب . مواسير المياه والحنفيات منتزعة . فى الجدران كوات ضخمة . أبواب الحوانيت مخلوعة . محتوياتها منهوبة أو محطمة . سيارة عسكرية إسرائيلية يجرى تحميلها بأجهزة التليفزيون والثلاجات والمفروشات .

دائرة حول فقرة من صحيفة « ها أرتس » الإسرائيلية : « وقال لنا أحد الجنود : لقد رافقت أعمال النهب جميع حروب إسرائيل . هنا كان حظنا أحسن . فقد كنت فى مصر سنة ٧٣ ، وبسبب ظروف الحياة البائسة فى القرى المصرية ، على الضفة الغربية لقناة السويس ، لم نجد شيئا تقريبا ذا قيمة . إستولينا فقط على أغطية وبطانيات وملابس داخلية وخارجية أرسلت إلى البلاد بواسطة الجسر الجوى الأمريكى . وكانت من نوعية ممتازة وتقدر بملايين الليرات . وتم توزيعها على عشرات الألوف

من الجنود . وطوال أشهر طويلة حتى ٢٨ فبراير (شباط) ٧٤ ، تاريخ إنسحابنا من الضفة الغربية لقناة السويس ، كانت أتوبيسات « إيجد » التى تنقل الجنود لقضاء الأجازة فى إسرائيل ، محملة حتى الاعياء بهذه الحاجيات . »

دائرة حول فقرة من جريدة « دافار » الإسرائيلية : « تستمر المساعدة الانسانية والمادية التى يقدمها الجيش الإسرائيلى للقرى اللبنانية التى تضررت من جراء المعارك الأخيرة . وقد حضر أمس إلى قرية العباسة الاسلامية نحو خمسة عشر مسكنا مستقلا جاهزا من إسرائيل . ونصبت المساكن فى مشاع القرية . وأسكنت فيها أول مجموعة من الأسر اللبنانية التى هدمت بيوتها فى القرية أثناء المعارك . وقد بقى فى القرية نحو ستمائة فرد من ستة آلاف كانوا يسكونها قبل نشوب الحرب . وهرب معظم السكان إلى بيروت . »

وزير الدفاع الأميركى هارولد براون فى التليفزيون الأميركى : « لقد إعترف الاسرائيليون بأنهم خرقوا إتفاقهم مع الولايات المتحدة بشأن إستخدام القنابل الانشطارية فى حالات معينة . وقد بحث الولايات المتحدة مع إسرائيل تعهداتها بعدم تكرار هذا الخرق . لكنى لا أريد أن أبالغ أكثر من اللازم فى هذا الشأن . لأن الأمر المهم فى موضوع لبنان هو أن تنسحب إسرائيل من هذه المنطقة . »

عنوان :

تعتبر القنابل الانشطارية من أخطر الأسلحة الفتاكة فى الترسانة الأمريكية . وهى شديدة الفعالية إذا ما إستخدمت ضد الدبابات والمدرعات . أما إذا إستخدمت ضد المناطق المدنية فان النتيجة مذبحة .

ويتم إسقاط هذه القنابل من الطائرات فى إسطوانات ، تحمل كل واحدة منها عددا كبيرا من ا لشظايا . وعلى إرتفاع معين ، تفتح هذه الأسطوانات ويخرج من كل إسطوانة ٦٥٠ شظية ملتهبة ، قطر الواحدة منها ٥,٦ سنتيمتر ، تندفع بحركة مغزلية فى إتجاه مختلف عن بقية الشظايا . وهناك نوع منها يحتوى على جهاز توقيت يجعل الشظايا تنفجر بعدة فترة من إصابة الهدف . وقد إستخدمت الطائرات الإسرائيلية هذا النوع فى قصف المستشفيات وملاجىء الأطفال بالجنوب اللبنانى . »

قاعة طعام واسعة . عدد من المدنيين والعسكريين الاسرائيليين والأمريكان ، يحيطون بمائدة حفلت بصنوف الطعام . ثريات كهربائية ضخمة تتدلى من السقف . على رأس المائدة يجلس « مردخاى جور » رئيس الأركان الإسرائيلى . يدلى بكلمة إلى الحاضرين فيقول : « عندما أمرت بإستخدام القنابل الانشطارية فى لبنان .. لم أكن أشك قط بأن هذا يتلاءم مع روح الاتفاق المعقود بين بلدينا وروح الشعب الأميركى . »

جور فى حديث مع مندوب مجلة « عل همشمار » الاسرائيلية :

« الصحفى : هل كان القصف يتم بلا تمييز بين المخربين والمدنيين ؟
جور : أنا لا أملك ذاكرة إنتقائية . إننى أخدم فى الجيش منذ ثلاثين سنة كاملة . ألا تدرك ما فعلناه طوال هذه السنين ؟ ماذا فعلنا على طول قناة السويس ؟ لقد صنعنا مليونا ونصف مليون لاجىء . قصفنا الاسماعيلية والسويس وبورسعيد وبورفؤاد . مليون ونصف مليون لاجىء . »

دائرة حول فقرة من جريدة « ها آرتس » : « يكمن نجاح إسرائيل فى أن الأمم المتحدة ، التى هى فى الحقيقة قوات حلف الأطلنطى فى قبعات زرقاء ، تقف حاليا على الليطانى وليس على حدود إسرائيل أو داخل الأراضى الاسرائيلية . ثم هناك الجيوب المسيحية ، وطُلب من إسرائيل الانسحاب ، لكنها لم تُنفذ ، ولم يتدخل السوريون . كما أن وجهاء الشيعة فى البرلمان اللبنانى حملوا الفلسطينيين مسئولية الكوارث التى حلت بلبنان . ونشر التجمع الدرزى بيانا مشابها . وبرزت ظاهرة العداء لمنظمة التحرير بين الجمهور اللبنانى . »

دائرة حول فقرة من جريدة « دافار » الاسرائيلية : « يجب أن تتضمن معاهدة السلام التى ستوقع فى المستقبل مع حكومة لبنان إتاحة الاستغلال المشترك لمياه الليطانى . »

عنوان :
« ليس من المعقول أن تبقى فلسطين محدودة بحدودها الحالية . ففى إستطاعة اليهود الانتشار والتوسع إلى جميع البلاد المحيطة بها ، من البحر الأبيض المتوسط إلى الفرات ، ومن لبنان إلى النيل . فهذه هى البلاد التى أعطيت لشعب الله المختار . »
نورمان بنتويش

« لن نتخلى أبدا عن إسرائيل . »

كيسنجر

(٢١)

كانت المشاهد الأخيرة للفيلم تمثل عملية إنسحاب القوات الإسرائيلية من جنوب لبنان ، وحلول قوات الأمم المتحدة محلها . وإقترحت على أنطوانيت إلغاء هذه المشاهد ، والوقوف بنهاية الفيلم عند الاحتلال الاسرائيلى لنهر الليطانى . وقلت ان هذا الحل سيرتفع بالفيلم من مجرد تسجيل للأحداث ، إلى مستوى الرؤية المستقبلية . فإسرائيل وجدت لتنمو وتتسع وتبتلع . وإذا كانت قد غادرت لبنان سنة ١٩٧٨ بعد ثلاثة أشهر من الغزو ، فانها تركت مكانها « قوات حلف الأطلنطى ذات القبعات الزرقاء » على حد تعبير القادة الاسرائيليين أنفسهم . كما أنه لا يوجد ما يمنع عودتها فى أى لحظة .

وافقتنى أنطوانيت على هذا الرأى ، واتفقنا على أن أعتكف فى منزلى يومين أو ثلاثة ، أنتهى خلالها من كتابة التعليق المطلوب .

تركتها تقوم بلف البكرة الأخيرة من الفيلم ، وعدت إلى المنزل . لم يكن وديع قد عاد بعد من عمان ، فأخذت حماما . وأعددت فنجانا من القهوة . وجلست أتصفح الأوراق التى دونت فيها مشاهد الفيلم . سجلت بعض الملاحظات ثم نحيت الأوراق جانبا . وأعددت عشاء خفيفا تناولته مع علبتى بيرة . ثم لجأت إلى الفراش .

كان نومى خفيفا مضطربا . وشعرت بعودة وديع فى الليل . وبخروجه فى الصباح . و نهضت أخيرا متثاقلا . فأفطرت ووقفت أدخن فى الشرفة . ولاحظت أن الشوارع هادئة تماما ، والحوانيت مغلقة . ثم تذكرت أن اليوم يوافق عيد الاستقلال .

جلست إلى مكتب وديع . لكنى لم أجد حماسا للعمل . جذبت التليفون وأدرت رقم لميا . وإستمعت إلى الجرس يدق طويلا . ثم وضعت السماعة ومضيت إلى غرفتى .

إرتديت سترتى . وأطمأننت على وجود جواز سفرى فى جيبها الداخلى . وأحصيت ما معى من نقود فوجدتها لا تزيد على مائتى ليرة . ثم غادرت المسكن .

إتجهت صوب الحمرا ، عبر شوارع أوشكت أن تخلو من المارة . وعندما بلغت الشارع العتيد ، مضيت من أمام الويمبى ، والموفينبيك ، ثم سينما الحمرا والردشو . ووقفت على ناصية الرد شو أتأمل مقهى المودكا على الرصيف المقابل .

عبرت الطريق ومضيت من أمام المودكا . وواصلت السير حتى كافيه دى لابيه .

دفعت الباب الزجاجى ودخلت . جلست على مقعد من الجلد الصناعى . وأحضرت لى فتاة غارقة فى الأصباغ ، فنجانا من القهوة العربية .

إحتسيت القهوة مع سيجارة وأنا أتأمل الرواد القليلين . ثم دفعت حسابى وغادرت المقهى . إتجهت يسارا ومشيت على مهل . مررت بجريدة النهار ومصرف لبنان . وبلغت ساحة برج المر ثم أشرفت على مطلع جسر فؤاد شهاب .

عبرت حاجزا مهجورا من البراميل إلى حى زقاق البلاط . وبدت المنطقة كلها مهجورة تماما . ولم يلبث الطريق أن إنحدر بى جهة اليسار . وإعترضنى حاجز وقف عنده بعض المسلحين الذين لم أتبين هويتهم . لكنهم لم يعبأوا بى ، فإجتزته . وبعد قليل ألفيت نفسى فى ساحة رياض الصلح . إتجهت يمينا وولجت ساحة الشهداء .

بدت الساحة الرئيسية لبيروت القديمة ، محاطة بالأطلال من جميع الجوانب . كانت المنازل القديمة ، التى يعود أغلبها إلى أيام الأتراك ، لاتزال قائمة . لكن نوافذها وأبواب حوانيتها تحولت إلى كوات مظلمة تتخللها قضبان ملتوية من الحديد . وفوق الأسطح خيمت بقية من هياكل إعلانات النيون ، التى كانت تحيل الساحة فى الليل إلى شعلة من الأضواء ، ميزت منها آثار إعلان عن بيرة « لذيذة » ، وشكولاتة « غندور » ، إلى جوار زجاجة كوكاكولا .

وبالرغم من ذلك ، كانت الساحة تشغى بالنشاط . فأمام الأبنية المهدمة ، أصطفت العربات الخشبية المحملة بكافة أنواع السلع ، من ملابس وأحذية وأوانى منزلية ، وأدوات كهربائية . وفى مداخل بعض الحوانيت المهدمة ، جلس الصرافون . وأشرفت على هذا كله عدة مدرعات تحمل شارة الردع .

طفت حول الساحة بحثا عن زقاق به بائع للكتب الأجنبية المستعملة ، تعاملت معه فى زيارتى السابقة . وولجت زقاقا قام عند مدخله حانوت للسجائر والصحف والمجلات . وإجتذب بصرى ملصق كبير الحجم على الحائط المجاور للحانوت ، يتألف من صورة فوتوغرافية مكررة عدة مرات للجزء الأعلى من إمرأة عارية ، أحاطت بذراعها الأيمن رأس رجل عار ، إنحنى بفمه فوق أذنها . كان شعرها مبعثرا حول رأسها ، وقد فرجت شفتيها ، وأغمضت عينيها . وأعطى تكرار الصورة الإيحاء بهذه اللحظة الممتدة المتجددة .

تأملت الصورة طويلا . وتبينت أسفلها سطرا من الكتابة الدقيقة ، فدنوت منها . وأمكننى أن أميز الكلمات المطبوعة بالانجليزية : « الأورجازم إستجابة ينفرد بها الانسان . فلا تعرف الحيوانات الثديية الأخرى ، خلال الجماع ، لحظات مماثلة من الذرى الحادة . »

إستغرقنى تأمل الملصق ، فلم ألحظ الأصوات التى كانت تنبعث من باب مظلم فى نهاية الزقاق ، إلا عندما خرج منه عدة رجال ، متواضعو المظهر ، مرة واحدة . ولم ألبث أن ميزت فيها تأوهات أنثوية ، ثم أدركت انها تنبعث من صالة للعرض . ومن خروج الرجال وغياب أية لافتة ، إستنتجت أنها صالة رخيصة تعرض أردأ الأفلام الجنسية .

إجتزت الزقاق حتى نهايته ، فألفيتنى عند مفترق ثلاثة شوارع ، يطل عليه حانوت مغلق يحمل إسم « صيدلية الجُمّيل » . ولم أنتبه إلى مغزى الاسم إلا عندما طالعنى على الجدران ، فى ملصقات صغيرة الحجم ، الوجه القاسى ذو العينين المجنونتين لزعيم الكتائب . وأدركت أنى دخلت المنطقة الأخرى دون أن أدرى .

أوشكت أن أعود أدراجى ، عندما توقفت إلى جوارى سيارة سوداء ، فُتح باباها الجانبيان فى لحظة واحدة . وفى اللحظة التالية كان ثمة رجلان يحيطان بى ، ويمسكان بذراعى ثم يدفعانى إلى المقعد الخلفى للسيارة . وعلى الفور قفزت السيارة إلى الأمام ، وإنطلقت فى سرعة فائقة ، وعجلاتها تحدث صريرا حادا .

وقبل أن أتبين وجه أحد من ركاب السيارة ، إستقرت عصابة سميكة فوق

عيني ، عقدتها أصابع مدربة فى قوة خلف رأسي . وإمتدت الأيدى إلى جيوبى وأسفل إبطى، وخلف ظهرى ، وبين فخذنى ، وأعلى الجوارب .

توتر جسدى فى إنتظار ضربة ما . وخطر ببالى أنى فى وضع أفضل من مرة إعتقلتُ فيها ، ووُضعت فى سيارة مماثلة إلى جانب السائق ، ثم إنهالت الضربات من الخلف فوق عنقى ورأسى .

أبطأت السيارة ثم توقفت . وسمعت صوت فتح أحد أبوابها . وتحرك الجالس إلى يمينى وهو يشدنى بعنف إلى الخارج .

تعثرت وكدت أقع لولا أن أحدهم سندنى من الخلف وهو يسبنى . ثم أمسك بذراعى الأيسر ، وجرنى جرا عبر إفريز ضيق إنتهى بعدة درجات . سرنا قليلا بعد ذلك . ثم صعدنا درجتين أخريين وواصلنا السير . وبعد قليل هبطنا درجا طويلا ومشينا فى مكان رطب تردد وقع أقدامنا فيه عاليا .

توقف مرافقوى ، وسمعت صوت مفتاح يدور فى قفل ، ثم لفح الهواء البارد وجهى . تخلت عنى الأيدى التى كانت تمسك بذراعى . ودفعنى أحدهم إلى الأمام بعنف ، فكدت أقع على وجهى . ثم سمعت صوت إصطفاق باب قريب ، وأقدام تبتعد .

جمدت فى مكانى ، وأرهفت حواسى لأتبين إذا كان هناك أحد على مقربة . كانت يداى حرتين ، فرفعتهما فى تردد إلى وجهى . وعندما لم يتعرض لى أحد إنتزعت العصابة عن عينى مرة واحدة .

مرت ثوان قبل أن أتمكن من الابصار . وألفيتنى بمفردى فى غرفة مستطيلة ، عالية السقف ، شبه مظلمة ، يتسلل الضوء إليها من كوة قرب السقف ، تعترضها قضبان حديدية . كانت الغرفة عارية من أى أثاث ، وليس بها ما يدل على هوية المكان أو أصحابه . ورأيت فى أقصاها بضعة صناديق من الكرتون . تقدمت منها ، فوجدتها فارغة . وكان أحدها يحمل إسم مسحوق أميركى للتنظيف .

بحثت عن علبة سجائرى فلم أجدها . وتبينت أن جيوبى كلها خالية . وأن ساعة يدى إنتُزعت منى . وقدرت أن الوقت يقترب من الثانية أو الثالثة .

مضيت إلى الباب ، فألفيته من الحديد المتين . إنحنيت على ثقب المفتاح ، ووضعت عينى عليه . لكنى لم أميز شيئا فى الخارج ، بسبب قلة الضوء . أبعدت عينى وألصقت أذنى بالثقب ، فلم أسمع شيئا .

إبتعدت عن الباب ، ومشيت حتى طرف الحجرة ، ثم إستدرت ومشيت حتى الطرف الآخر . جعلت أذرع الغرفة جيئة وذهابا إلى أن شعرت بالتعب ، فإقتعدت الأرض العارية ، مسندا ظهرى إلى الجدار . وسرعان ما تسللت الرطوبة إلى جسدى ، فقمت واقفا . ومضيت إلى الباب . ووضعت أذنى على ثقب المفتاح وأصخت السمع .

إلتقطت أذنى أصوات إصطفاق أبواب ، ووقع أقدام وصيحات مبهمة . وإقترب وقع الأقدام ، ثم سمعت أحدا يقول محتدا : « العكروت كان عمّ بيقوّص علينا . » ورد عليه آخر قائلا : « وْلاَكِ . شو بدّك منها ؟ ألف بنت بتتمنى ظفر إجْرك . » وجاءنى صوت ثالث فى لهجة آمرة : « عندك أمر حزبى ؟ » وإشتبكت الأصوات ببعضها فلم أميز منها حرفا . وما لبثت أن خفتت تدريجيا وإبتعدت .

اعتدلت واقفا ، فلمحت مفتاحا للنور بجوار الباب . وكان ثمة مصباح كهربائى يتدلى من السقف . ضغطت المفتاح عدة مرات دون جدوى . وإشتد احساسى بالبرد ، فقفزت عدة مرات ثم قمت ببعض التمرينات الرياضية إلى أن شعرت بالتعب .

كان هناك ركن وحيد فى الغرفة بمنأى عن تيار الهواء المنبعث من الكوة ، هو ذلك الذى شغلته صناديق الكرتون . مضيت إليه ، وأقبلت أحرك الصناديق وأنقلها إلى ركن آخر . ثم ضغطت أحدها بين يدى ووضعته على الأرض وجلست فوقه . وفعلت المثل بصندوق آخر وضعته خلف ظهرى .

إستمتعت بشيء من الدفء إلى أن هبط الظلام ، وتشبع الصندوقان برطوبة الجدران والأرض . ولم تلبث البرودة أن تسللت إلى عظامى . ولم يفدنى إنكماشى على نفسى . وبعد قليل إستولت على رغبة شديدة فى التبول .

كنت أعرف بالتجربة ، أنه طالما أنى بمفردى ، ولا أملك وسيلة من وسائل المقاومة أو الضغط ، فانى مهما صرخت أو قرعت الباب ، فلن أغير شيئا مما هو مقرر

لى . والأغلب أنى سأعرض نفسى للأذى . لهذا قررت أن أنتظر حتى يكشف الخاطفون عن نواياهم .

لكن ضغط البول على مثانتى ، جعلنى أتخلى عن حكمتى أو خوفى ، فمضيت إلى الباب وجعلت أطرقه بكل قواى وأنا أصرخ مناديا .

آلمتنى يداى بعد حين ، فكففت عن الطرق وأنصت . سمعت وقع أقدام تقترب . ودار مفتاح فى قفل الباب ، ثم إنفرج مصراعه عن ضوء كهربائى خافت . وشاب يحمل رشاشا على كتفه ، وتتدلى من فمه سيجارة تفوح منها رائحة الحشيش .

خاطبنى فى حدة :

— ليش عمّ بتدِقّ ؟

قلت :

— أريد أبول .

أغلق الباب دون أن يعلق بشىء . ووقفت حائرا أتدبر إعادة الطرق . وما لبث الباب أن فُتح من جديد . وظهر المسلح الشاب حاملا جردلاً من البلاستيك ألقى به عند قدمى ، ثم جذب الباب ليغلقه فاعترضته قائلا :

— أريد مقابلة الشخص المسئول هنا .

قال :

— ما خصنى .

ودفعنى بيده ثم جذب مصراع الباب ، وأدار المفتاح فى قفله .

حملت الجردل إلى الركن الذى كانت تشغله صناديق الكرتون ، وتبولت . شعرت بالراحة . وعدت أذرع الغرفة جيئا وذهابا ، تلمسا لشىء من الدفء . ثم إفتقدت الأرض فى الركن الذى أعددته لنفسى . وثنيت ركبتى إلى أعلى ، وإعتمدت بساعدى ورأسى فوقهما . وثبت عينى على خط خفيف من الضوء أسفل الباب .

ويبدو أنى غفوت بعض الوقت ، فقد تنبهت فجأة على صوت عند الباب . وألفيته مفتوحا ، وقد إنتصب فى فرجته رجل عريض الجسد ، يحمل رشاشا فى يده

اليسرى . كان الضوء الكابى يسقط من خلفه على جزء من أرض الغرفة ، فأخفى ملامحه عنى . لكنى تبينت حركة الرشاش فى يده ، تشير لى أن أخرج .

خطوت إلى الخارج ، فأمسكنى من ذراعى بقوة . رأيته رجلا متقدما فى السن بصورة ملحوظة ، يغطى الشعر الأبيض رأسه ، ويتمتع مع ذلك بقوة بدنية واضحة . مضينا فى طرقة طويلة يضيؤها مصباح كهربائى واحد ، يطل عليها بابان آخران . وأشعرتنى رائحة الهواء وشدة الرطوبة المنبعثة من الجدران ، وبلاط الأرضية ، أننا تحت مستوى الأرض .

إرتقينا درجا عاليا إلى طرقة أخرى دافئة ، تسبح فى ضوء قوى من مصابيح الفلورسنت ، ويغطى المشمع الملون أرضها . كانت الطرقة طويلة ، وفى نهايتها علق علم ما بجوار صورة فوتوغرافية لم أميزها بوضوح .

توقف مرافقى أمام أحد الأبواب فطرقه . ثم أدار مقبضه ودفعنى أمامه ثم دخل خلفى ، وأغلق الباب .

لفحتنى الحرارة الصادرة عن « شوفاج » فى جانب الغرفة . ورأيتنى أواجه مكتبا ، جلس خلفه شاب ممتلىء حليق الوجه ، يتحدث فى التليفون بشفتين غليظتين ، وعينه على شاشة تليفزيون ملون ، إستقر فوق طاولة خشبية بجوار المكتب .

كان يرتدى قميصا مفتوح الصدر ، بكمين قصيرين ، كشف عن شعر كثيف فوق صدره وساعديه . وكان شعر رأسه أسود ناعما ، قص فى عناية ، وفرق من جهة اليسار .

لم أتبين شيئا مما كان يقوله فى التليفون لأنه كان يتكلم بالفرنسية فى صوت خافت . وجهت إهتمامى إلى قطعة من القماش علقت على الجدار فوق رأسه ، وطرزت بها شجرة أرز ملونة . وعلى جدار آخر استقرت لوحة من الورق سطر عليها بالعربية ، وبمادة كماء الذهب : « خزائن العلم فى العالم كنوزها من لبنان . لغات الأمم أجمل حروفها من لبنان . غرائب الدنيا السبع أسطورتها الكبرى لبنان . شجرة الخلود إنتقت لسكناها السرمدى قمة من لبنان . طفل الألوهة تعمد فى ماء من لبنان . أترى

آدم ، هل هجر الجنة إلا كرمى لك يا لبنان ؟ »

إنتهى الشاب من حديثه التليفونى ، فأعاد السماعة إلى مكانها وظل برهة يتطلع إلى شاشة التليفزيون ، ثم مد يده وأغلق الجهاز . وجه إهتمامه إلى عدة أوراق أمامه تعرفت بينها على محتويات جيوبى ، فقلب بينها بأصابع قصيرة سمينة ذات أظافر طويلة مصقولة .

خاطبنى دون أن يحول عينيه عما فى يده :
ـــ لا أجد إشارة هنا إلى مذهبك .
قلت :
ـــ لا أفهم ما تعنى .
قال :
ـــ ديانتك . ما هى ؟

رفع عينيه إلى لأول مرة ، فطالعتنى دائرتان صفراوان باردتان فى وجه منتفخ ذى بشرة مدهنة .
قلت :
ـــ ألا تعرفنى أولا بنفسك . وتقول لى لماذا أنا هنا ؟

ظهر شبح إبتسامة ساخرة على شفتيه وقال :
ـــ ألم تعرف بعد ؟
قلت :
ـــ يمكننى أن أحمن أين أنا . لكنى لا أعرف السبب فى إختطافى .

أشعل سيجارة فرنسية ببطء وقال :
ـــ ستعرف هذا بعد أن تذكر لى أولا ماذا تفعل فى بيروت ، وأين تسكن . أنت تقيم فى الغربية . أليس كذلك ؟
أومأت برأسى .
قال :
ـــ ألن تذكر لى ديانتك ؟
قلت :

ـــ وما علاقة ديانتى بالأمر ؟

تطلع إلى لحظة ثم قال بلهجة من يتذرع بالصبر :

ـــ الدين هو عنوان الشخص . هويته . فهو الذى ينظم علاقته بخالقه .

قلت :

ـــ إذن لا أهمية لتحديده . كل واحد ينظم علاقته بخالقه وفقا لدينه . وفيما يتعلق بى فإن الأديان كلها عندى سواء .

قال :

ـــ لكن الأمر بالنسبة لنا ليس كذلك . فلبنان طول عمره مهدد بالابادة على يد الاسلام .

قلت :

ـــ عندى تصور آخر للخطر الذى كان يهدد لبنان ، والذى يهدده الآن .

قال بنفس اللهجة الهادئة الصبورة :

ـــ من حسن حظك أنى أريد أن أحكى معك حكى منطق . فاعطنى فرصة لأشرح وجهة نظرى .

لم أعبأ به وقلت :

ـــ إنها تقوم على أساس أنكم أغلبية فى لبنان . وهذه مسألة موضع نقاش . فهناك من يقول أن المسلمين هم الأغلبية الآن . على أى حال ، سواء كنتم أغلبية أو أقلية ، فان هذا لا يغير من طبيعة الخطر الذى يتهدد لبنان ، وهو نفس الخطر الذى يتهدد البلاد العربية والاسلامية وكل دول العالم الثالث .

نفض رماد سيجارته فى طبق من الفضة تتعانق فوقه الأنصال البيضاء لثلاث بنادق وقال :

ـــ أنت تتحدث عن خطر وهمى . وأنا أشير إلى التوسع العربى ، وهو خطر واقعى .

ضحكت :

ـــ أين هو هذا التوسع العربى ؟ هناك فقط نهضة قومية تستوعب كل الأديان . بل إن بعض رواد هذه النهضة مسيحيون كما تعرف .

ـــ هؤلاء عرب . أما نحن ففينيقيون .

نظرت إليه غير مصدق :

ــ هل تتكلم جادا ؟ مرة أخرى أقول لك : سواء كنتم فينيقيين أم عربا ، فهذا لن يغير من واقع الخطر المشترك الذى يتعرض له كل اللبنانيين والسوريين والعراقيين والمصريين والايرانيين ، إلخ .

أطفأ سيجارته فى المنفضة المسلحة ، وأشعل واحدة جديدة .

قال :

ــ ما رأيك إذن فى الاضطهاد الذى يتعرض له المسيحيون فى مصر ؟

تباطأت فى الرد وأنا أفكر فى الاجابة المناسبة . إبتسم إبتسامة المنتصر وقال :

ــ أرأيت ؟

أسرعت أقول :

ــ لن أدعى أنه ليس هناك تمييز . لكنه لا يرقى إلى مرتبة الاضطهاد . كما أن جانبا منه مصطنع . والجانب الآخر من مخلفات الماضى . ومتى أخذنا بعلمانية الدولة ، قضينا على كل أثر له .

ــ الذى أراه فى مصر هو عكس ذلك تماما . إنه إضطهاد عميق وتاريخى . وهو أيضا فى إزدياد .

ــ هذا هو ما قصدت إليه عندما قلت أن جانبا من التمييز القائم مصطنع . وهو الذى تمارسه وتدعو له الجماعات الاسلامية . لقد سمعت باذنى أحد هؤلاء المتعصبين يقول أن البابا شنودة أخطر على مصر من بيجين . وهو فى ذلك يتفق معكم تماما . فأنتم تتحالفون مع إسرائيل ضد أبناء وطنكم .

هز كتفه وقال :

ــ لا يلام الغريق إذا إستنجد بالشيطان .

ــ وما أدراك أنه سينجدك حقا ؟ وأنه لن ينتهز الفرصة ليلتهمك ؟

ضحك هازئا :

ــ يلتهم جثة إستنزفها الغرباء ؟

ــ تقصد الفلسطينيين ؟ وجودهم فى لبنان هو الذى يحميكم من الاسرائيليين .

ـــ لا أحد يحمى لبنان من شيء . ضعفنا وحيادنا هو سلاحنا . فطالما أننا لانعادى غيرنا أو نتهدده ، لن يتعرض لنا أحد بالاذى .
ـــ أتظن ذلك حقا ؟

ظهرت بقعتان حمراوان على وجنتيه . لكنه ظل متمسكا بهدوئه الظاهرى .
قال :
ـــ ما يهمنى هو إعترافك بالاضطهاد الواقع على المسيحيين فى مصر . ويسرنى أننا متفقون فى هذه النقطة .
قلت :
ـــ بالعكس . نحن غير متفقين على الاطلاق . هناك تمييز فعلا . لكنك تواجهه بتمييز معارض . وأنا أواجهه بإلغاء التفرقة تماما . خلال الحرب الأهلية عندكم ظهرت حركة لشطب الديانة على الهويات . هذا هو ما نحتاجه . دول علمانية لا دينية يتحدد مكان الفرد فيها على أساس كفاءته ، لا على أسس دينية أو أسرية أو عشائرية .

قال مستنكرا :
ـــ يعنى إلغاء الطائفية ؟ هذا مستحيل . فزوال الطائفية معناه زوال الدين .
قلت فى إعياء :
ـــ لا أظن أنى قادر على إقناعك بوجهة نظرى . ما أطلبه منك الآن هو أن تعطينى أوراق وجواز سفرى وتدعنى أذهب .
رفع حاجبيه :
ـــ هكذا ؟
قلت :
ـــ نعم هكذا .

ضحك ضحكة قصيرة وقال :
ـــ لم أكن أتوقع أن تمل ضيافتنا بهذه السرعة .
جاريته قائلا :
ـــ أى ضيافة ؟ لم آكل شيئا طول اليوم . والغرفة باردة بلا فراش أو أغطية أو ضوء .

ليس بها حتى مياه للشرب .

إصطنع الاهتمام وتحول إلى مرافقى العجوز قائلا :

ــ معقول ؟ إلا المىّ .

غمغم العجوز شيئا حول أنه سيهتم بتزويدى بالمياه . وخاطبنى الشاب وهو يبتسم فى خبث :

ــ للأسف اليوم عطلة . والحوانيت مسكرة . وبالمثل مخازننا . لكننا سنوفر لك كل شىء غدا .

قلت :

ــ غدا الأحد . وهو عطلة أيضا .

قال فى برود :

ــ هذا من سوء حظك .

وأومأ برأسه إلى المرافق ، فتقدم منى ، وأمسكنى من ذراعى ، وإقتادنى إلى الخارج .

(٢٢)

تأكد سوء حظى عندما جاء اليوم التالى بلا شمس . وظلت عيناى على الكوة فى إنتظار الضوء وما يجلبه من دفء . لكن السماء ظلت معتمة . ولم يلبث المطر أن هطل . وتناثر رذاذ منه عبر الكوة ، ثم تجمع أسفلها على الأرض ، فى بركة صغيرة .

قاومت البرد بالحركة المستمرة . وتجنبت التفكير فيما يمكن أن يحدث لى على يد الفينيقى ورجاله . وبين الحين والاخر كنت ألصق أذنى بثقب الباب . لكننى لم ألتقط صوتا واحدا يوحى بوجود أحد غيرى فى المبنى .

وبعد فترة من الوقت ، طرق سمعى وقع خطوات تقترب وتتوقف عند الباب . وإنفرج مصراعه عن الشاب الذى أحضر لى جردل البول بالأمس . فوضع على الأرض صينية تحمل رغيفا من الخبز الأبيض المستدير ، وعلبة ورقية من اللبنة ، وكوبا من الشاى يتصاعد منه البخار . ولم يكد ينصرف حتى أسرعت إلى الصينية ، وتناولت كوب الشاى بين يدى ، وإستمتعت بسخونة محتوياته وهى تتسلل إلى جوفى . ثم أتيت على الرغيف واللبنة .

ضاعفت الوجبة الصغيرة من رغبتى فى القهوة والسجائر . لكننى تشاغلت عنهما بالمشى والقفز ، وبسلسلة من أحلام اليقظة . وعبرت بسرعة إلى مرحلة المشروعات الكبرى التى يعرفها كل سجين بعد فترة من الحبس . فتدبرت الاقلاع عن التدخين والخمر ، والانتظام فى ممارسة الرياضة ، والسكنى قرب البحر ، ومضاعفة ساعات الكتابة .

ولم يكد الظلام ينتشر ، حتى عكفت على تدعيم ركنى بالمزيد من صناديق الكرتون ، ثم إنكمشت به ، وأسلمت عينى للنوم .

رحت فى نوم عميق متصل ، لم أفق منه إلا مع بزوغ الفجر . وراقبت إنتشار الضوء دون أن أبارح مكانى . لكننى سرعان ما غادرته عندما سقطت أشعة الشمس على الجدار المجاور للكوة ، وإنتشرت فوقه على شكل مستطيل مائل تتجه إحدى زواياه إلى أسفل . وقفت تحت المستطيل الشمسى ملتمسا شيئا من الدفء . وإتسعت مساحته بالتدريج ، فأصبحت قادرا على أن أضع فيها شعر رأسى ثم جبهتى وأذنى وعينى .

إستمتعت بانتشار الدفء على وجهى ثم صدرى . وقضيت الساعات التالية بين بقعة الشمس والباب . وكانت تأتينى عبره أصوات مبهمة صادرة من جهات مختلفة . ومرت أقدام عديدة من أمامه دون أن تتوقف . لكننى لم أفقد الأمل فى أن يأتى حامل الصينية فى أى لحظة .

بلغت حرارة الشمس أوجها ثم أخذت تتراجع . وتسليت حينا بمطاردة ذبابة حطت على صينية الأمس . وأخيرا سمعت صوت المفتاح يدور فى القفل . وإنفرج

الباب عن الحارس العجوز .

أشار لى بالخروج فأذعنت . ولم أكد أخطو خارج الغرفة حتى شعرت بوجود آخر . وقبل أن أتبين وجهه ، إمتدت عصابة من القماش على عينى ، وأحاطت برأسى . ثم دفعتنى يد فى ظهرى فتقدمت متعثرا إلى الأمام . وأمسك أحدهم بذراعى وجرنى جرا فى الطرقة الطويلة . ثم صعدنا درجا وعاودنا السير . ثم هبطنا درجا طويلا . وبدا لى أننا نمضى فى نفس الطريق الذى جئت منه أول مرة . وتأكد ظنى عندما شعرت أننا خرجنا إلى الطريق .

كان ثمة محرك سيارة يطن على مقربة . ودفعتنى يد إلى الأمام صوب مصدر الصوت . ثم ضغطت على كتفى ، وأجبرتنى على الانحناء . وإصطدم ساقى بحافة معدنية . وفى اللحظة التالية كنت أستقر فى مقعد السيارة بين حارسىّ .

إنطلقت السيارة بسرعة عادية . وبعد قليل تضاعفت سرعتها . ثم شممت رائحة البحر . وسمعت أحد الجالسين يقول :

ـــ هون .

توقفت السيارة ، ولم يتحرك أحد . وأشعل الجالس إلى يمينى سيجارة . وتردد صوت مشعل السجاير أكثر من مرة . ثم إمتلأت السيارة بدخان السجاير . ولم ينبس أحد بكلمة .

كان الهدوء شاملا . بدا أننا فى مكان غير مطروق . وخيل إلى أنى إلتقطت صوت سيارة على مبعدة . فأصخت السمع . ومر بعض الوقت قبل ان أميز الصوت . وأخذ يعلو تدريجيا إلى أن توقف بالقرب منا . وتحرك الجالس إلى يسارى ففتح الباب المجاور له وغادر السيارة . إبتعد وقع خطّواته ثم تلاشى . وعاد بعد قليل فأمرنى بالخروج .

أمسكنى من ذراعى وأنا أخطو إلى الخارج . ومضى بى بضع خطوات ثم وقف . وما لبث أن أطلق سبيلى . وسمعت وقع أقدامه يبتعد فى الاتجاه الذى جئنا منه .

دق قلبي بعنف . وفكرت أن أمد يدى وأخلع العصابة ، لكنى لم أجرؤ . ثم سمعت محرك السيارة التى جئت فيها يدور . وفكرت أن أجرى ، أو أرتمى على الأرض . ثم سمعت السيارة تنطلق مبتعدة .

إقتربت منى عدة أقدام ثقيلة متمهلة . وإمتدت يد إلى عصابة عينى فرفعتها .

أغمضت عينى وفتحتها عدة مرات ، قبل أن أتبين الرجل الذى وقف أمامى . كان ممتلىء الجسم ، أنيق الملبس ، يضع على عينيه نظارات سوداء .

لمس ذراعى بيده وأشار إلى سيارة أمريكية سوداء تقف على مبعدة ، وقال :
ــ شرّف .

مشيت إلى جواره كالمأخوذ . وبلغنا السيارة ففتح بابها الخلفى ، وأفسح لى كى أتقدمه . ثم أغلق الباب ، ودار حول السيارة وولجها من الباب الآخر .

كان ثمة شاب ، يرتدى نظارة مماثلة ، يجلس إلى جوار السائق . أما الأخير فلم أر منه غير جانب من رأس صلعاء يغطيها كاب من القماش .

قلت دون أن أوجه كلامى إلى أحد منهم بالتحديد :
ــ وين رايحين ؟

لم يعن أحد بالرد على ، فأدركت المطلوب ، ولزمت الصمت .

مضت السيارة فى شوارع شبه مهجورة ، تحف بها منازل مدمرة . ثم تغير المنظر وإنتقلنا إلى حى راق لم يتعرض لتدمير كثير . وعاد مشهد الأطلال بعد ربع ساعة .

وكانت الشمس قد غربت عندما إتجهنا إلى طريق مائل يؤدى إلى مبنى ضخم فوق ربوة ، يشع الضوء الكهربائى من نوافذه . مضينا بحذاء سياج مرتفع من القضبان الحديدية . وتمهلنا أمام بوابة يحرسها الجنود ، تعلوها لافتة نحاسية تعلن عن وزارة الدفاع للجمهورية اللبنانية .

أفسح الجنود الطريق لسيارتنا ، فعبرت البوابة ، ودارت نحو اليمين . ثم توقفت

أمام درج رخامى مرتفع .

غادر رفيقى السيارة ثم أشار لى أن أتبعه . إرتقينا الدرج الرخامى ، وفى أعقابنا الرجل الآخر الذى كان يجلس إلى جوار السائق . مرقنا من باب عريض إلى ردهة غصت بالعسكريين والمدنيين . وصعدنا درجا آخر ، ومضينا فى طرقة طويلة بين صفين من الأبواب المغلقة . وأخيرا تمهلنا أمام إحدى الغرف . فطرق رفيقى بابها ودخل وبقيت فى الخارج بصحبة زميله .

خرج الرجل بعد لحظات ، فأشار لى بالدخول ، ثم أغلق الباب من خلفى .

كانت الغرفة تمتد يسار المدخل إلى حيث إستقر مكتب ضخم من الخشب ، جلس خلفه رجل قصير القامة أنيق الثياب ، ونهض الرجل واقفا وهو يمد إلى يده قائلا :

ــ أهلين أستاذ . شرّف .

وأشار إلى أحد مقعدين متقابلين وضعا لصق مكتبه .

عاد إلى مقعده ، وجلست وأنا أتأمله . وقرأت إسمه على هرم خشبى صغير فوق المكتب : « العميد محسن العطار » .

كان يتأملنى بدوره ، وعندما رأى أنى قرأت إسمه قال :

ــ ها نحن قد تعارفنا .

أومأت برأسى فقال :

ــ ألست معى فى أنك محظوظ حقا ؟

رفعت حاجبىّ ولم أتكلم .

قال وهو ينقل عدة ملفات من مكان إلى آخر فوق مكتبه :

ــ الظاهر أن لك أصدقاء كثيرين فى لبنان .

إلتقط دفترا صغيرا من أحد الملفات ، عرفت فيه جواز سفرى ، وقلب صفحاته . وعندما رآنى عازفا عن الكلام قال :

ــ ستنتهى فيزتك بعد ثلاثة أيام .

قلت :

ـــ أجل .

قال :

ـــ هل تنوى السفر قبل ذلك ؟

تطلعت إليه حائرا ثم قلت :

ـــ هل يمكن أن أعرف أين أنا ؟

إبتسم وقال :

ـــ ألم تتبين ذلك بعد ؟ أنت هنا فى مخابرات الجيش . المكتب الثانى كما يسموننا .

ـــ ولماذا ؟

رفع حاجبيه مستنكرا :

ـــ لماذا ؟ لأننا أنقذناك من الموت . بحثنا عن خاطفيك وأقنعناهم بالأفراج عنك .

تطلعت إلى لحم وجنتيه الناعم الذى تهدل خارج ياقة قميصه الضيقة . قلت :

ـــ شكرا .

قال :

ـــ أظن أننا نستحق أكثر من كلمة الشكر .

تساءلت :

ـــ كيف ؟

ـــ بأن تلتزم الصراحة والصدق معى .

ـــ لكنى لم أكذب عليك . فلم أقل لك أى شىء .

إبتسم ابتسامة ذات مغزى وقال :

ـــ بالضبط .

ـــ هل معنى كلامك أنى حر ؟

ـــ طبعا .

ـــ هل يمكننى أن أذهب ؟

ألقى بالجواز جانبا وتناول مفكرتى :

ـــ طبعا . لكن ألا تريد أن تأخذ أوراقك وجوازك ؟ ثم هناك بضعة أسئلة صغيرة .

أنت حر فى أن تجيب عليها أو ترفض ذلك . لكنك إذا أردت حقا أن تعبر عن تقديرك لنا ...

ـــ ماذا تريد أن تعرف ؟
ـــ نشرب أولا قهوة . كيف تحبها ؟
ـــ مضبوطة .
ـــ مثلى تماما .

تحدث فى ديكتافون صغير على مكتبه طالبا قهوة على الطريقة المصرية . وقدم إلى علبة سجائر مارلبورو . لم أكن أطيق مذاقها ، لكنى أخذتها ، وتركته يشعلها لى ، ثم جذبت نفسا عميقا أشعرنى بالدوار .

قال :

ـــ بيروت مدينة هامة بالنسبة للكتّاب لأن بها كثيرا من الناشرين . وللأسف أن بعض الكتاب والناشرين لا يلتزمون بحدود عملهم ، ويقحمون أنفسهم فى أمور قد تضر بهم ضررا بليغا .

أحضر شاب فنجانين من القهوة . وتناولت فنجانى بينما تشاغل بإستبدال فيلتر مبسمه . ثم ثبت سيجارته به وأشعلها بتأن وهو يلقى نظرة على ورقة أمامه . وعلى حين غرة مال على المكتب وهو يحدجنى بنظراته وقال :

ـــ أين يقيم كارلوس .

تطلعت إليه مبهوتا :

ـــ كارلوس من ؟

وفجأة تذكرت ، فإبتسمت بالرغم منى .

أشار إلى بإصبعه منفعلا :

ـــ ها أنت قد عرفت .

قلت :

ـــ تقصد الإرهابى الدولى .

قال وإنفعاله يتضاعف :

ـــ هو بعينه .

قلت :

ـــ وما شأنى به ؟

ضرب الملفات بقبضته وقال محتدا :

ـــ أستاذ . بدك تحكى معى بصراحة مثل ما باحكى معك . عندنا معلومات بأنك تعرف شخصيته جيدا .

ـــ غير صحيح .

ـــ معلوماتنا مؤكدة .

ـــ معلوماتك خاطئة . فلا شأن لى بالارهاب أو السياسة . لقد جئت بيروت لأنشر كتابا وحسب .

إبتسم فى خبث وقال :

ـــ والفيلم ؟

أجبت فى حدة :

ـــ ماذا عن الفيلم ؟ لقد عرضوا على أن أكتب تعليقا له . فلماذا لا أفعل ؟ إنها صنعتى .

ـــ إذن ما هى قصة كارلوس ؟

ـــ ليست هناك أى قصة . ما قلته لك هو كل شىء .

جعل يتأملنى بإمعان . وبدا لى أنه حائر بين مسلكين . ثم إستقر رأيه أخيرا ، فتراخى فى مقعده . وخلع السيجارة من المبسم وأطفأها فى المنفضة وهو يقول :

ـــ أستاذ . إسمع منى ها الكلمة . ليس فى وسعنا أن ننقذ شخصا فى ظروفك كل يوم . وإذا كنا نجحنا اليوم ، فربما لن نستطيع فى المرة القادمة . نصيحتى لك أن تبتعد عن المتاعب . وإذا وجدت نفسك فى مأزق يمكنك أن تلتجىء إلينا . نحن نمسك ببعض الخيوط ، ونستطيع أن نحرك البعض الأخر .

إلتقط بطاقة من علاقة نحاسية وقدمها إلى قائلا :

ـــ ها هو إسمى ورقم تلفونى . لا داعى لأن تأتى أو لأن نتقابل . يكفى أن ترفع السماعة وتتكلم . ستجدنا بعد ذلك من الشاكرين . بالمناسبة . هذا الكتاب اللذى تحدثت عنه . هل وجدت له ناشرا ؟

قلت :

ـــ ليس بعد .

قال :

ـــ إعطنى نسخة من المخطوطة فربما وجدنا لك واحدا .

قلت :

ـــ للأسف لم تعد عندى نسخ .

نهض واقفا ومد يده إلى بجواز سفرى ومفكرتى وبقية الأوراق التى كانت فى جيوبى . نهضت بدورى وتناولتها منه ثم قلت :

ـــ لقد كان معى حوالى مائتى ليرة .

قال وهو يدق جرسا مثبتا إلى مكتبه :

ـــ هذا هو كل ما حصلنا عليه من خاطفيك . إذا كنت فى حاجة إلى نقود يمكننى أن أقرضك .

مد يده إلى جيبه ، فاستوقفته قائلا :

ـــ ليست هناك ضرورة . لن أحتاج إلى شىء . وسأعرف كيف أتصرف .

أصررت على الرفض ، فأبعد يده عن جيبه . وولج الحجرة رفيق السيارة ، فخاطبه العميد قائلا :

ـــ رافق الأستاذ إلى البوابة وإستدع له سيارة أجرة .

صافحته مودعا ، وغادرت الغرفة . وتقدمت مرافقى إلى الطابق الأسفل ، فالدرج الرخامى ثم البوابة الخارجية .

شق التاكسى طريقه فى ظلام الليل عبر شوارع مهجورة ، وسواتر ترابية ، ومجموعات من المسلحين المختلفى الاتجاهات . وإستوقفنا بعضهم ثم تركونا نمر . ووصلنا الحمرا أخيرا ، ثم أشرفنا على المنزل .

بحثت عن أبو شاكر فلم أجده . إرتقيت الدرج جريا آملا أن أعثر على وديع . وطرقت الباب ، ففتح لى . وما أن تبينى حتى فغر فمه دهشة ، وإحتضننى فى حرارة .

طلبت منه أن يدفع أجرة التاكسى ، وأسرعت إلى المطبخ ، فأخرجت علبة بيرة من الثلاجة ، جرعتها مرة واحدة . وحملت واحدة أخرى إلى الصالة .

أشعلت سيجارة من سجاير وديع الإنجليزية ، ومضيت إلى التليفون .

أدرت رقم لميا ، فرد على صوت طفل . ثم جاءنى صوتها :

ــ أنت ؟

سألتها :

ــ هل عندك أحد ؟

قالت هامسة :

ــ أجل . أين كنت ؟

قلت :

ــ سأحكى لك كل شىء عندما نلتقى . بعد نصف ساعة ممكن ؟

قالت :

ــ هذا مستحيل . لا يمكننى أن أخرج .

قلت :

ــ إذن آتى إليك .

ــ هذا أكثر إستحالة .

ــ والعمل ؟

قالت بصوت عادى النبرة :

ــ سأنتظرك فى المكتب صباحا .

ــ سآتى بشرط .

ــ ما هو ؟

ــ أن تجعلى شعرك ذيل حصان .

ضحكت وقالت :

ــ بسيطة .

ــ وشيء آخر . ألا ترتدى مشدا لصدرك .

ــ ماذا ؟

ــ صدرك لا يحتاج إلى مشد .

ــ كنت أفعل ذلك فيما مضى . الآن كبرت .

ــ أبدا . تعدينى ؟

ضحكت مرة أخرى وقالت :

ــ سأرى . باى باى .

سمعت صوت وديع خلفى وأنا أضع السماعة ، فإستدرت إليه . كان يتأملنى منفعلا وهو يشعل سيجارة :

ــ معجزة حقيقية . أن يعود مخطوف وبهذه السرعة . سيتلهف الجميع على شراء المقابلة التى سأجريها معك .

تأملت ملامحه بإمعان كأنى أراه لأول مرة . وقلت وأنا أفتح علبة البيرة الثانية :

ــ كيف عرفت أنى خطفت ؟

ــ عندما تبينت أنك لم تنم فى البيت ، إتصلت بأنطوانيت ولميا وصفوان وكل من يعرفك . لكن أحدا لم يرك منهم . فلم يعد هناك سوى تفسير واحد . ووعدتنى أنطوانيت أن تحرك أجهزة المقاومة . إسمع . لابد أنك جائع .

قلت :

ــ مثل كلب . أريد لحما وويسكى . وقبل كل شيء الحمام .

قال :

ــ إدخل الحمام . وسأعد لك كل شيء .

سألت وأنا اتجه إلى غرفتى :

ــ ألم يذكر صفوان شيئا عن الكتاب ؟

أجاب :

ــ قال إنه لا يستطيع نشره فى الظروف الحالية .

أحضرت ملابس نظيفة من غرفتى ، وحملت علبة بيرة إلى الحمام . خلعت ملابسى وكومتها فى ركن قصى . وغسلت أسنانى ، ثم أطلقت المياه الساخنة فى حوض الاستحمام . وحلقت ذقنى وأنا أرتشف من البيرة . وأخيرا رقدت فى الحوض ، وأسندت رأسى إلى جداره . ورفعت علبة البيرة إلى شفتى .

لكن سعادتى لم تلبث أن تلاشت . وتحركت أمعائى لأول مرة منذ يومين . لم يكن السبب هو قرب عودتها إلى ممارسة نشاطها الطبيعى ، وإنما الفكرة التى أخذت تلح على .

إنتهيت من حمامى ، فإرتديت الملابس النظيفة ، وخرجت إلى الصالة . وجدت وديع قد أحضر من الخارج دجاجتين مشويتين على الفحم ، مع أطباق السلاطة المعهودة . ورويت له ونحن نأكل كيف تم إختطافى ، والحديث الذى دار بينى وبين الفينيقى المتعصب ثم بينى وبين رجل المكتب الثانى .

عرته الدهشة عندما سمع بالسؤال الذى وجهه إلى الأخير عن كارلوس ، وتمتم :

ــ غريبة . وماذا قلت لهم ؟

ــ الحقيقة .

بدت عليه الحيرة ، فأضفت :

ــ أقصد أنى لا أعرف عنه أى شىء

شحب وجهه وسأل :

ــ وهذا صحيح ؟

ــ طبعا .

ــ لكنك قلت لى ...

ضحكت :

ــ أنت الذى أخطأت الفهم .

كرر متعجبا :

ــ غريبة .

غمست لقمة فى طبق من الثوم المطحون باللبن وقلت :

ــ فعلا غريبة . فلم يرد ذكر كارلوس على لسانى غير مرة واحدة . فى هذه الصالة وأثناء حديثى معك . وليس لذلك غير معنى واحد .

توقف عن الأكل وتطلع إلى مترقبا :

ــ ما هو ؟

ــ إما انك ثرثرت مع أحد بالحديث الذى دار بيننا ..

اندفع قائلا :

ــ أبدا .

سكت ثم أضاف :

ــ لا أظن . ربما .

استطردت :

ــ أو أن بمنزلك جهاز تسجيل للمكتب الثانى .

دار ببصره فى أرجاء الصالة ثم أطرق برأسه قائلا :

ــ ممكن .

جرعت كوبا من البيرة ثم قلت :

ــ لا أظن .

إتسعت حدقتاه :

ــ اذن ما ...

رفعت يدى أستوقفه وقلت :

ــ دعنا من هذه النقطة الآن . ما أريد أن أفهمه هو : لماذا إختطفونى ، ولماذا أطلقوا سراحى .

إقتطع شريحة من الدجاج وقال :

ــ إختطافك يمكن أن يكون قد تم مصادفة . وجه غريبٌ ظهر فى منطقتهم . وخصوصا إذا كان بادى الفضول .

وضع لقمة فى فمه واستطرد :

ـــ ليست هناك قاعدة بالنسبة لعمليات الاختطاف . فأحيانا يتم إعدام المخطوفين فى الحال . وغالبا يكون هذا إنتقاما لعملية مماثلة قام بها الطرف الآخر . وأحيانا يكون بلا سبب ظاهر ، كما حدث أخيرا عندما أعدم الكتائبيون حوالى أربعين من العمال المصريين . وفى أحيان كثيرة يحتفظ الخاطفون بضحاياهم ليتم مبادلتهم بغيرهم ، أو بمكاسب معينة . ولهذا كان الفينيقى صبورا معك من أجل تقييم حالتك ، وهل من الممكن مثلا إستغلالك فى نوع من المبادلة . ولو تبين له مثلا أنك مسيحى ، كان سيحاول إقناعك برأيهم ، وكسب تأييدك . وأظنك سمعت أن هناك جسورا بينهم وبين بعض الأقباط المصريين .

ـــ والمكتب الثانى ؟

إستغرق فى مسح ما تبقى فى طبق الحمص بلقمة ثم قال :

ـــ المكتب الثانى هيئة غريبة . إنه يخضع لنفوذ العائلات الحاكمة ، مارونية ومسلمة . لكن القائمين عليه يخضعون أيضا لولاءات أخرى خارجية ومتعارضة . وبالاضافة إلى ذلك كله ، فإنهم يتحركون أحيانا بشكل مستقل فى لعبة الصراع على القوة بين الكتل المختلفة ، داخلية وخارجية .

أشعل سيجارة ومضى يقول :

ـــ نأتى للمقاومة . الظروف فرضت عليها أن تحتفظ بقنوات إتصال مع الكتل المختلفة . وهى قنوات لا تتأثر بالأحداث . يكون القتال دمويا بين فتح والكتائب مثلا ، بينما تعمل قناة الإتصال بينهما بصورة عادية .

تطلع إلى ساعته ، ثم قام إلى جهاز التليفزيون فأداره ، وألغى صوته ، فى إنتظار نشرة الأخبار . وواصل حديثه وهو يعود إلى مقعده :

ـــ تم إذن إختطافك صدفة . ونجحت أنطوانيت فى أن تحرك المسئولين فى منظمة التحرير الفلسطينية . ومن الطبيعى أن يهتم هؤلاء بالأمر لسببين . الأول هو أنهم حريصون على دعم علاقاتهم بكافة المجموعات اللبنانية التقدمية مثل مجموعة أنطوانيت ، حماية لوجودهم . والسبب الثانى متصل بالأول . فاستخدام أنطوانيت لإمكانيات مؤسسة السينما التابعة لهم ، يجعلها محسوبة عليهم بصورة ما . وبذلك فإن إختطافك يمس مكانتهم ولو من بعيد . وقد بدأوا أولا بالمنظمات المختلفة فى

الغربية حتى تأكدوا أنك غير موجود بها . عندئذ تم تحريك قناة الاتصال بالمكتب الثانى ثم بالكتائب والنمور وحراس الأرز وبقية الفرق المارونية . وهؤلاء جميعا أنكروا علاقتهم بالأمر . لكن المكتب الثانى ـــ سواء كى يسدد دينا للمنظمة ، أو يسجل لنفسه نقطة عندها ، أو ليكسب نقطة فى صراع القوة مع الفرق المارونية ، أو ليتقصى موضوعا جانبيا تماما مثل موضوع كارلوس ـــ المهم أنه لايقف عند هذا الحد ، ويهتم بالقصة . وخلال ساعات قليلة يكون قد عرف من عملائه المنبثين فى الفرق المختلفة مكانك . ويحسم الأمر بمكالمة تليفونية . فيجد الخاطفون أنهم يكسبون من إطلاق سراحك نقطة لدى المكتب الثانى ، أو يسددون دينا له . ويتم تبادل الإعتذارات وتسجيل النقاط ، وتسترد حريتك . وتصبح مدينا للمكتب الثانى بصورة ما .

أطرقت برأسى وقلت :

ـــ معقول جدا . ولو أنها صورة مخيفة . ومضحكة أيضا . وهى تفسر الباقى .

رمقنى متسائلا فقلت :

ـــ دورك أنت .

ظهرت عليه الدهشة وإغتصب ضحكة :

ـــ دورى هو أنى حركت هذه السلسلة من الأفعال عندما بحثت عنك وإتصلت بأنطوانيت .

ـــ طبعا . طبعا . لا جدال فى هذا . لكنى أقصد شيئا آخر .

ـــ ماهو ؟

ـــ كارلوس .

شحب وجهه وقال :

ـــ ما شأنه ؟

ـــ ربما يوجد جهاز تسجيل هنا . لكنى واثق أن المكتب الثانى سمع بموضوع كارلوس عن طريقك شخصيا .

ـــ يعنى أنا عميل للمكتب الثانى ؟

ـــ ليس بالضرورة . لا أظن . هناك شكل معاصر متحضر لهذه الأمور . أنت ترفع سماعة التليفون وتتصل بصديق لك ، تعرف أن له صلة ما بالمكتب الثانى . واحد

مثل صاحب المقهى الذى رأينا عنده لميا . فتثرثر معه . وخلال الحديث تلقى ببعض المعلومات التى تعرف جيدا أنها تهم المكتب الثانى . عمليا أنت لم تقم بشىء مما يقوم به العملاء المحترفون . كل ما فعلته هو أنك ثرثرت فقط فى معرض الاجابة على السؤال التقليدى : إيه الأخبار ؟

ــ وماذا أستفيد من هذه الثرثرة ؟

قلت :

ــ شىء من الأمان ربما . دعم ما فى لحظة أزمة . الحياة هنا صعبة . بيروت جحيم من الولاءات المتشابكة والمتعارضة . ثم ألا يحتمل أن تكون مدينا لهم على طريقة ما حدث معى اليوم ؟

ــ لم أتصور أبدا أنك سىء الظن إلى هذه الدرجة .

ــ ليت الأمر كان كذلك . مجرد سوء ظن .

كانت أصابعه ترتعش . ودون أن أنظر إلى أصابعى كنت أعرف أنها أيضا ترتعش .

قلت :

ــ هل تحب أن أعطيك مثالا آخر فى سوء الظن ؟ هناك موضوع المفكرة . أنا واثق أنى تركتها على الكومودينو بجوار الفراش . فما الذى وضعها فى حقيبتى ؟

ــ لو كنت أخذتها ، فمن المنطقى أن أعيدها إلى مكانها .

ــ بالعكس . أنت تعرف أنى بحثت جيدا على الكوميدينو وحوله وتحته . فلو ظهرت فى نفس المكان ، لبدا الأمر واضحا . الأذكى أن تظهر فى مكان آخر لإقناعى بأنى كنت عرضة للنسيان .

ــ إذن أنا أخذت مفكرتك وأعطيتها للمكتب الثانى ؟

ــ ربما تكون تصفحتها وحسب . خفت أن تكون لى إتصالات يمكن أن تعرضك للخطر .

ــ وماذا أيضا ؟

ضحكت :

ــ ألا يكفى هذا ؟

ــ أريد أن أسمع .

ـــ كما تشاء . يمكن أن نبدأ من السجن الذى غادرته بعد أسبوع واحد . أو سنة ٦٨ عندما عينوك فى بيروت بينما كل أصدقائك كانوا إما فى السجن أو خارجين منه لتوهم .

ـــ وكيف تفسر أنت ذلك ؟

ـــ ألم تكن من المسئولين فى تنظيم الاتحاد الأشتراكى ؟ وكنت تكتب التقارير عن إتجاهات الرأى العام ، أى آراء زملائك فى الجريدة ؟

قال :

ـــ أنت تسلينى جدا بإكتشافاتك البوليسية . لقد كنت دائما أعتبرك أقرب شخص إلى . وها أنت قد خيبت ظنى فيك .

قلت :

ـــ الحياة سلسلة من خيبات الظن . الغريب فى الأمر أنى ـــ بينى وبين نفسى ـــ لا ألومك على شيء .

حانت منى نظرة إلى شاشة التليفزيون ، فوجدت نشرة الأخبار قد بدأت . مددت يدى ورفعت درجة الصوت ، وإستمعت إلى المذيع يتحدث عن ثلاثة مليارات من الدولارات أخذها العراق من السعودية لتعويض خسائره فى الحرب مع إيران . ثم ظهرت صورة السادات على الشاشة بمناسبة حديث أدلى به إلى مجلة « دير شبيجل » الألمانية ، وأعلن فيه أن العلاقات المصرية الأمريكية هى علاقات إستراتيجية ، وأن « بلاده » مستعدة لتقديم التسهيلات للولايات المتحدة والدول الغربية من أجل الدفاع عن مصالح هذه الدول فى الخليج .

بدا أن السادات قد إحتكر الأمسية ، فما لبث أن ظهر فى إجتماع لحزبه فى القاهرة . وفى هذه المرة جاءنا صوته المميز يقول : « فى يوم ٢٧ مايو ٧٩ .. يعنى بعد ما رفعت العلم على العريش .. يوم ٢٧ كنت فى العريش وجه ليه بيجين .. ورحنا زرنا بير سبع ... يعنى الموضوع إنتهى بتاع سينا خلاص .. برفع العلم على العريش ... قلت له تعالى نقعد ... اللى تم إمبارح لما أنا رفعت العلم على العريش ... دى معناها كبير جدا .. ليه ؟ معناها إنه إنتم فعلا بتحترموا إتفاقاتكم .. وأنا عارف هذا .. انتم فعلا بتنفذوا التزاماتكم .. طب ما تيجى وفاضل لنا سنة عشان الحكم

الذاتى الفلسطينى .. ما تيجى من دلوقت نخلص الاتفاق ... ما تيجى يا بيجين .... وبيجين قال مفيش مانع .. إيه رأيك ؟ ما كنش فيه حاجة .. ما طلبش منى شىء أكثر من إجراءات أمن .. كل إجراءات الأمن اللى طلبوها قلت لهم أديهالكو وزيادة . قال لى شىء عظيم جدا .. قلت له إيه رأيك فى مليون متر مكعب يوميا من مياه النيل .. قاللى شىء عظيم جدا .. »

شعرت فجأة بالارهاق والرغبة فى النوم ، فقمت واقفا وأنا أقول :
ــ سأدخل لأنام .

لم ينبس بحرف وظل يتطلع إلى شاشة التليفزيون فى وجوم . ملت عليه ووضعت يدى على رأسه قائلا :
ــ صدقنى يا وديع . أنا لا ألومك أبدا .

(٢٤)

بدا المرافق الفحل ساهما ، وقد إحتل مقعدا إلى جوار مكتب السكرتيرة ، ومد ساقيه الطويلتين أمامه ، فأوشك أن يسد الطريق . وكان مسدسه ، كالعهد به ، يتدلى من خاصرته .

قالت السكرتيرة وهى تومىء إلى الغرفة الداخلية :
ــ المدام تنتظرك .

خطوت فى الممر المؤدى إلى غرفتها . ورأيتها تقف عند الباب مادة يديها نحوى . إحتوت يدى بين راحتيها وجذبتنى إلى الداخل . ثم تخلت عنى واتجهت إلى مقعدها خلف المكتب قائلة :
ــ إجلس واحكى لى ما حصل .

جلست فى المقعد الملاصق لحافة مكتبها الأمامية . ورأيت أنها مشطت شعرها إلى الخلف ، وجمعته داخل أنشوطة . وكانت ترتدى بلوزة حريرية ، وردية اللون ، بلا أكمام ، وجوبا واسعا من نفس اللون . وتبينت على الفور أنها لا ترتدى مشدا .

لحظت إتجاه نظراتى فتضرج وجهها وقالت :

ــ الشمس اليوم قوية . مبسوط يابيه ؟

رويت لها ما وقع لى من أحداث ؛ وضحكنا سويا على قصة كارلوس .

سألتها :

ــ ما هى أخبار الكتاب ؟

أجابت على الفور :

ــ أعجبنى جدا ، وسنأخذه . متى تسافر ؟

ــ حجزت فى طائرة الجمعة .

ــ سأجهز عقدك اليوم .

ــ والمصارى ؟

ــ بمجرد أن توقع تقبض .

جذبت بعض الأوراق وقالت :

ــ هل يمكن أن تنتظرنى قليلا . ؟ إشرب القهوة وأقرأ الصحف حتى أنتهى .

جاءت السكرتيرة بالقهوة . وتناولت إحدى الصحف . كان صدرها موزعا بين أخبار مؤتمر القمة العربى فى عمان ، وحملة إعتقالات جديدة ضد الفلسطينيين هناك ، وحديثى السادات اللذين إستمعت إليهما بالأمس . وكانت هناك إشارة لحديث ثالث إلى التليفزيون الدانمركى يقول فيه بالنص : « ثبت أن الله يعدنى لمهمة معينة . »

قلبت الصحيفة فطالعتنى على الصفحة الأخيرة صورة لصبى فى حوالى السابعة من عمره ، ذى وجه وسيم وعينين واسعتين ، يتوسط زميلين له خلف مكتب بحجرة دراسة . إلتقطت الصورة من الأمام وعلى مستوى منخفض ، فظهرت سيقان التلاميذ الثلاثة ، وحقيبة كتب أحدهم فوق الأرض . وكان كل منهم يضع ساقا فوق الأخرى ، كاشفا عن جوربه وحذائه ، ما عدا الصبى الوسيم الذى وضع طرف قلمه

فى فمه متأملا فى وجوم . فقد كانت ساقه اليسرى ، الملقاة فوق اليمنى ، تتألف من رجل بنطلون فارغة .

كان المقال المرفق يتحدث عن الأطراف الصناعية بمناسبة العام الدولى للمعاقين . وقرأت أن سوق الأطراف الصناعية فى لبنان إزدهر أخيرا رغم الصعوبات التى تواجهها . فالتقدم الذى تحقق فى صناعتها ، جعل الأغنياء وحدهم هم القادرون على الاستفادة منها . بينما الغالبية الساحقة من المصابين فى لبنان ، من الفقراء المعدمين .

وأسفل صورة الصبى ، قرأت هذا التذييل : « الطرف الصناعى ليس كما يعتقد الناس مثل الطرف الطبيعى ، لكنه وسيلة مساعدة على القيام ببعض الحركات المهمة . »

كانت هناك صورة أخرى لنفس الصبى فى الطريق ، وقد إعتمد بمرفقيه على عكازين ، وعلق حقيبة كتبه فوق ظهره ، ولوى عنقه متابعا مباراة فى كرة القدم بين أولاد فى مثل سنه .

وفى صورة ثالثة ظهر طفل آخر فى حوالى الرابعة من عمره يرتدى صديريا فوق قميصه ، ووقف بين حاجزين حديديين ، كاشفا عن نصفه الأسفل ، بينما إنحنى الطبيب فوق فخذه المبتورة ، يجرب له ساقا صناعية . وأسفل الصورة قرأت : « المشى هو مجموعة حركات تقوم بها عدة مفاصل فى الرجل والورك والركبة والكاحل وأصابع القدم . وتجرى عمليات البتر عادة فوق الركبة أو تحتها . »

غادرت لميا مقعدها ، ومضت إلى خزانة الكتب ، فإستخرجت ملفا ، وعادت به . توقفت بجوارى ، وبسطت الملف على سطح المكتب ، وإنحنت فوقه .

كان باب الغرفة مفتوحا . وكان بوسعى أن أرى جانبا من الممر المؤدى إلى الردهة الخارجية . ودون أن أرفع عينى عن الباب ، إنحنيت قليلا ، ووضعت راحة يدى فوق بطن ساقها . حركت يدى فى بطء إلى أعلى حتى إبط ركبتها ، ثم أدرتها بحيث أحاطت بركبتها من الأمام ، وواصلت تحريكها فوق فخذها .

كان لحمها مشدودا ، ناعما وساخنا . وإصطدمت يدى بعد لحظة بقطعة من

القماش ، فتوقفت وتطلعت إليها . كانت ما تزال منحنية على الملف ، لكن عينيها كانتا مغمضتين .

فتحت عينيها ببطء ، فالتقتا بعيني .

قالت :
ـــ أنا لا أستحى منك .

كان دوى الانفجار قويا ، هز المبنى من أساسه . وسحبت يدى بسرعة ، بينما إعتدلت واقفة وهى تسوى جوبتها . وهرعت إلى النافذة قائلة :
ـــ إنه حاجز الصوت .

تكرر الدوى مرة أخرى . ثم ترددت عدة إنفجارات ضعيفة متفرقة ، أشبه بطلقات المدافع المضادة للطائرات . وأقبلت السكرتيرة علينا فى إنفعال وهى تقول :
ـــ طائرات إسرائيلية .

إنضمت إلينا عند النافذة . ووقفنا نتطلع إلى السماء دون أن نرى شيئا . ولم يتكرر الدوى فانصرفت السكرتيرة ، وأغلقت الباب خلفها .

قربت فمى من ساعد لميا العارى ، وطبعت قبلة عند مدخل إبطها . ولحظت أن وجهها شاحب .

سألتنى :
ـــ خفت ؟
أجبت :
ـــ طبعا .

إحتضنتها وإلتقطت أذنها بشفتى . أراحت نهديها على صدرى ثم إبتعدت عنى مرة واحدة وهى تهمس :
ـــ حد يدخل .

تناولت الملف وأعادته إلى الخزانة ، ثم إستقرت خلف مكتبها وإنهمكت فى العمل . وعدت إلى مقعدى فأشعلت سيجارة وجعلت أرقبها .

ألقت القلم فجأة من يدها وهى تتراجع بمقعدها إلى الوراء :
ــ أوف . لست قادرة على التركيز .
قلت :
ــ قومى بنا نخرج .
فكرت قليلا ثم قالت :
ــ يجب أن أذهب إلى البيت .

مددت يدى فوق المكتب وأمسكت بيدها وتحسست أناملها بأطراف أصابعى .

كان الدوى هذه المرة قريبا منا للغاية . وميزت صوت طلقتين متتابعتين . وفُتح الباب بعنف وظهرت السكرتيرة شاحبة الوجه ، وهى تحاول الكلام . وجاء فى أعقابها شابان ممن يعملون فى الدار ، وخلفهما أحد المسلحين اللذين يحرسان مدخل المبنى .

أمكننا أن نفهم من سيل العبارات المبتسرة والمتعارضة ، أن « أبو خليل » خرج ليشترى سجاير . وحين عودته فى المصعد ، لمح مسلحا غريبا على الدرج . ورفع المسلح مدفعه الرشاش ليطلق النار على « أبو خليل » . لكن هذا كان أسرع منه ، فأطلق عليه رصاصتين أخطأتاه . وتمكن المسلح من الهرب فى إتجاه السطح .

تدافعنا جميعا إلى الخارج . ووقفنا أمام المصعد الذى بدا زجاج مصراعه الخشبى مهشما .

سمعنا صوت أقدام ثقيلة وأنفاس لاهثة . وظهر « أبو خليل » أعلى الدرج ، ومسدسه يتدلى من يده .
ــ طاردته حتى السطح لكنه تمكن من الفرار .

هز حارس الباب الخارجى رأسه وقال :
ــ لم يدخل غريب البناية أبدا .
صاح به أبو خليل :
ــ إذن من أين جاء الزلمة ؟ م الهوا ؟ لابد أنه صعد من المدخل وكنت أنت نائما .
إحتد الحارس :

ــ أنت الذى تنام طول الوقت .

تدخلت لميا لتفض الشجار ، وطلبت من الاثنين أن يقوما بتفتيش المبنى تفتيشا جيدا .

عدنا أدراجنا إلى الغرفة ، فأغلقت الباب وإستندت إليه بظهرها . قالت وهى تجذب شفتها السفلى بطرف إصبعها :
ــ من حسن الحظ أن « أبو خليل » رآه .

مشت إلى مكتبها وهى تفكر ثم سألتنى :
ــ كم الساعة الآن ؟
قلت :
ــ الثانية والنصف .

خطت نحوى ووقفت أمامى ، ثم مدت يدها إلى صدرى فاعتصرته . أحنيت رأسى على صدر بلوزتها ، وتناولت طرف ثديها بين شفتى . وقرّبَت فخذيها من جسدى وألصقتهما بى .
قالت بالانجليزية :
ــ أنا هائجة جدا .
ثم أضافت بالعربية همسا :
ــ أنا بأعوّق كتير . فهمت ؟
أطرقت برأسى وقلت :
ــ نذهب إلى منزلى .
تساءلت :
ــ ووديع ؟
ــ يمكننى أن أكلمه الآن فى مكتبه وأتفق معه .
ــ لا أريد . لن أشعر بالاطمئنان أبدا .
تطلعت إلى الكنبتين المتعامدتين فى ركن الغرفة ، فقالت :
ــ ولا هنا أيضا . وبعد ما حدث اليوم .

حسمت رأيها فجأة فتناولت حقيبة يدها وقالت :

ــ هيا بنا .
ــ إلى أين ؟
ــ إلى منزلى .

كان « أبو خليل » ينتظرنا فى الردهة الخارجية ، فتقدمنا إلى الدرج . وهبطنا خلفه حتى الباب الخارجى ، حيث إستقبلنا الحارسان شاهرى السلاح .
طلب منا « أبو خليل » أن ننتظر فى الداخل ، وأشار إلى أحد الحارسين ، فغادر المبنى . وظهر بعد لحظات فى مقدمة الشيفروليه إلى جوار سائقها ذى الملابس الرسمية .

وبإشارة من « أبو خليل » رفع المسلح الآخر مدفعه إلى صدره ، وهو يكتسح ببصره أسطح المبانى القريبة ونوافذها ومداخلها . وتقدم إبراهيم من السيارة فى إعتداد فجذب الباب الخلفى ، وأومأ برأسه للميا . وظل واقفا حتى ركبت فأغلقه وراءها . ثم دار حول السيارة وفتح الباب الآخر ، وتنحى جانبا وهو يخاطبنى :
ــ شرّف أستاذ .

أغلق ابراهيم الباب ثم دار حول السيارة وفتح الباب المجاور للميا . تحركت هى نحوى حتى إلتصقت بى ، مفسحة له مكانا . وجلس شاهرا مسدسه .

قالت لى لميا بالانجليزية عندما تحركت السيارة :
ــ كنت أنوى التخلص من عظمته فى نهاية الشهر . لكن يبدو أنه مازلت هناك حاجة إليه .

إنطلق السائق عبر شبكة من الشوارع المتقاطعة ، تنفيذا لتعليمات إبراهيم الذى لم يغفل عن مراقبة السيارات القادمة من خلفنا ، حتى بلغنا المنزل .

وقبل أن تتوقف السيارة تماما كان أبو خليل قد فتح بابها وقفز إلى الرصيف ومسدسه فى يده . وفعل المسلح مثله ، ووقف إلى جوار السيارة رافعا مدفعه إلى صدره ، وإصبعه على الزناد .

غادرنا السيارة وتقدمنا من المبنى فى حماية المسدس والكلاشينكوف . وإنضم إلينا إثنان من المسلحين الواقفين فى مدخله . صعدنا الدرج الرخامى العريض ، ثم

إجتزنا الردهة الداخلية . وأخذ إبراهيم مفتاح المصعد من لميا ، وإستقله بمفرده حتى الطابق الأخير ليتأكد من خلوه من المتفجرات .

هبط المصعد بعد دقائق ، فأخذناه أنا ولميا إلى مسكنها . وقادتنى إلى الغرفة التى جلست فيها المرة السابقة وتركتنى .

إتجهت إلى المكتبة ووقفت أتأمل محتوياتها . ورأيت الرف الذى كان يحمل صورة عدنان خاليا . وإكتشفت أن الصورة موضوعة على الأرض ، إلى جانب المكتبة ، ووجهها إلى الحائط .

جذبت مجلدا سميكا غريب الشكل ، فوجدته قاموسا للغتين العربية والعبرية . قلبت فى صفحاته إلى أن أقبلت لميا . ولاحظت أنها أضافت طبقة جديدة من الكحل إلى عينيها ، فبدتا أكثر إتساعا .

قالت :

ــ الأكل جاهز يا بيه .

أعدت القاموس إلى مكانه وتبعتها إلى صالة رحبة ، علقت فوق جدرانها قطع السجاد ، وصوانى ضخمة من الفضة المنقوشة بالزخارف الإسلامية . وإستقرت وسطها مائدة خشبية كبيرة ، صف حولها عدد كبير من المقاعد .

كانت أدوات المائدة معدة لاثنين فقط ، فسألتها :

ــ ألن تأكل إبنتك معنا ؟

قالت وهى تجلس :

ــ سلمى أكلت مع دادتها وخرجا للنزهة .

جلست أمامها وتطلعت حولى ثم سألتها :

ــ أليس هناك ما يشرب؟

أشارت إلى قنينة من عصير البرتقال وإبتسمت :

ــ نحن لا نحتفظ بأية خمور فى المنزل . أنت نسيت أننا مسلمون .

تولى نادلان فى سترات بيضاء وبنطلونات سوداء خدمتنا . وإنتقلنا من السلاطات المتنوعة إلى كشك بصدور الدجاج ، وورق عنب محشو ، ثم قطع من

اللحم المحمر مع كوسة وجزر مسلوقين .

كانت الحلوى مصنوعة من الشكولاتة . وإكتفيت بتفاحة تناولتها من إناء واسع إمتلأ بالتفاح والخوخ والعنب .

أشعلت سيجارة ، وإنتقلنا إلى غرفة المكتبة ، حيث جاءتنا القهوة . تركت لميا الغرفة بعض الوقت ، وعندما عادت جلست إلى جوارى وأمسكت يدى . كانت يداى باردتين ، فتركتهما وقالت :

ـــ تعال أريك غرفتى .

سرنا فى ممر طويل فوق أرضية من الرخام . وتوقفت أمام غرفة . سألتها :

ـــ هل الحمام قريب من هنا ؟

أشارت إلى الباب المواجه ففتحته ودخلت . وجدت نفسى فى كهف واسع من الرخام الأسود الذى تتخلله عروق وردية . وكانت المرايا تغطى جانبا كبيرا من جدرانه .

تبولت وغسلت يدى وفمى فى حوض واسع ذى صنابير صفراء لامعة ، بدت كأنها من الذهب . ثم جففت يدى وأنا أتأمل وجهى الذى عكسته المرايا عدة مرات . وأخيرا غادرت الحمام ، وأغلقت الباب خلفى فى هدوء .

كانت الغرفة التى تنتظرنى فيها متوسطة المساحة ، يحتل مركزها فراش مستدير واطىء ، دون مساند ، يعلوه غطاء سميك وردى اللون .

جذبتنى من يدى وقادتنى إلى كنبة وثيرة ، ثم جلست أمامى على حافة الفراش ، وهى تتأملنى فى إهتمام ، مترقبة إنطباعى .

نقلت البصر بين السجاد السميك الذى تعلوه خصلات متموجة من الصوف ، والستائر الضخمة التى كشفت عن حائط من الزجاج يطل على شرفة عريضة . وإسترخيت فى مكانى ، دافنا جسدى بين الحشيات اللينة .

شعرت بالسكينة وأنا أمر بعينى فوق الأثاث النظيف المرتب فى عناية ، والسماء القاتمة من خلال الزجاج . كان الهدوء شاملا . وشعرت بالرغبة فى أن أستسلم للكنبة وحشياتها . وفى ألا أتحرك أو أتكلم ، كى تمتد هذه اللحظة قليلا .

مالت نحوى وألقت بيدها على ركبتى . أمسكت بساعدها وجذبتها نحوى فى رفق ، فإنتقلت إلى جوارى ، ودفنت رأسها فى عنقى .

كان جسدها ساخنا ، وشعرت بها ترتعش لكن أعصابى كانت مرتخية ، وشيء كالخدر يلفنى .

وضعت راحتى على ساقها ، وتحسست بشرتها الناعمة . ثم تلمست إستدارات فخذيها . وتطلعت إليها فوجدتها تتنفس فى قوة ، مغمضة العينين . وما لبثت أن جعلت تنتفض مع كل لمسة من أصابعى .

كلت أصابعى بعد قليل وآلمنى رسغى ، لكنى واصلت تلمسها دون أن أرفع عينى عن وجهها ، إلى أن هدأت حركاتها ، ونحت يدى بعيدا .

إستكانت على صدرى وهى لاتزال مغمضة العينين . وفتحت عينيها بعد فترة ، ثم إعتدلت جالسة وسوت ملابسها قائلة :
ــ الأفضل أن نعود .

تبعتها إلى غرفة المكتبة وجلست فى مواجهتها . أشعلت سيجارة وأنا أتأملها . كانت عيناها ساهمتين ، غارقتين فى تيار من التأملات الداخلية .

ألقيت نظرة على ساعتى وقلت :
ــ لابد أن أنصرف الآن .
ــ هه ؟

كررت القول فقالت دون حماس :
ــ إبق قليلا . عندى فيلم مصرى لنادية الجندى .
قلت :
ــ وأنا عندى فيلم يحتاج إلى تعليق .

قالت :

ـــ كما تشاء .

رافقتنى إلى باب المصعد . قلت وأنا أتجه :

ـــ هل ستكونين هنا بالليل ؟

أومأت برأسها .

سألت :

ـــ أكلمك أم تكلمينى ؟

قالت :

ـــ لا . أكلمك أنا .

قلت :

ـــ سأنتظر .

(٢٥)

بدا لى أن التعليق يجب أن يكون تقريريا ، مقتضبا ، لا أثر فيه لنبرة إثارة أو أسى . فما قيمة أى كلمة حماسية بلاغية أمام الصور الدامغة لمشاهد القتل والحرق والتدمير ؟ وخالجنى الشك لحظة فى جدوى التعليق على الاطلاق . ثم تذكرت أن للفيلم متطلبات كثيرة حتى تدب فيه الحياة ، يمكن أن يكون الصوت البشرى أحدها .

كان على أن أتخلص من أغلب العناوين الأصلية ، أو بمعنى أصح أدمجها فى تعليقى . كما أن حجم هذا التعليق كان يجب أن يسير متوازيا مع حجم المادة . وفى أحيان كثيرة يجب أن يتزامن الصوت مع مشاهد بعينها .

إستعنت بقائمة أنطوانيت المبتسرة التى سجلت زمن كل لقطة . وكنت أعرف

أن العشرين ثانية على الشاشة تستوعب ، فى المتوسط ، ثلاثين كلمة . فسجلت عدد الكلمات المطلوبة لكل مشهد يتألف من لقطات متعددة . وأمكننى بذلك أن أحدد حجم المادة المطلوب كتابتها .

وقررت أن أتعامل مع التعليق كنص متكامل ، ذى بداية ونهاية ، لا كمجموعة من التذييلات الملائمة للمشاهد . ومع ذلك كان على أن أراعى بعض المشاهد التى تحتاج إلى إيضاح ، والأخرى التى لا تحتاج إلى كلمة واحدة .

إنقطعت تماما للعمل ، ولم يحل ظهر الخميس إلا وكنت قد إنتهيت من مسودة التعليق . وراجعتها بدقة من مختلف الزوايا ، سواء من ناحية منطقية التسلسل ، أو سلامة اللغة وسلاستها ، أو النظرة السياسية ، أو الدقة فى المعلومات ، وأولا وأخيرا التزامن مع مشاهد الفيلم ولقطاته .

أمدنى ضيق الوقت بالحماس ، فعكفت على كتابة نسخة أخيرة سليمة ، إلى أن إنتزعنى رنين التليفون من إستغراق .

رفعت السماعة ، فجاءنى صوت أنثوى غريب لم أتعرف عليه :

ـــ أستاذ ... ؟

قلت :

ـــ أهلين .

قالت :

ـــ أنا جميلة .

كررت الترحيب بها ، فقالت :

ـــ عفوا إذا أزعجتك . لكن بدى أحكى معك ضرورى .

ـــ أنا تحت أمرك .

ـــ نلتقى بعد نصف ساعة ممكن ؟

ـــ أين ؟

ـــ مثل ما بتريد .

ـــ هل يضايقك أن تأتى لعندى ؟

ــ أفضل مقهى فى الحمرا . المودكا مثلا .

قلت :

ــ موافق . المودكا إذن .

نحيت أوراق جانبا . وإرتديت سترتى وغادرت المنزل . مشيت على مهل فى إتجاه الحمرا . ثم دلفت إلى المودكا ، وإخترت مائدة فى مكان ظاهر . ولم ألبث أن رأيتها تبحث عنى ، فنهضت واقفا . أقبلت علىّ فى خطوات سريعة ، وشدت على يدى بقوة ثم جلست .

كانت ترتدى سترة وجوبا من التويد . وبدت أنحف قليلا مما عهدتها . وخلا وجهها من الزينة ، فظهرت تجاعيد خفيفة حول عينيها .

طَلَبْتُ من النادل فنجانين من القهوة وكأسين من الكونياك . وأشعلت لها سيجارة ، فجذبت منها نفسا ثم قالت :

ــ عفوا إذا كنت متطفلة . هل تسافر غدا ؟

ــ أجل . فى المساء .

قالت :

ــ أريد منك أن تقطع علاقتك بلميا فور سفرك .

كنت قد رفعت كأس الكونياك إلى شفتى ، فأعدته مكانه وتأملتها مبهوتا .

أومأت برأسها وكررت عبارتها .

قلت :

ــ غريبة . أنت تفترضين أولا أن هناك علاقة بينى وبين لميا ثم تطلبين ..

قاطعتنى :

ــ أنا أعرف كل شىء ، فلا داعى للانكار .

قلت :

ــ حتى لو فرضنا أن هذا صحيح . ألا ترين أن ما تطلبينه غير عادى ؟

قالت :

ــ لدى مبرراتى ، وستقتنع بها عندما أشرحها لك .

قلت :

ــ ليس بينى وبين ليا شيء . العلاقة بيننا علاقة عمل فقط .

أطفأت سيجارتها فى المنفضة ، وإحتوت كأس الكونياك بين راحتيها :

ــ إسمع . أنا أعرف ليا من سنوات طويلة . وهى تفضى إلى بكل شيء .

ــ إذا كانت هى التى حدثتك عن علاقة مزعومة بيننا ، فهى كاذبة .

ــ لى أيضا عينان .

تأملت يديها القويتين الرجوليتين ، بأظافر مقصوصة ومصبوغة بعناية فى لون صدفى . وتمثلت الراحة والطمأنينة التى يمكن أن يجدهما الانسان بالقرب منهما .

قالت :

ــ أنا واثقة أنك ستفهم .

تمعنت فى كأسها مترددة ثم رفعت عينيها إلى قائلة :

ــ هناك علاقة خاصة ، خاصة جدا ، بينى وبين ليا .

قلت :

ــ وما شأنى أنا ؟

ــ أستاذ . أنت لك حياتك فى القاهرة . وأنا ليس عندى غير ليا . إنها كائن رقيق يحتاج إلى رعاية كاملة وحنان فائق ، وليس هناك من يفهمها ويقدرها ويحبها مثلى . لكن أحيانا يحدث شيء لا أفهمه . لنقل محاولة لاثبات الأنوثة أو القدرة على إجتذاب الرجال . أو ربما . الملل .

وضَحِكَتْ بمرارة وأضافت :

ــ أو تمرد الأجيال .

قلت :

ــ ربما كانت تنتمى للعالمين .

ــ محتمل . لكنى لم أفقد الأمل فى أن أكسبها تماما لعالمى .

ــ إذا كانت تتمرد على علاقتكما من خلالى ، فما أدراك أنها لن تواصل ذلك مع شخص آخر ؟

قالت :

ــ إترك لى هذا لأهتم به . ما أريده منك هو أن تنهى علاقتك بها بمجرد سفرك . لا خطابات . ولا وعود من أى نوع .

ــ أنا لم أقر بأن هناك شيئا بيننا . على أية حال أنا لست من المغرمين بكتابة الخطابات .

ــ كنت واثقة أنى أستطيع الاعتماد عليك .

نهضت واقفة وهى تحدجنى بنظرة موحية ، كأنما تؤكد حتمية إنصياعى لطلبها . وصافحتنى مودعة ثم إنصرفت .

تابعت ببصرى قامتها المنتصبة فى إعتداد وهى تخطو بين الموائد ، ثم دفعت حسابى وغادرت المقهى .

وجدت وديع منهمكا فى إعداد صينية من البطاطس فى الفرن ، فعكفت على النسخة المنقحة من التعليق حتى إنتهيت منها . ثم تلفنت لأنطوانيت وعرضت عليها أن أحضره لها بعد أن أنتهى من تناول طعام الغذاء .

قالت :

ــ عندى بطاقتان لحفل الموسيقى العربية . ما رأيك فى أن تأتى أنت ووديع ومعك التعليق ، وأنا أحضر معى الشيك الخاص بالمكافأة ؟

ناديت على وديع وأبلغته باقتراح أنطوانيت ، فوافق على الذهاب .

قلت لها :

ــ موافقون . فقط هل يمكن إستبدال الشيك بالنقد ؟ لن يكون عندى وقت فى الغد لصرفه .

قالت :

ــ سأحاول .

كان الحفل يبدأ فى السابعة . وأتاح لى ذلك فسحة من الوقت لتناول الطعام ، ومراجعة التعليق مرة أخيرة . وقبل السابعة بربع ساعة . أخذنا أنا ووديع سيارة أجرة إلى الجامعة الأمريكية .

واجهنا زحاما كبيرا أمام باب القاعة المخصصة للحفل . وعثرنا على أنطوانيت

بمشقة . وكانت ترتدى معطفا من الفراء الصناعى الخفيف ، فوق بنطلون الجينز المألوف ، وحذاء بكعب رفيع مرتفع .

شدت على يدى فى حرارة ، وقبلتها فى خدها . تقدمتنا الى الداخل فاعترضنا أحد رجال الدرك مشيرا إلى حقيبة يدها . فتحتها وأخرجت منها مسدسها قدمته إليه . ووضعه الدركى فى خزانة جانبية بعد أن أعطاها إيصالا به . وأخرج شاب إلى جوارى مسدسه إستعدادا لتسليمه . ومررنا أنا ووديع بعد أن نفينا أننا نحمل سلاحا .

وجدنا مكانا بمشقة . ولاحظت جو الانفعال الذى ساد القاعة ، والفرحة التى علت وجوه الحاضرين .

علق وديع قائلا :
ـــ إنها أول ليلة تسهر فيها بيروت منذ مقتل بشير عبيد .

قدمت التعليق لأنطوانيت فألقت عليه نظرة سريعة وأودعته حقيبتها . وناولتنى مظروفا يحوى مكافأتى .

قلت :
ـــ إذا أردت إحداث أى تعديل فى النص أو ظهرت أى مشكلة بالنسبة له إكتبى لى .

أومأت برأسها موافقة . ووجهت إهتمامى إلى البرنامج المطبوع الذى ناوله لى وديع . كان يتألف من أغنيات لسيد درويش ، وبعض أغنيات لليلى مراد من تلحين داود حسنى ، وأخرى لأم كلثوم من تلحين زكريا أحمد ، بالإضافة إلى قصيدة « علموه كيف يجفو » لعبد الوهاب .

ملت على أنطوانيت وهمست لوديع :
ـــ ألا تلاحظ أن فقرات البرنامج مصرية كلها ؟

رفع الستار أخيرا عن الفرقة اللبنانية التى إصطف عازفوها فى المقدمة وخلفهم المنشدون والمنشدات . وبدأ الحفل بأغنية سيد درويش المعروفة ، التى إشتهرت بها فيروز ، « زورونى كل سنة مرة » ، تلتها إثنتان من أغانيه عن الحرف ، هما لحن العربجية ولحن الشيالين .

كان الاداء جيدا والتصفيق جارفا . وإجتاحنى شعور من النشوة . وعندما غنت الفرقة « أهو دا اللى صار » ، تفجر البركان الحبيس .

كانت الأغنية التى كتب كلماتها بديع خيرى ، منذ أكثر من ستين عاما ، تتألف من كلمات بسيطة للغاية :

« أهو دا اللى صار وآدى اللى كان
مالكشى حق تلوم على .
تلوم على إزاى يا سيدنا ،
وخير بلادنا ماهُوش بايدنا .
قوللى عن حاجات تفيدنا ،
وبعدها إبقى لوم علىّ .
بدال ما يشمت فينا حاسد ،
إيدك فى إيدى نقوم نجاهد ،
وإحنا نبقى شعب واحد ،
والأيادى تكون قوية . »

سالت الدموع من عينى كالسيل . وفشلت فى إيقافها ، فتركت لها العنان .

شعرت بوديع وأنطوانيت يتبادلان النظرات . وهمست أنطوانيت فى أذنى :
ــ شو القصة ؟

لم أرد عليها وإسترسلت فى البكاء .

حلت فترة راحة بعد قليل ، فجففت دموعى . وغادرنا القاعة إلى حديقة الجامعة لندخن . وذكرنى وديع بأيام الجامعة ، فعادت الدموع تسيل من عينى رغما عنى .

أحاطنى بذراعه ، وجعل يربت على كتفى . ولم تلبث السكينة أن دبت إلىّ ، وجفت دموعى . وتمكنت من السيطرة على نفسى بقية الحفل .

صفق الجمهور طويلا عندما إنتهى البرنامج . وأعادت الفرقة بعض أغانيها . ثم

غادرنا مقاعدنا أخيرا ، وتحركنا فى بطء نحو الباب . كان الجميع ينقلون أقدامهم فى عناء ، كأنما يكرهون العودة إلى منازلهم .

إستعادت أنطوانيت مسدسها وغادرنا القاعة . ولم نكد نخطو فى الطريق حتى سمعنا صوت أعيرة نارية بالقرب منا .

تصاعدت صيحات من أماكن مختلفة ، وجرى البعض ، وأشهر آخرون مسدساتهم .

هتف وديع :

ـــ نجرى .

خلعت أنطوانيت حذاءها ، وأمسكته هو والحقيبة بيد ، وحملت المسدس فى يدها الأخرى . وإنطلقنا نجرى فى الظلام وهى ترشدنا إلى الطرقات التى تبعدنا عن المنطقة .

لم يتكرر صوت الرصاص ، فأبطأنا من سرعتنا ، وتوقفنا أخيرا ونحن نلهث . وأتانا صوت سيارة مسرعة مقبلة خلفنا ، فاحتمينا بالحائط . ومرقت من أمامنا سيارة جيب عسكرية مغلقة من كافة الجوانب . وتابعنا كشافيها المبهرين وهما يتراقصان على جدران المنازل ، ويسقطان فوق ملصق قديم يحمل صورة جمال عبد الناصر الشهيرة ، التى يبدو فيها حزينا ، كسيف البال ، عقب الهزيمة مباشرة .

عرض وديع على أنطوانيت أن تبيت عندنا ، فرفضت وأصرت على أن تعود إلى منزلها فى الشرقية . فأركبناها سيارة أجرة ، وأخذنا أخرى إلى المنزل .

(٢٦)

بدأ آخر يوم لى فى بيروت بسماء ملبدة بالغيوم . وكان وديع لايزال نائما ، فتناولت إفطارى وأنا أقرأ الصحف التى حملت أنباء عدوان إسرائيلى جديد على الجنوب اللبنانى . وكانت هناك صور عديدة للمنازل التى تهدمت نتيجة لهذا العدوان ، وللضحايا الراقدين فى المستشفيات .

أعددت حقيبتى ونظفت الغرفة ورتبت فراشها . وفعلت نفس الشيء بالمطبخ والصالة . وأخيرا إستحممت وإرتديت ملابسى . وكان وديع قد إستيقظ خلال ذلك ، وتناول إفطاره . وعندما عدت إلى الصالة وجدته يستعد للخروج .

قال :

ــ سأعود قبل المساء لأرافقك إلى المطار .

قلت :

ــ لا داعى . يمكننى أن أطلب تاكسى .

قال :

ــ سأطلبه لك . السادسة معقول ؟

قلت :

ــ معقول .

إتجه إلى الباب فاستوقفته قائلا :

ــ إذا عدت مبكرا تلفن لى أولا فربما جاءتنى زائرة .

وعدنى أن يفعل وغادر المسكن .

كانت هناك زجاجة ويسكى فوق المكتب ، فأفرغت كأسا وجلست أحتسيها . وقبل الظهر بقليل دق جرس التليفون .

رفعت السماعة وأنا أقول بلهجة آلية :

ــ آلو .

جاءنى صوت لميا معاتبا :

ــ دمك تقيل .

قلت بنفس النبرة :

ــ أهلا .

قالت :

ــ لماذا لم تتصل بى ؟

ــ ألم تطلبى منى ألا أفعل ؟ ووعدت أن تتلفنى ؟

ــ لم أستطع .

ــ هل أعددت العقد والمقدم ؟

لم ترد وإنما سألتنى بدورها :

ــ فى أى ساعة تسافر ؟

ــ سأخرج من هنا فى السادسة .

ــ وديع عندك ؟

ــ لا .

ــ متى يعود ؟

ــ بالليل . لماذا ؟

ــ سآتى عندك بعد ساعة .

سألتها :

ــ ومعك العقد ؟

قالت :

ــ سنحكى عندما آتى .

إرتشفت ما تبقى فى كأسى ، وملأتها من جديد . وعندما جاءت كنت قد شربت ثلاث كؤوس أخرى .

خلعت معطفها عن جوب قرمزية اللون ، وبلوفر بلون الملابس العسكرية ، ذى فتحة واسعة كشفت عن بلوزة من نفس اللون . وألقت بحقيبة يدها ، والمظروف الأصفر الذى يضم مخطوطتى فوق مقعد ، وتهالكت فوق الأريكة .

كان شعرها معكوصا على هيئة ذيل حصان . وكنت لأزال واقفا فسألتها :

ـــ قهوة ؟

قالت :

ـــ ما بدّى .

جلست أمامها وأشعلت سيجارة .

قالت :

ـــ هل تعرف ماذا تبينا بشأن المسلح الذى هاجم أبو خليل ؟ ولا أثر . فلم يره أحد غيره . الظاهر أن القصة كلها من تأليفه وإخراجه .

ـــ ولماذا ؟

ـــ لكى يقنعنا بضرورته بعد أن شعر أنى سأتخلص منه . تعرف أنى أخاف منه أحيانا ؟ أشك أنه كان قناصا خلال الحرب .

ـــ ما هى مهنته الأصلية ؟

ـــ أظنه كان بائعا فى متجر أو حارس بناية .

ـــ أيكون هو الذى دبر حادث الانفجار ؟

ـــ لا . هذه قصة أخرى . نحن نعرف من فعلها . وقد تفاهمنا معهم .

ـــ من ؟

ـــ لا أستطيع أن أقول لك .

قالت بعد لحظة :

ـــ عدنان كلمنى أمس . وقرأت له عدة فقرات من مخطوطتك . الفقرات التى يمكن أن تثير مشاكل ، وتمنع التوزيع فى البلدان العربية . فقال لى إنه لا يستطيع أن يتحمل مسئولية نشرها فى الظروف الحالية .

أشعلت سيجارة جديدة وقلت :

ـــ كان يمكن أن تبلغينى بذلك على التليفون .

قالت :

ـــ دمك تقيل .

قلت :

ـــ صديقتك قابلتنى أمس .
ـــ جميلة ؟ كيف ؟
ـــ إتصلت بى وطلبت أن نتقابل .

تساءلت فى دهشة :
ـــ وماذا كانت تريد ؟
ـــ طلبت منى أن أقطع علاقتى بك .
إحتدت :
ـــ متطفلة . ما بقى فينى أحْمِلْها . إنها دائما هكذا مع أصدقائى .
ـــ لماذا ؟
تطلعت إلى بعينين واسعتين بريئتين :
ـــ لا أعرف .
ـــ لقد ذكرت لى كل شيء . أقصد عن علاقتكما .

شحب وجهها وقالت :
ـــ لم أفهم .
ـــ لا داع للتغابى . فأنا لا أحاسبك .
صاحت منفعلة :
ـــ ولماذا تحاسبنى ؟ أنا أفعل ما أشاء .
ـــ بالضبط .

إستطْرَدَتْ بنفس الانفعال :
ـــ هل ذنبى أنى لا أطيق فظاظتكم وأنانيتكم وغروركم ؟ أنت لا تعرف الرجل اللبنانى . حياته كلها تدور حول تسديد الأقساط ، واللحاق بالسباق ، وإنجاب ولد يحمل إسمه الكريم .
ـــ إنه يفعل ذلك من أجلكن .
ـــ أعرف . ولهذا أعود إليه دائما . على العموم أنا أفضل الرجال .

ضَحِكْتُ ، فإنفثأ غضبها ، وإبْتَسَمَتْ .
قلت :

ــ أنت حرة . طالما أنت سعيدة .

قالت :

ــ لم أعرف السعادة إلا عندما كانت أمي إلى جانبي . كانت قوية . وكنت أريد أن أكون مثلها ، فإشتركت فى المظاهرات .

ــ أيام الجامعة ؟ .

أطرقت برأسها :

ــ هل تصدق أنى كنت أهتف لفلسطين وجمال عبد الناصر وضد الامبريالية ؟ ومرات هتفت لماوتسى تونج .

ــ وبعدها ؟

ــ ماتت أمي . ثم تزوجت . ولم أجد القضية التى تستهوينى .

ــ لانك لا تحبين إلا نفسك .

قالت هازئة :

ــ كيف عرفت ؟ أنا فعلا أحب جسمى .

ــ أنا أتكلم جادا . أنت تأخذين فقط . أتحداك أن تذكرى مرة واحدة أعطيت فيها .

إبتسمت وأومأت بذقنها إلى الأريكة وهى تقول :

ــ كتير . معك مثلا .

قلت :

ــ معى كنت تأخذين دون أن تعطى .

قامت واقفة وإقتربت منى ثم جلست فوق ساقى .

قالت :

ــ ألا تريد أن تعطينى شيئا قبل أن تسافر ؟

بدت شهية وقد تضرج وجهها من الانفعال . أحطت خصرها بذراعى فمالت على صدرى وقالت :

ــ لم أكمل لك ما قاله عدنان . إنه مستعد للمغامرة من أجلك ، بسبب الوعد الذى أعطاه لك . ولكن فى هذه الحالة يجب أن تتنازل له عن كافة حقوقك .

ــ هذا كل شىء ؟

ـــ لا . هناك فكرة أخرى . توجد شركة سويسرية مهتمة بنشر الكتاب .
ـــ باللغة العربية ؟
ـــ طبعا .
ـــ لم أكن أعرف أن السويسريين يقرأون العربية .
ـــ ستوزعه على القراء العرب .
ـــ فى سويسرا ؟
ـــ لا يا عبيط . إستخدم مخك . الكتاب لم يترك نظاما عربيا واحدا دون تعريض . ثم هناك ما به من جنس . ما هو المكان الوحيد الذى يمكن أن يوزع فيه دون قيود ؟

قلت :
ـــ لبنان .
قالت :
ـــ لبنان ليس مركزا للتوزيع . إنه مركز للانتاج وحسب . ولا يوجد ناشر فى قواه العقلية يفكر فى الاعتماد على القارىء اللبنانى وحده . مكان واحد فقط هو الذى يمكن فيه طبع الكتاب وتوزيعه بسهولة .

تساءلت فى حيرة :
ـــ أين ؟
ـــ لم أكن أظن أنك بهذا الغباء . إسرائيل طبعا . هناك أكثر من مليون وربع مليون فلسطينى يتعطشون لقراءة كلمة باللغة العربية .

أشعلت سيجارة جديدة . ولاحظت أن يدى ثابتة .

إستطردَتْ :
ـــ إكتب لنا تفويضًا ، ونحن نتولى الأمر كله . ستحصل على عائد مجز . وفى الامكان أن تأخذ جانبا منه قبل سفرك .
رفعت حاجبا وسألت :
ـــ نقدا أم عينا ؟

دفعتنى بيدها فى صدرى وقالت :

ـــ أنت سيء . لا تستحق المعروف .

مالت على وألصقت خدها بخدى وهمست بالانجليزية :
ـــ تعرف أنك لم تنم معى حتى الآن ؟

وضعت راحة يدى فوق فتحة البلوفر المثلثة ، وصعدت بها فوق جيدها ، حتى عظمتى الترقوة . ولمست أناملى قاعدة عنقها ، فتحسست بشرتها .

همست :
ـــ تعجبك رقبتى ؟

دفعت رأسها إلى الوراء لتعطينى فرصة الاعجاب برقبتها ، فأحطتها بأصابعى .

أغمضت عينيها ، وسرى لون أرجوانى فى بشرة عنقها ، إمتد إلى ذقنها ووجنتيها . كان ملمس رقبتها ناعما وطريا ، فضغطت عليها برفق .

قالت بصوت خافت :
ـــ آى . أنت تؤلمنى .

شعرت فجأة أنى منتصب إلى أقصى درجة . ودون أن أتخلى عن رقبتها ، حررت جسدى بيدى اليسرى ، وأزحت ملابسها جانبا . ثم إنحنيت فوقها ، ورفعت يدى اليسرى إلى عنقها ، فأصبحت أقبض عليه بأصابع اليدين بينما كنت أدفن نفسى فى جسدها .

إتقد وهج غامض فى فضاء الغرفة ، وسرى فى جسدى وكل كيانى . وإستمرت أصابعى تضغط على عضلات عنقها وعروقه النافرة ، بينما جسدى يتحرك فوقها .

بدأ وجهها يتقلص من الألم . وإفترت شفتاها عن آهة . وإحتقن عنقها ووجهها . لكننى لم أراع . فقد كانت النار مشتعلة أمامى . وكان مائى يغلى غليانا ويوشك أن يفور ويتدفق . وأصبحت كل ضغطة من أصابعى على رقبتها خطوة نحو حافة الهاوية الحالكة . حيث البركان المتفجر والنشوة المطلقة .

(٢٧)

لم أخنقها ، ولم يتحقق أورجازمى . فقد إستَجْمَعَتْ قواها ، ودفعتنى عنها بعنف . وإستطاعت أن تخلص رقبتها من بيْنَ أصابعى . وهبت واقفة وهى ترمقنى فى هلع ، بينما تهالكت فى مقعدى ، لاهثا ، مرتعش الأطراف .

رفعَتْ يديها إلى عنقها ، وحركت شفتيها ، لكن صوتها إحتبس فى حلقها . ودون أن تعبأ بهيئتها ، إختطفت معطفها وحقيبة يدها ، وهرعت إلى باب المسكن ففتحته ، وإندفعت إلى الخارج .

أنصت إلى وقع أقدامها فوق الدرج . ثم نهضت فى بطء ، فسويت ملابسى ، ومضيت إلى الباب فأغلقته .

كانت الشمس قد غربت ، وإنتشر الظلام بسرعة أكبر من المعتاد . فأضأت مصباح الصالة . ومضيت إلى المكتب ، فتناولت زجاجة الويسكى ، ونزعت غطاءها ، وجرعت من فوهتها مباشرة .

بحثت عن علبة السجائر ، فوجدتها على الأرض إلى جوار المقعد . أشعلت سيجارة بأصابع مرتعشة وعدت إلى مقعدى .

دخنت السيجارة حتى نهايتها ، وأطفأتها فى المنفضة . ثم مضيت إلى غرفتى ، فحملت حقيبة يدى وحقيبة السفر إلى الصالة . وتناولت المظروف الذى يضم مخطوطتى ، فأعدته إلى الجيب السرى بحقيبة السفر .

شعرت ببرودة مفاجئة ، فارتديت سترتى ، وأخذت ملء فمى من زجاجة الويسكى . وألقيت نظرة على ساعتى ، ثم أشعلت سيجارة وعدت إلى مقعدى .

سمعت زمارة سيارة بعد مدة ، فمضيت إلى الشرفة . ووجدت سيارة أجرة أمام المنزل . أغلقت باب الشرفة ، وإطمأننت على وجود جواز السفر وبطاقة الطائرة

فى جيبى . ثم علّقت الحقيبة الصغيرة فى كتفى ، وحملت الأخرى فى يدى . وألقيت نظرة أخيرة حولى ، ثم أطفأت النور ، وغادرت المسكن .

(تمت)

خلف كل كتاب ، هناك دائما كتب أخرى ، وأشخاص غير المؤلف .

وسواء بالمعاونة الفعلية أو التعضيد النفسى ، فان هذا الكتاب مدين بوجوده لزوجتى ، ورؤوف مسعد ، ومحيى اللباد ، ومحمد برادة .

أما الكتب فهى : « حرب لبنان » تحرير جلال محمود وعدسة عبد الرازق السيد ، الذى فقد حياته أثناء قيامه بعمله عقب الإجتياح الإسرائيلى لبيروت الغربية ١٩٨٢ ، دار المسيرة ١٩٧٧ ، « يوميات الحرب اللبنانية » ، مركز التخطيط التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية ١٩٧٧ ، « الأزمة اللبنانية » ، مجموعة باحثين ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ١٩٧٨ ، « مذبحة لبنان الكبرى » ، سامى منصور ، المركز العربى القاهرة ١٩٨١ ، « تل الزعتر » ، الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية ١٩٧٧ ، « عملية الليطانى » اشراف الياس شوفانى ، مجلة فلسطين المحتلة ١٩٧٨ ، THE TRAGEDY OF LEBANON, BY JOHANTHAN RANDAL, 1983 ، « خريف الغضب » ، محمد حسنين هيكل ، ١٩٨٣ ، « الحرب وتجربة الحركة الوطنية اللبنانية » ، محسن إبراهيم ، بيروت المساء ١٩٨٣ ، مقالات بكر الشرقاوى بمجلة روز اليوسف ١٩٧٦ ، وعصام شريح بمجلة الدوحة ١٩٨٢ ، « كيوشى » ، حيدر حيدر ، ابن رشد ١٩٧٨ ، « صباح الخير يا وطن » ، رؤوف مسعد ، مطبوعات القاهرة ، ١٩٨٣« الناس والحصار » ، محجوب عمر ، العربى ١٩٨٣ ، « أوراق من دفتر الولد العاملى » ، هانى فحص ، دار الكلمة ١٩٧٩ ، « كوابيس بيروت » ، غادة السمان ، « حكاية زهرة » ، حنان الشيخ ، « الجبل الصغير » ، إلياس خورى ، BEIRUT—UP FROM THE RUBBLE, W. ELLIS & S. MCCURRY. NATIONAL GEOGRAPHIC, FEB. 1983.

والشكر للأصدقاء الذين تكرموا بقراءة المخطوطة وإبداء ملاحظاتهم عليها وهم سعد الدين حسن ، غانم بيبى ، نادية محمد يوسف ، يسرى نصر الله ، وآخرين لا تسمح الظروف بذكر أسمائهم .

أبريل (نيسان) ١٩٨٢ —
ديسمبر (كانون أول) ١٩٨٣
مصر الجديدة

للمؤلف

روايات :

** **تلك الرائحة :**

الطبعة الأولى (صودرت) مكتب يوليو ، القاهرة ١٩٦٦

الطبعة الثانية (غير كاملة) ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ١٩٦٩ ، كتابات معاصرة ، القاهرة ١٩٧١

نشرت بمجلة « شعر » البيروتية ١٩٧٩ ، كما صدرت بالانجليزية مع أربع قصص قصيرة عن دار « هاينمان » اللندنية ١٩٧١ ، ١٩٧٨

** **نجمة أغسطس :**

الطبعة الأولى ، إتحاد الكتاب العرب ، دمشق ١٩٧٤

الطبعة الثانية ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ١٩٧٦

الطبعة الثالثة ، دار الفارابى ، بيروت ١٩٨٠

الطبعة الرابعة ، مكتبة صلاح الدين ، القدس المحتلة ؟

** **اللجنة :**

الطبعة الأولى ، دار الكلمة ، بيروت ١٩٨١

الطبعة الثانية ، مطبوعات القاهرة ١٩٨٢

الطبعة الثالثة ، دار الكلمة ، بيروت ١٩٨٣

رحلات :

** إنسان السد العالى (بالاشتراك مع كمال القلش ورؤوف مسعد) ، دار الكاتب العربى ، القاهرة ١٩٦٧

ترجمة :

** **العدو** ، للروائى الأميركى جيمس دروت ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ١٩٧٥
** **الحمار** ، للروائى الألمانى جونتر دى برون ، دار إبن رشد ، بيروت ١٩٧٧
** **معونة أم إستعمار جديد** ، للأكاديمى السوفييتى أرنولد أنوخكين ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ١٩٨٠
** **ولد لا يعرف الخوف** ، للأخوين جريم ، الورشة التجريبية لكتب الأطفال ، القاهرة ، والمؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٨١

روايات علمية :

** **عندما جلست العنكبوت تنتظر** ، دار الفتى العربى ، بيروت ١٩٨٠ ، ١٩٨٣
** **البرقات فى دائرة مستمرة** ، دار الفتى العربى ، بيروت ١٩٨٠ ، ١٩٨٣
** **يوم عادت المملكة القديمة** ، دار الفتى العربى ، بيروت ١٩٨٠ ، ١٩٨٣
** **زعنفة الظهر يقابل الفك المفترس** ، دار الفتى العربى ، بيروت ١٩٨٣
** **الدلفين يأتى عند الغروب** ، دار الفتى العربى ، بيروت ١٩٨٣
** **الحياة والموت فى بحر ملون** ، دار الفتى العربى ، بيروت ١٩٨٣


International
Press
٥ جمال الشاهد ـ مدينة الصحفيين ت ٨١٤٢٥٩

بدت الساحة الرئيسية محاطة بالأطلال من جميع الجوانب .. كانت المنازل القديمة ماتزال قائمة . لكن نوافذها وأبواب حوانيتها تحولت إلى كوات مظلمة تتخللها قضبان ملتوية من الحديد . وفوق الأسطح خيمت بقايا من هياكل إعلانات النيون ..

وعلى أحد الجدران كان ثمة ملصق كبير الحجم .. يتألف من صورة فوتوغرافية مكررة عدة مرات للجزء الأعلى من امرأة عارية ، أحاطت بذراعها الأيمن رأس رجل عار ، إنحنى بفمه فوق أذنها ...

إنها بيروت بعد سنوات طويلة من الحرب الأهلية والغزوات الاسرائيلية ..

وبينما تحاول « أنطوانيت » خلال كوم من الوثائق ، أن تكشف عما حدث ، ولماذا حدث ، يعكف « وليد » الفلسطينى على رسم الخرائط للحقائق المعروفة ، ويتخبط « وديع مسيحة » فى سعيه الملهوف خلف الأمان ، ويلهث الآخرون فى بحثهم المشروع عن اللذة !

وخلال ذلك تتبدى بيروت : الرمز المتعدد : لثورة الفقراء ، لانتصار الحلم الفلسطينى ، لازدهار الثقافة والفكر ، وللمتعة المتحررة من المحرمات وسلطان التابوهات !

بانوراما شاملة لمشهد معاصر ذى دلالات عميقة ، فى روا
مؤلف « تلك الرائحة » و « نجمة أغسطس » ، و « اللجنة » .





دار المستقبل العربى

الثمن ٣٥٠ قرشاً